

أخواتنا البنات

معرفة



جميلة الكباري

أَرْضُ الْأَنْبِيَاءِ

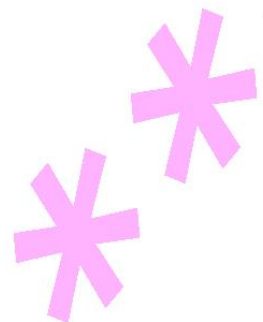


نَجِيبُ الْكِلْبَانِي



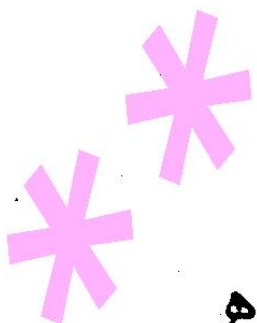
مطابع دار الكتاب العربي بمصر
محمد حلمي المنياوي

نجيب الكيلاني



أرض الانبياء

موسى النبي



رواية

هَذِهِ الرَّوَايَةُ

في أغسطس عام ١٩٥٤ كنت على موعد مع أمنية غالية حبيبة إلى نفسي طالما حلمت بها. لم أكن أصدق نفسي وأنا أركب الباخرة «أيونيا» من ثغر الإسكندرية قاصداً فلسطين .. عن طريق قبرص ثم لبنان .. كنت أعتبر مجرد رؤية هذه الأرض الخالدة أروع حلم يتحقق لي .. وليس أروع منه سوى أن تتحرر هذه الأرض السليبية ..

أجل ، كانت فلسطين تشغل قلبي وعقلي ، فقد ارتبط اسمها في مخيلتي بتاريخ رائع جميل .. بالمجد الذي لا يندثر .. بالبطولات العريقة التي تتوهج عبر الزمان م، امتد وطال .. بالمعجزات التي ترففت على ثراها العاطر .. بالنبوءات التي حملت مشاعر الهداية والحب والحرية والسلام لبني البشر .. بالصراع الرهيب الذي دارت رحاه بين العرب وذئاب الغدر من صليبيين ومغول وتثار على أرضها .. وارتبطت طبيعتها في ذهني بأحلى ما يتخيله عقل فنان .. الزيتون الأخضر على أرضها .. والورود والنخيل والينابيع .. والمآذن والقباب والمراعي الخضراء .. والرمال الذهبية .. وخلف هذا كله شعب عربي أصيل يتميز بقوة الخلق ، وشدة الإيمان ،

ونبيل التسامح .. كانت هذه هي فلسطين في مخيلتي .. وطناً ..
وتاريخاً .. وشعباً .. وعقيدة .. وأخيراً استقر بنا المقام
في الأرض المقدسة ..

وفتحت عينيّ على العالم الذي حلّمت به طويلاً .. كنت أعانق
كل الوجود من حولي .. قطعة الصخر التي أراها تبدو وكأنها ماسة
فريدة .. الزرع الأخضر يبدو لي وكأنه روضة من رياض الجنة ..
الناس في الطرقات لم أتصور أنهم بشر .. إما أنبياء أو ملائكة ..
ولم تطل بي أحلامى الوردية ..

ما أقسى أن يستيقظ الإنسان . من رؤيا جميلة منعشة ، ثم
يفتح عينيه فلا يرى غير الضياع والظلام والهوان ، إن الاصطدام
بالواقع المر الأليم قاسى غاية القسوة ..

فلسطين التي أعرفها كانت شيئاً آخر ..
واليوم ! ! ماذا أرى ؟ ؟
شعباً منزوياً كأنه منبوذ .

عذارى في ميعة الصبا يرتدين السواد ..
عيوناً حزينة مبللة بالدموع دائماً ..
وجوهاً شاحبة تقرأ فيها قصة الموت المرتقب ..
طفولة بائسة يائسة محرومة من الدلال والرغد واللهو البرى ..
ويندر أن أرى ابتسامة .. وإذا رأيتها فهي مفتعلة محتضرة ..

والأفق يبدو وكأنه يعيش في غروب دائم ..
 وفي « القدس » العربية - أعني نصف المدينة الغير محتل ..
 كان الناس يسيرون في الشوارع وكأنهم في ماتم دائم ، أجل ..
 مدينة خاصمت السرور والمرح ، تعيش تحت مرمى مدافع العدو
 بلا سلاح أو قوة .. كبقافة حزينة تتركب زوارق هشة في بحر عاصف.
 وفي معسكر « عقبة جبر » - حيث يقيم اللاجئون - وغيره من
 المعسكرات لم أرى سوى الصورة القائمة المكتئبة ، وإن كانت
 أكثر سواداً ، وأعمق شقاءً ..

وقرأت في عيون الأطفال سؤالاً حاداً: إلى متى نبقى هكذا؟؟ وعلى
 وجوه العذارى الفاتنات الشاحبات: ما هو المصير الذي ينتظرنا؟؟
 وعلى التلال والوديان والصحراء الممتدة ، لكأنى كنت أسمع
 هذا العويل :

- « متى تنتهى قصة الخراب والضياع والقلق؟؟ » .

وأحسست في نهاية إحدى جولاتي بالتعب والإرهاق الشديد ،
 كنت جائعاً لكن نفسى عافت الطعام ، ووجدتني أسير حتى بلغت
 « المسجد الأقصى » .. وخلعت زعملي ، ودلفت إلى المسجد في خجل ..
 كان المسجد رطباً هادئاً .. وكانت أقدامى الملتهبة تلامس أرضه
 الباردة فأشعر بغير قليل من الراحة .. وعند « قبة الصخرة » التي
 يقال أن النبي (ص) قد صعد منها يوم « المعراج » وقفت .. أخذتني

روعة المنظر وجلاله الحزين ، وترددت في أعماق آيات من الشعر
حفظتها من زمن بعيد :

مررت بالمسجد المحزون أسأله هل في المصلى أو المحراب مروان
تغير المسجد المحزون واختلفت على المنابر أحرار وعبدان
فلا الأذان أذان في منارته إذا تعالى ولا الأذان آذان

وانهمرت دموعي على الرغم مني ..
وأحسست بيد حانية تربت على كتفي ، وتلفت فإذا شيخ مهيب
فضى اللحية . أبيض الوجه يتسم في مواساة ويقول :

— « ما يبكيك يا ولدي ؟؟ »

قلت وأنا أحاول أن أمنع شهقاتي التي توشك أن تحطم ضلوعي :

— « فلسطين .. »

— « من أي بلد أنت ؟؟ »

— « مصر .. »

كان الشيخ أحد حراس المسجد ، وجلس يرفه عنى وعن
نفسه فالمصاب واحد ، وقال كلاماً كثيراً ، لكن الذى أذكره ، هو
قوله : إن الصليبيين قد اختطفوا هذه الديار مئات السنين وحكموها
وحاولوا تغيير معالمها ، لكن النتيجة دائماً هي أن تعود الأرض
في النهاية لأصحابها .. أننا مؤمنون .. ولن يتزعزع هذا الإيمان ..
والمعركة لم تنته . والعود أحمد .. ، وتطلعت إلى الشمس الغاربة

من خلال نافذة قريبة ، وأسرعت بأداء الصلاة الباكية ، ثم عدت
أدراجي منهمك الروح والجسد إلى مقرى بمدرسة « الرشيد »
حيث كنت أفضى ليلي فيها طوال إقامتى بالقدس .

ورأيت بعد ذلك الحياة فى « عمان » و « دمشق » و « بيروت »
و « القاهرة » ، لكن صورة فلسطين الجريحة كانت دائماً تفرض
نفسها أمام عيني . . وتؤرق يقظتى ومنامى . .

وتطلعت إلى الأرض الطيبة وأنا أغادرها عائداً إلى ديارى ،
وقد ترقرقت فى عيني الدموع ، ويتردد فى فؤادى قسم بالأنا أنسى
أبداً فلسطين . . وألا أدخر وسعاً فى سبيل نصرتها بأغلى ما أملك
وفى أى وقت من الأوقات . . وأن أظل أروى قصتها الدامية لأبنائى
وسأبقى على العهد ما حييت . .

* * *

وهذه القصة التى بين يدي القارىء إنما هى مجهود متواضع ،
وبداية بسيطة ، أقدمها لشباب الأمة العربية والإسلامية آملاً أن
يحدوا بين سطورها عمق المأساة التى استشعرها ، وعظم النكبة التى
يحياها إخوان لنا فى العقيدة والوطن والتاريخ ، واضعاً يدي فى أيديهم
متعاهدين على إعادة الحق إلى أهله . . وإلى اللقاء ؟

نجيب الكبيلاى

الفصل الأول

مدينة « حيفا » بدت تحت جناح الظلام كابية حزينة ،
 وارتجافات النجوم في سماءها الصافية توحى بالقلق ، ودمدمات
 غامضة تنبعث من البحر الواسع الكبير ، لكأن المدينة كأن حى ،
 ولكأن مظهرها يشبه مسافراً غداً وعلى ملامحه ترسم سمات الآسى
 والحزن والغربة المرتقبة . .

والأشجار الخضراء في شوارع « حيفا » تتمايل في بطء وكأنها
 ضيرير يرتل آيات القرآن في كسل ووهن ، والبيوت تتراص جامدة
 ساكنة ويتسلل عبر نوافذها أضواء هزيلة ، ورجال الدرك قد
 أضناهم السهر ، فداعب النعاس أجفانهم ، فوقفوا وترنحين بين
 اليقظة والمنام ، يحملون بالفراش الوثير ومنتعة الراحة . .

أكانت المدينة الخالدة تشعر أنها على أبواب تغير ضخم ؟ ؟

وتحت ستار الظلام كانت تجد أحداث هائلة ! !

الأطفال نائمون تحت أسقف المنازل يبتسمون في وداعة وفراغ
 بال . ويحملون بالفاكهة الشمية . والدمى الفاتنة ، واللعب على شاطئ
 البحر ، ويسبحون في عالم بهيج رائع ، والعداري يهمن - وهن
 في شبه خيبوبة شجية - بالأمنيات العذبة ، والشباب اليافع ،
 والشيوخ - تحت وطأة السنين واقتراب الأجل وحب الله -
 (١ - أرض الانبياء)

- ١٠ -

يتمتمون بالدعاء ، ويضرعون إلى الله أن يهبهم السر والرضا والجنة .

وفي جانب آخر كان معسكر القوات البريطانية في حركة دائبة ، الجنود يروحون ويحيثون ، وذخائر توضع في العربات الكبيرة ، وأشياء كثيرة تنقل من مكان إلى مكان ، والطريق إلى البحر مزدحم بالذاهبين والعائدين ، ولدى الشاطئ رست قطع عديدة من الأسطول البريطاني ، وإلى جوارها سفن أخرى آتية من أماكن مجهولة في أوروبا عليها قوات يهودية . .

وفي المعسكر الرئيسي للقوات البريطانية ، اجتمع ضباط القيادة ، وفي الصدارة كان يجلس القائد الأعلى ، وبعد لحظات قصيرة من الصمت قال القائد : -

- « صدرت الأوامر بتنفيذ الخطة . . »

ولما لم يعلق أحد بشيء استطرد : -

- غداً ستعلن حكومتنا انتهاء الانتداب على فلسطين ، لقد أديننا واجبنا ، وما علينا إلا أن نسلم الأرض لأهلها . . هذه هي الأوامر . . وأصحاب الأرض ليسوا هم العرب وحرهم فاليهود أصحاب حق هم الآخرون . . وكبرياء العرب تأبى أن تسلم لهم بحقهم . . ولكي ندعم قرار تقسيم فلسطين ، ونجعله حقيقة واقعة كان من الواجب علينا أن نهب اليهود أرضاً يقفون عليها ،

- ١١ -

وسلاحاً يؤكدون به وجودهم . . ولهذا كانت الأوامر صريحة بأن يتسلحوا السلاح والمواقع مناسم تنسحب نحن بأمرع ما يمكن . . مفهوم ؟؟ ،

وهمس الحاضرون دون انفعال : -

- « مفهوم .. »

ووثب الشيخ « إسماعيل ريحان » من سريره فجأة ، كانت طلقات المدافع تتوالى في سرعة مجنونة ، وتهز أرجاء الحى هزاً عنيفاً ، وكانت نذر الصباح تزحف من الأفق الشرقى ومع هذا فإن المؤذن لم يجلجل صوته كالمعتاد عند وجوب صلاة الفجر ، واستطاع الشيخ أن يربط بين تعطيل الشعائر الدينية وإطلاق الرصاص ، واستنتج على الفور أن شيئاً خطيراً يحدث ، وأن الصباح سوف يحمل أنباء مهيبة . . ارتعشت لحيته البيضاء ، وشب وجهه الأشقر شحوباً ظاهراً ، أما قلبه فقد أخذ يدق في عنف وكأنه قبضة سجين تدق جدار سجنه العتيد ، ولم تستطع البسملات والحوقلات أن تذهب عن نفسه القلق ، أو تقضى على نوازع الخوف التي انبثقت في قلبه ، فقد كانت طلقات الرصاص في ازدياد ، وأخذ يسمع ضجيجاً متصلاً يختلط بالأزيز المجنون ، ولم يكن الشيخ إسماعيل ريحان قد أفاق ما دهمه حينما سمع وقع أقدام تدق الطريق المرصوف في تتابع

- ١٢ -

فاقترب من النافذة ورفع جفنيه الثقيلين ، ودقق البصر عبر العتمة
التي خالطها ضوء الصباح الوليد ، وصرخ من الرعب : -

- « لیسوا جنوداً بریطانیین . . . »

وقالت زوجه والنعاس يخالط نبراتهما : -

- « ماذا تقول يا أبا وليد؟؟؟ »

- « نجمة إسرائيل . . الوجوه البغيضة . . النظرات الخائنة

الحاقدة المتعطشة للدم . . لقد فعلوها . . . »

وهبت الزوجة من سريرها ، وقالت وهي تقترب منه :

- « لا أفهم شيئاً من حديثك . . . »

قال وهو يمسك بكتفها ويهزها في عنف وقد اغرورقت عيناه

بالدموع : -

- « أيقظي الأولاد يا امرأة . . سوف تغرق المدينة في بحر

من الدماء . . . »

- « أعوذ بالله . . . »

قالها الزوجة وقد شلها الخوف ، فتركها الشيخ إسماعيل ، ثم

قصد نحو منضدة صغيرة تقبع إلى جوار سريريه ، وتناول نسخة من

المصحف الشريف ، وضمها إلى صدره في لهفة ، وقد انسابت الدموع

على خديه حتى بللت لحيته الشقراء ، وأخذ يتمتم : -

— « نسيناك يا إلهي فأنسيتنا أنفسنا . . وشغلتنا الدنيا ثم غدرت بنا ، وتصامنا عن ندائك فسلطت علينا أعداءنا ، اللهم لا ملجأ منك إلا إليك . . اللهم لا ملجأ منك إلا إليك . . أتترك أرضنا الظاهرة . . أرض الأنبياء يلوثها الكفرة والمعتدون . . »
وغاص قلبه عندما سمع دقات عنيفة بالباب ، وهتف في صوت
باكٍ جريح :-

— « من بالباب ؟ ؟ »

— « أنا خميس درويش يا عم الشيخ اسماعيل . . »

وخميس يسكن الدور الثاني بمنزل الشيخ ، وهو مدرس شاب بالمدرسة الابتدائية القريبة ، ويبد مرتعشة عاج الشيخ الباب حتى فتحه وقبل أن ينطق بكلمة ، قال خميس :-

— « الإنجليز سلموا مفاتيح المدينة للعصابات الصهيونية . . لقد دبرت المؤامرة بليل . . من خلال نافذتي رأيت الأحياء العربية تشتعل فيها النيران . . والعصابات المسلحة تنقض على العرب وتغتالهم دون رحمة . . إن بقاءنا هنا معنا الانتحار . . فنحن بلا سلاح وبلا تنظيم وقد أخذونا على غرة . . يجب مغادرة المدينة على الفور . . »

كانت نظرات الشيخ الزائغة تتأرجح دون هدف ، لقد أربكه هول الموقف ، وهدته الكارثة ، ومع ذلك فقد تبلور الموقف برغم

الصورة المهزورة الشائنة ، فالبقاء معناه الموت ، والخروج معناه
الفرار والعار ، وأمام هذا الموقف المؤلم عاد الشيخ إلى وراء ،
إلى الماضي القريب منذ أن كان يرى المأساة تنمو وتنمو ،
والسرطان الصهيوني يزحف في خبث والناس نائمون عن الخطر
السكامن وراءه ، وأتمزيق والضياع ينهشان في كيان الأرض
الطاهرة ، كانوا يتحركون كمخدرين لا يستطيع أقوى الأصوات
المنذرة أن تذهب عن عقولهم النوم والجمود .

وصرخ خميس :

— « فيما صمتك يا سيدي الشيخ ؟ »

قال الشيخ متلهثا :

— « أنا . . . أنا ! ! افعل يا وادي ماتراه . »

— « الرحيل فوراً . انه ليس جيناً . . . »

— « إنه كارثة على أية حال . . . »

— « لكننا نحافظ على حياتنا لنبدأ المركة خارج « حيفا » .. »

وضياع المدينة خسارة جزئية بسيطة . . . ، وقطع عليهما الحديث

توافق السكان من الأدوار العليا الثاني والثالث والرابع وتجمهرهم

أمام شقة « الشيخ اسماعيل ريجان » ، وقد أخذ منهم الذعر كل

مأخذ ، وخاصة النساء وبعض الأطفال ، وصاح شاب فارح يقف

في منتصف السلم : —

- ١٥ -

- « يجب أن نموت هنا .. الموت أرحم من التسليم .. »

وانبعث صوت آخر : -

- « هذا جنون .. »

- « كرامتنا تفرض علينا أن نحارب » .

- « بأى شىء ؟؟ »

- « بالأيدي .. بالعصي .. بالمدى الصدئ .. هؤلاء المجرمون

أجبن مما تتصورون .. »

فجاءة الصوت من جديد : -

- « لكن هؤلاء الجبناء يا عزيزى مسلحون بأحدث الأسلحة ..

لكم بعز علينا أن نترك أرضنا وديارنا .. « حيفا » جزء منا من

وجودنا وأحلامنا .. قطعة من فلسطين العزيزة .. لكن « حيفا »

ليست الميدان الوحيد .. سيكون كل شبر في فلسطين ميدانا رهيبا .

سنترك « حيفا » وهى أعز علينا من روحنا .. سوف نتركها أيها

الإخوان لنعود إليها »

لكن «ميمون» وهى الشاب المتحمس ، لم يعجبه هذا الكلام ،

ووثب من فوق السلم ، وشق الصفوف ، حاملا فى يده خنجرأ

لامعأ ، وفى لحظات كان فى عرض الشارع ، فوجد ثلاثة من الجنود

الصهيونيين يسرون فى حذرتو جس ، فمرخ بهم وهو يلوح بخنجره :

- ١٦ -

- « إلى أيها الأنجاس »

ورمقته العيون الدامعة من خلال الباب النصف مفتوح ،
ودوت في الصمت الرهيب ثلاث رصاصات ، ارتمى « ميمون »
على أثرها متكوما تنزف جراحه دما قانيا ، ويصق فيه الحقد
والأنين .. وأغلقوا الباب ، وانبعث نشييج عالٍ ، وصرخت امرأة :

« ولدى حبيبي .. لماذا فعلت ذلك ؟؟ »

وأمسك خميس شاهين بيد الشيخ ، وقبض عليها بيد متشنجة
وقال وقد تفجرت الدموع من عينيه :-

- « هكذا يموت الناس ببساطة وبلا ثمن »

وسمعوا صفارات متلاحقة ، وهمس خميس وهو يجثف
دموعه :

« اليهود الثلاثة يطالبون النجدة .. وفي دقائق سوف يمتلئ الشارع
بعشرات من جنود العصابات المسلحين .. يجب أن نسرع قبل فوات
الأوان .. إن باب المنزل الخلفي يؤدي إلى شارع ضيق ، وفي
نهاية الشارع توجد بيارة « شعيب بك » ، وسوف نستتر في أشجارها
ونمضي في شعاب الصحراء متجنبين الطريق الرئيسي ، لأنه لا شك
تحرسه القناصة والأوكار اليهودية .. هيا .. لا تضيعوا الوقت .. » .

جمع الشيخ إسماعيل ربحان « أفراد أسرته ، « وليد ، في الخامسة من عمره ، « وضحي » في السابعة عشرة ، وخادمة عجوز تربو على الحسين وزوجه ، وأخذ معه بعض المال والجواهر والمصحف الذي يعتز به ، وكان خميس شاهين أثناء ذلك في حركة دائمة يحمل الأطفال ، ويقود السيدات والفتيان والعجائز إلى الطريق الخلفي وإلى بيارة « شعيب بك » وبعد أن انتهت مهمته حاول أن يلقى نظرة أخيرة على البيت الذي عاش فيه طفولته وصباه ، إنه ليس بيته .. بل بيت الشيخ إسماعيل ، ومع ذلك فهو يشعر الآن وكأنه صاحب البيت ، ودمعت عيناه وهو يتجه صوب الباب الخلفي تاركاً خلفه عديداً من الذكريات والآمال ، وما أن أغلق الباب حتى تنهأ إلى سمعه نحيب باكٍ حزين :

— « ميمون . . ميمون يا حبيبي . . ألا تسمع أمك . .

قتلوك يا ولدي . . »

فتذكر أنه لم ير أم « ميمون » ولا إخوته وأباه مع القافلة الراحلة إلى البيارة ، فهمّ بفتح الباب واستدعائهم لكنه وقف جامداً وقد صدم سمعه صوت الطلقات ، وبحركة لا شعورية فتح الباب الخلفي ، ومن خلال الباب الرئيسي رأى الأحذية الغليظة تدق الأرض ، ورأى أعقاب الغدارات والسلاح الأبيض تعمل عملها في أسرة

«ميمون» الأم والأب والأطفال وجثة ميمون الشهيد . . وصرخات
كصرخات الذئاب الجائعة تعلو على الطلقات ، وأمام المشهد البشع
أعاد خميس إغلاق الباب ، وسار كالمسحور لا يكاد يعي أو يسمع
شيئاً متجهاً بلا إرادة إلى بيارة « شعيب بك » ليلحق بالركب
الضائع السكيب وليواصلوا الرحلة التعسة إلى حيث لا يعرفون .



*** معرفتي ***

الفصل الثاني

ومع الصباح فاحت رائحة الغدر، وتناول الأقرام، واستأسد الذئاب، لم يكن الأمر مفاجأة، فإن قرار تقسيم فلسطين معروف من مدة. لكن الجديد هو ذلك العنف الصهيوني، فعصابات «شترن» «وأرجون» في سباق وحشى رهيب، لا مانع من أن يقتلوا ليحيوا الأمل القديم، وليرتلوا اللحن التائه، «افرحى يا أم إسرائيل»، وليتغنوا بأنشودتهم: «على أنهار بابل قد جلسنا».

ودخل «ميجور» صهيوني بيتاً عربياً والمدفع في يده يتبعه شرذمة من أتباعه الجنود، والتقت بهم لدى الباب عذراء في التاسعة عشرة من عمرها.. فسمرت في مكانها. لكن الميجور أنقض عليها، وفي لحظات كان قد شق قميص نومها بمدية تركت خدشاً صغيراً أسفل العنق. ونظرت الفتاة إلى نفسها فوجدت صدرها مكشوفاً على صورة تجرح الحياء.. ولما همت بستره صرخ فيها الميجور المخمور:

— «كما أنت لا تفعل شيئاً.. إنها لوحة فنية رائعة».

«أنتم العرب لا تقدرون الفن!»

— ٢٠ —

ازداد شحوب وجهها « وتدلى ذراعاها المرتعشان في رعب ،
بينما تتم الميجور يشير إلى صدرها بسلاحه :

— « هذه التمار اليانعة لم يمسها أحد . . لن نستولى على
الأرض والمباني وحدها، بل هذه الكنوز هي الأخرى من حقنا،
ثم التفت إلى أتباعه مستطرداً :

.. « ألا توافقونني يارفاق ؟ وأنت أيها الجاويش « ليفي ، ..
ألست معي ؟ ! فضجت الصالة بضحكاتهم التمللي ، لكنهم توقفوا
عن الضحك فجأة عندما أنقذ أمامهم رجل في الثلاثين من عمره
وفى يده بندقيته المصوبة نحوهم وهتف :

— « كرامتنا أغلى من الحياة أيها الجبناء . . لن تفترسوا
نجلاء ، ودوت طلقات ، فسقط الميجور على الفور قتيلًا ، لكنه
لم يسقط وحده فقد تبردلت الطلقات ، وخر الرجل العربي شهيداً
بعد لحظات ، وصرخت الفتاة صرخة يائسة ، ورمت بنفسها فوق
جثة شقيقها ، وأخذت تهذي بكلمات غير واضحة ، لا يفهم منها
غير مرارة الأسي ، وعمق اللوعة ، كانت تشبث به وتقبل دمه
وجرحه النازف ، وتحتضن رأسه ، وتلمس قدميه ، وتهتف به دون
أن يجيب ، ثم رفعت رأسها ونادت :

— « أبي . أمي . . أخوتي . . تعالوا انظروا لقد قتلوه ، .

وانزعتها يد غليظة حاقدة وقذفت بها إلى ركن من أركان الصلاة ، فوجدت نفسها إلى جوار جثة الميجور الصريع ، فانقضت عليه تنشب أظافرها فيه ، فاتجه صوبها أحد الجنود يريد قتلها ، فنزعه الجاويش « ليفي » من ذلك ، وهو يقول في خبث :

— « انتظر .. لا تفعل شيئاً دون أوامر ، انتهى الميجور » .

وأطلت على الصلاة من باب جانبي خمسة رؤوس : الزوج والزوجة وفتاة تصغر أختها بعامين وطفل في السابعة وشاب في الثالثة والعشرين ، قال الشيخ وهو يصر على أسنانه .

— أعرف أنكم قتلتموه . . له الله . . إذن دعونا نرحل عن هنا إننا نترك لكم دارنا ومنازلنا نرحل » :

قال الجاويش الإسرائيلي :

— « حسن . . نحن لسنا هواة قتل وسحل ، نحن بشر ، ولولا أن ابنك قتل لما قتلناه . . لكن لنا شرط واحد »

كان الدمع يعمر عيني الشيخ ، وكانت صورة الجاويش تبدو موشحة بالضباب والغموض ، كل الصور والمرئيات تهتز أمامه حتى جثة ابنه الشهيد ، لكن كانت هناك بقية من عقل ، لم يكن يفكر في شيء سوى أن يحمي أسرته الصغيرة ، ويفلت بهم من المخالب الجراء المتوحشة التي لا ترحم ، ولهذا كظم أحزانه ، وحول عينيه عن جثة الشهيد وهمس :

— ٢٢ —

— « ماذا تطلبون؟ » .

— « المال والجواهر »

كان الشيخ يخفي شيئاً منهما يسد به حاجته في أثناء الرحلة المجهولة المرتقبة ، لكن أسرته الآن أعظم من المال والجواهر ، بل أحب إليه من نفسه التي بين جنبيه ، وهو الآن على استعداد لأن يهب ما بقي من عمره ليفتحوا الطريق أمام أهله فينجوا من هذا الشقاء ، من هذا الكمين الوحشي ، ونظر إلى الوجوه المحتقنة وإلى الأيدي الآثمة التي تصوب نحوهم المدافع ، وتردد في داخله نداء صاحب ناقم : « ألا ما أحقر الإنسان » .

وصرخ الجاويش في صبر نافذ :

— « ماذا قلت؟؟ إن « ليفي » لا يستطيع الصبر طويلاً »

وهز الشيخ رأسه في انكسار دامٍ وقال :

— « سمعاً وطاعة » .

وأخرج الشيخ من جيبه بعض المال والجواهر ، ثم امتدت يده إلى أذني زوجته وعنقها تنزع أقراطها وعقدها ثم الأساور التي في معصمها ، وفعل بابنتيه ما فعله بأمهما ، وقدم كل شيء للجاويش وهو يتمتم .

— « كل ما نملك .. أقسم على ذلك »

تناولها الجاويش منه . ثم دسها في جيبه ، ثم تتمتم :

- ٢٣ -

- « إن قتل ميجور إسرائيلي ليس بالشيء الهين . . أيها

السفاحون »

قال الشيخ مرتجفا :

- « إن ما حدث كان على الرغم منا . . ثم إن ابن مات » .

قال الجاويش :

- « حسناً . . وجوهكم للحائط . . وأيديكم إلى أعلى » .

قال الشيخ في حيرة :

- « لماذا » ؟؟

- « سوف نرحل ، ونغلق خلفنا الباب . . وبعد ربع ساعة

تستطيعون أن تهربوا »

أشاحوا بوجوههم ، ورفعوا الأيدي إلى أعلى ، وفعل الطفل

الصغير ما فعله أبوه وأمه وشقيقه وشقيقته ، ثم انفتحت فوهات

المدافع لتقذف البيران على الظهور المكشوفة ، وصرخت الإبنة

الكبرى واندفعت نحو شذمة الجنود كالمجنونة .

وقال الغاند في قسوة :

- « قيدوها بالحبال ولا تقتلوهما . . من الوحشية أن نقتل

هذه التحفة الفنية الرائعة . . أن نلوث هذا الجمال الباهر بالدم .

سوف نأخذها معنا إلى المسكر » .

— ٢٤ —

ثم نظر إلى الميجور القليل قائلاً :

— « واحد يساوي ستة . . انها صفقة رابحة على أية حال . . لكم يعز علينا أن يضيع ميجور عظيم مثله ، لكننا سنعلم العرب درساً جديداً في الحساب ، معناه أن واحداً من ايساوي ستة ، بل يساوي عشرة منهم . . هيا يارفاق »

قاومت نجلاء ، صرخت وبكت ، وبصقت على وجوههم استنجدت بالجيران والمارة ، رفعت وجهها إلى عربة انجليزية تمرق بالشارع متوسلة لكن دون جدوى ، كانت تفعل كل ذلك بلا تفكير ، وبدا عليها أنها قد فقدت عقلها ، لم تتصور أن ما حدث في تلك الدقائق القليلة قد حدث فعلاً ، إنه مجرد رؤيا رهيبة بشعة ، أو كابوس مخيف ، سرعان ما يختفي كل شيء عندما يذهب عنها النوم ، وتذوب هذه الأحلام المرعبة تحت ضوء الشمس الدافق ، لا يمكن أن تمحي أسرتها من الوجود ، مستحيل أن يموت أبوها وأمها وإخوتها ، وهل يعقل ألا ينجدها الأقارب والجيران ؟ أتتصور أن يفعل اليهود كل هذا ؟؟ . لاشك أنها محكومة تهذي ، أو نائمة تحلم . . ليس هذا وجه مدينتها المحبوبة « حيفا » ، وليست هذه شوارعها وأشجارها وبيوتها وسماها ، إن كل شيء مصطبغ بلون الدم . . كل شيء أحمر مذهلا ، ورمت « نجلاء » بنظراتها الشاردة هنا وهناك . . عربات كثيرة وفيها مدافع وجنود ، وبعض من تعرفهم من العرب سكان

، حيفا، يحشرون في عربات كبيرة للشحن أو عربات لنقل الكلاب ،
الوجوه الحمراء تزحم الطريق ، والعيون الزرقاء مسددة كالسهم
في كل اتجاه، وجو الرعب الأكبر ينشر جناحه الأحمر على المدينة
لا . . لا ، ليست هذه حيفا .. إنها مكان آخر في الجحيم .. ورأت
نجلاء بعض القتلى في الشارع وعلى جانبي الطريق فوق الأرصفة
وصرخت من جديد «أبي» ، «أخى» ، «أمى» هاهم يرقدون ، دعونى
أذهب إليهم . . ثم انفجرت ضاحكة ، ونظر إليها الجاريش « لىفى »
وهو يعبت بشاربه :

— أجل . . بجب أن تضحكى . . كونى عاقلة . . ليس فى هذه
الحياة ما يحزن ، ثم لا تنسى أن فتاة لطيفة مثلك من اللازم أن تكون
رقيقة مهذبة ، لكم يضايقنى أن تشل هذه الحبال حركاتك الرشيقة»

ومن بين الجثث الراقدة فى الساحة الحمراء بببيت «نجلاء» تحركت
واحدة ، إن أباه لم يمت ، لم تكن إصابته قاتلة ، رفع الرجل رأسه
وتلفت حو اليه فاصطدمت عيناه الكيلتان بالمجزرة الرهيبة ، ومديه
إلى زوجه يهزها ويهتف بصوت جريح :

— «زوجتى .. ردى على .. لماذا لا تنطقين .. وأنت يا صغيرى
الحبيب يا ابن السابطة يازهرتى الغضة .. قتلوك أنت الآخر .. هذا
شنيع يا إله السماوات والأرض .. وأنت ؟ وأنت ؟ وأنت ؟
(٢ — أرض الانبياء)

- ٢٦ -

لا أحد يرد؟؟ كلكم موتى؟؟ كل شيء انتهى؟؟ أهكذا في لحظات؟
تموتون دفعة واحدة فلم لا تطبق السماء على الأرض ، ولا تشور
الزلازل ، ولا يطفو البحر الكبير فيغرق العالم . . لستم شيئاً هيناً
يا أعزائي أتم الحياة . . أتم الحياة ، .
وانفجر با كيا كما لم يبك في حياته قط .

وبقي هكذا مدة لا يدري أطالت أم قصرت ، لكن يداً مستعجلة
لامست كتفه وأخذت تشده في رفق ، وتدفعه بهوادة كي يخرج
من البيت ، ويلحق بركب المهاجرين إلى دروب الصحراء ، لأن
الصحراء ستكون أحنى عليهم من «حيها» التي غزاها الأبالسة .



* معرفتي *

الفصل الثالث

أنماط متباينة من المجندين الصهيونيين اجتمعوا في « حيفا » ، كان عليهم أن يلتقوا بقائد المنطقة ليحدثهم حديثاً لا بد منه ، ولم يكن كل ما يقوله لهم مجهولاً لديهم ، بل هو من قبيل التذكير ، وخاصة أنهم على أبواب المعركة الفاصلة ، وكان من بين المؤتمرين صهاينة من شتى أنحاء العالم ، فيهم الأمريكي والانجليزى والألماني والروسي والفرنسي وغيرهم ، لقد جاءوا جميعاً يلهثون وراء الأحلام الوردية التي نمتها لهم الدعاية الإسرائيلية ، وهي تحدثهم عن الوطن السليب والجنة الموعودة ، والكنوز المدفونة ، هناك في أرض فلسطين ، وحياة الرغد والنعيم التي سيرفلون تحت ظلالها . . واعتلى القائد منصبه ، وحيى الموجودين ، وشكر الظروف السعيدة التي جمعتها بهم ، وأثنى على ما أحرزوه من نصر وهم « يطهرون » حيفا من « المتمردين » العرب ، ثم قال :

— « إننا نشكر الرب على أن احتلنا حيفا ، كما نشكر القوات الانجليزية التي سهلت لنا هذه المهمة بطريقة أذهلت العدو وأوقعته في حيرة وضياع ، فلم يستطع سوى أن يفر بجلده ، ومن أبدى منهم أدنى مقاومة سحقتموه سحقاً عنيفاً . . ولسوف يذكر التاريخ لكم

أنكم كنتم الطليعة التي حققت حلم إسرائيل واستولت على أول بلد عربية .

أيها الرفاق .. على الرغم من أني أعرف عقيدة تكم الراضة ، وإيمانكم بالمعركة التي نخوضها ، إلا أني أود أن أذكركم بمأساتنا نحن اليهود .. نحن - أيها الرفاق - أصحاب دين أسمى من كل الأديان !! ومع ذلك عشنا مئات السنين مشردين مضطهدين .. اضطهدتنا الكنيسة ، واضطهدنا المسلمون ، كلكم يذكر ما فعله بنا هتلر ، وكيف صادر أموالنا ، وأزهق أرواحنا .. وكلكم يعرف ما قاسيناه في روسيا .. بالاختصار كنا شعباً مكرهاً مظلوماً ، وبلا أرض ، وعقيدة بلا أرض لا معنى لها ولا تأثير .. وفلسطين أرضنا .. يجب أن تؤمنوا بذلك .. صحيح أنها أرض عربية ، وأن غالبية سكانها عرب .. والعرب في شمالها وجنوبها ، وشرقها وغربها ولكن ما المانع في أن تكون لنا ؟ .. ألم تنشأ فيها عقيدة إسرائيل منذ فجر التاريخ ، ويرتل على أرضها ، العهد القديم ، . . ؟

هذه حجج يظنها العرب واهية مفتعلة كاذبة .. هذا لا يهم .. يكفي أننا اليوم نملك المال ، والسلاح ، والدهاء ، والتأييد العالمي .. إننا أصحاب نفوذ فعلي ، ذهبنا يؤثر في الاقتصاد الأمريكي ، ويؤثر أيضا في الانتخابات والسياسة العالمية .. فالعالم إذن في حاجة إلينا ولن يتخلى عنا .. وتأييد الغرب لنا واضح وأكيد .. إن قضية

العرب ضعيفة خاسرة ، لأنهم مزقون وضعفاء ، وقضيتنا منتصرة قوية ، لأننا أقوياء ، ولأن من يساندنا أقوى الجميع . . أقول هذا الكلام لأوضح لكم أن حجتكم ميسورة ، وتحقيق حلم آباءكم القديم لا شك فيه . .
أيها الرفاق . .

لقد أعلنت علينا الحرب سبع دول عربية . . فلا تفزعوا ولا ترتعدوا . . لأن شرق الأردن دولة عربية شكلا ، وانجليزية في حقيقتها من حيث السياسة والحكم وقيادة الجيش . . وفي العراق أسرة مالكة لا تؤمن بالله أكثر من إيمانها بالإنجليز . . واليهودية واليمن دولتان متأخرتان تعيشان في القرون الوسطى وليس لهما جنود ، ولبنان وسوريا دولتان صغيرتان لديهما من المشاكيل الداخلية ما يستنفذ طاقتهما وقواهما وإن كانت سوريا عنيدة ومتشبثة بعروبيتها في حماسة فائقة . . فلم يبق إذن سوى مصر . . وهذه البلد هي التي ستحمل العبء الأكبر في النضال ضدنا . . إن إمكانيات شعبها هائلة ، ونعرتهم الوطنية والقومية ستورثنا المتاعب . . فقد تدفق متطوعوها بالآلاف قبل إعلان الحرب الرسمية ، وبعض ضباط الجيش استقالوا ودخلوا فلسطين ضمن المتطوعين مع مصر ستكون المعركة الحقيقية ، لكنني أبادر وأطمئنكم بعض الشيء من جهة مصر . . ففيها ملك داعر ، لا يفكر إلا في ملذاته وأمجاده

— ٣٠ —

الشخصية . . وفيها طبقة من الباشاوات تستغل وتطغى وتسير دفة الأمور لصالحها ، وفيها أيضاً أكثر من ثمانين ألفاً من الجنود الانجليز في قاعدة القنال ، وان يستطيعوا الحصول على السلاح إلا من هؤلاء الانجليز . والانجليز معنا . . من هنا يتضح لنا جميعاً أن النصر لنا ، لأن المسألة يرافاق ليست حقاً بقدر ما هي استعداد بالمال والسلاح والتدبير وشرء التأيد العالمى . . ثم لاتنسوا أن قيام إسرائيل في هذه المنطقة تثبيت لقدم الغرب فيها ، وانتصار لسياسته ، وضمان لمصالحه وبتروله في العراق والجزيرة العربية .

أيها الرفاق :

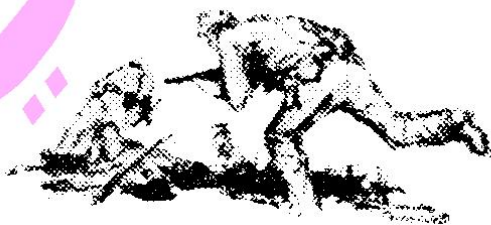
إن حربنا إذن يجب أن تكون سريعة وحاسمة . . إن كارثة فلسطين قد تجمع العرب ، ونحن نريد أن نقطع عليهم خط الرجعة . . الحرب يرافاق لا تعرف الرحمة ..

يجب أن تبيدوا الشعب الفلسطينى العربى ، كلها وجدتم إلى ذلك سبيلاً ، حتى لا تقوم لهم قائمة ، وحتى تلتقنهم درساً قاسياً . . لقد أسعدت تلك المذابح التى أقتموها فى « حيفا ، اليوم ، فإن الطفل الذى تتركونه اليوم قد يشهر فى وجهنا السلاح غداً ، والمرأة التى تفلت منكم ، قد تضع مولوداً بطلاً فى المستقبل . يجب أن نسلك أبشع السبل حتى نحقق حلمنا القديم الذى داعب أفكارنا منذ مئات السنين ، والذى شغل أذهان أجدادنا المشردين منذ التاريخ القديم ،

وإذا لم نحقق أهدافنا في هذه الحقبة من الزمن ، فسنفقدها إلى الأبد
وستحرق علينا لعنة الأجيال القادمة ، ولن تتكرر هذه الفرصة الذهبية
أيها الرفاق . وبقليل من الجِد والصبر والمغامرة والتضحيات تصبح
إسرائيل حقيقة واقعة . عندئذ نملك جنات كنعان وغابات الزيتون
واللارنج والخوخ والتفاح والأرض الخصبة وكنوزها الدفينة ،
ونصبح بذلك أغنى شعب في العالم . . . والمال هو كل شيء ، إنه
كلية السر التي تفتح القلوب المغلقة ، وتفتح أمامنا أبواب الممالك
المجاورة حتى تمتد دولتنا الوليدة من الفرات شرقاً إلى النيل غرباً ،
وترفرف أعلامنا ذات النجمة السداسية فوق قصور الخلفاء وقباب
المساجد ، ومقاصير « ألف ليلة وليلة » ،

فإلى المعركة . . إلى النصر . . إلى الأمام . . .

وضجت القاعة بالهتاف والتصفيق . . .



الفصل الرابع

قافلة الضائعين تنحدر عبر الصحراء نحو الجنوب ، إنها تسير في سرب طويل متناثر ، جموع من النساء والرجال والأطفال يتعثرون في الطرق الجانبية الموحشة الغير مطروقة ، متجنبين الطريق الساحلي المرصوف حتى يأمنوا على أنفسهم من غدرات العصابات الصهيونية ، والرمال والتلال تمتد إلى بعيد ، مكفهرة السحنة ، والشمس تتوسط السماء وترسل أشعة حارقة ، والنظرات الكاوية الحزينة تجوب الصحراء المترامية باحثة عن شجرة تنقياً ظلها فلا تعثر لها على أثر ؛ ليس في الطريق غير العوسج والصباز والنباتات الجافة القميئة المسلحة بالشوك ، والطريق طويل محفوف بالموت والعذاب . وضمن القافلة كان يرى الشيخ اسماعيل ربحان وأسرته ضحى ووليد والأم والخادمة ، وخميس شاهين وبقية أهله وأما أبو نجلاء الجريح فقد أركبوه حمراً ، فامتطاه الرجل ومضى مترنحاً ذاهل النظرات لا يكاد يرى أو يسمع شيئاً مما حوله ، ولم يكن للقافلة المجهدة من حديث سوى ما ارتكبه اليهود في حيفا من جرائم تقشعر لهولها الأبدان ، ونادراً ما توجد أسرة بلا مأساة ، بل إن أسراً بأكملها قد تم القضاء عليها ، وكانت الحكايات البشعة تروى وكأنها أساطير جرت أحداثها في غابة وحوش ، لكن أفراد

القافلة كانوا يلوكونها ويرددونها في بساطة دون أن يبدو عليهم أو على سامعيهم سمات الدهشة ، كانت هذه الفظاعات لكثرتها ولأنهم رأوها رأى العين ، ولأن أغلبهم لم يفلت من ترواظها كانت تبدو أحداثاً عادية ممكنة الحدوث . فإذا قال أحدهم إن عسكري صهيوني قد بقر بطن جارتهم الحبلى ليتسلى بمنظر الجنين في شهره السابع ، أطرق السامعون والسامعات برؤوسهم في حيرة وقال واحد منهم . « لكنها حدثت لزوجتي . . . ولابنة عممتها ولفلانة وفلانة .. إنها ظاهرة عامة في تصرفاتهم ، بل يبدو أنها خطة عسكرية مرسومة ، وإلا فما معنى تكرارها ؟ أو يستطيع أحدكم أن يفعالها في قطة حبلى أو شاة على وشك الوضع ؟؟ ليس الذين فعلوا ذلك يبشر !! الحقد والأناية والغدر في زمن إنسان !! ولهذا فإننا يجب أن نهرب من هذه الدروب المتربة القاحلة بأطفالنا ونسائنا ثم نترك هؤلاء المساكين في أماكن أمينة على الحدود أو في أي بلد عربي ، ثم نعود من نفس الطريق نحمل الموت والسلاح لنخلص هذه الأرض الطاهرة أرض الحب والأنبياء . ؟

فإذا قال مهاجر آخر : « تصوروا أن فتاة يهودية مسلحة قتلت قتيلاً أعزل ثم استخرجت كبده وأخذت تلوكها في حقد وهي تقول قتلتكم أبي من شهرين ؟؟ » رد عليه مهاجر يجاوره قائلاً : « أيها الأخ صدقني ، لقد مللت حديث الدم والقسوة ، وماذا تنتظرون من شرذمة تغذت بالحقد والنقمة على الآخرين ؟؟ القلب اليهودي دائماً

أسود النزعات والأمنيات ، عاشوا طويلا منطوين على أنفسهم
يحقدون على الإنسان يستغلون ويرابون ويجمعون المال من أى
طريق ، ويعيشون بالعصبية العمياء ، ويقناتون بالكراهية والغیظ ..
وهذه هى جولتهم الأخيرة ، ومن ثم فهم يقذفون فى المعركة
بكل ما يملكون من أحقاد وسلاح ورجال .. أنا لا أعتب على
اليهود ، ولكن أعتب على جماهيرنا التى استعذبت النوم ، واستراحت
للكسل ، وخذعها الكبرياء ! ! ماذا كنا نفعل عندما كانوا هم يعدون
العدة ، ويعبثون الشعور العالمى ، ويبنون المستعمرات والحصون ؟؟
وكيف سمحنا لأنفسنا أن نبيع لهم ضياعنا وبساتيننا بالأثمان الباهظة
التي أغرونا بها ؟؟ كنا نضحك منهم فى سخرية وكبرياء عندما كانوا
يطالبون بوطن قومى لهم فى فلسطين ، وكنا نقول سوف نقذف
بهم إلى البحر ، وها أنتم ترون أيها الاخوان أنهم قذفوا بنا فى بطون
الصحراء الحارقة ، ومثلوا بشهدائنا أشنع تمثيل . . أقول لكم
الحق ؟؟ لا ذنب على اليهود أو الانجليز ، وإنما الذنب على رموسنا
نحن الذين تراخينا وتمزقنا وأسلنا مقاليد أمتنا العربية لحفنة
من العابثين والطامعين . . لكن ستكون نكبتنا أيها الإخوان هى
الناقوس الذى سيدق ويدق حتى يستيقظ العرب . .

ويعود الصمت من جديد ، وتمضى القافلة التعسة فى طريقها
الشائك المترب يلفحها هجير الشمس ، تبحث عن ظل فلا تجده
وتتلفت حوالها فلا ترى سوى الضياع ونذر الخطر ، والمستقبل

الغامض المخيف ، وتعود بهم الذاكرة إلى مدينتهم الخالدة المكتتبة
« حيفا ، فلا يرون بعين الخيال سوى ساحات الموت ، والدم الأحمر
البريء يلطخ الطريق ، ويلون الجدران ، وأشلاء الضحايا مبعثرة
هنا وهناك دون أن تجد من يتكرم عليها فيواربها التراب .

وتنهد الشيخ ريجان وربت على رأس صغيره وليد وقال :

— « ما يبكيك يا صغيرى الحبيب .. »

قال الصغير فى حنق :

— « التراب الساخن يشوى قدمى .. لكأنى أسير على الجمر . »

— « صبراً .. صبراً .. حالاً سنصل .. »

— « إلى أين نسير يا أبى؟؟ ولماذا تركنا بيتنا الجميل حيث

الظل والهواء الرطب ، والماء البارد ، وشجرة الزيتون الوارفة فى

الفناء وببارة « شعيب بك » المليئة بالفاكهة؟؟ إن هذا الطريق

سى... ويجب أن نرجع إلى « حيفا ، .. »

ويتمم الشيخ ريجان :-

— « أجل .. يجب أن نعود إلى حيفا يا وليد .. »

ويرد وليد وهو ينزع يده من أبيه فى حنق :-

« لكن متى نعود؟؟ »

— « غداً .. »

- « بل الآن .. »

وتوقف وليد عن المشى ، وضرب الأرض بقدميه ، ثم رفع رأسه إلى أبيه الشيخ وقال في زبرة إصرار صبياني ساذج :-

« لن أتقدم خطوه واحده .. »

- « لماذا؟؟ »

- « نعود إلى حيفا »

- « قلت لك سنعود غداً .. »

- « لن أشرب أو آكل إلا إذا رجعنا إليها .. »

وتطلعت العيون المحتقنة التي حرّتها البكاء والهجير والعذاب إلى وليد الصغير ، إلى النبتة الغضة التي لم تلامسها أنامل العابثين أو يلوّثها الشيطان بعد ، وطنّ في رءوسهم المتعبّة المصدّعة تحت وهج الشمس سؤال واحد : « إلى أين نسير؟؟ » ولم كانت دهشة الشيخ ريحان ، عندما تتناهى إلى سمعه ثلاثة أو أربعة يتساءلون في نفس الوقت إلى أين نسير يا شيخ ريحان؟؟ . ، وجاءه صوت الرجل الجريح فوق حماره أبي نجلاء وهو يصرخ كالمجنون . « إلى أين نسير يا شيخ ريحان؟؟ » ، كان السؤال القاسى المرير ينبعث من كل جهة وكأنه سهام ترشق قلبه الحزين ، وبقى الشيخ في مكانه حائراً مضطرباً ، ينظر إلى طفله « وليد » الواقف في عناد ، وينظر إلى العيون المتقدة الحائرة . وينظر إلى الشيخ الجريح أبي نجلاء وقد تدلى فكه

— ٣٧ —

الأسفل في بلاهة . وعند ذلك ألهمه الله كلمات ارتاح لها قلبه ،
ولهذا هتف بالمحتشدين حوله قائلاً : -

— « لماذا ما-جر محمد عليه الصلاة والسلام من مكة
إلى المدينة ؟؟ كل-كم يعرف لماذا هاجر ، في المدينة وجد
العون والآذان الصاغية والأرض الطيبة لبذور دعوته
الجديدة ، ومن هناك خرج لينشر النور ، وليحرر العبيد ،
وليطهر مكة التي هجرها من أبالسة الشرك والطغيان ...
والكبرياء الفارغة ... سيروا في طريقكم أيها الإخوان ...
حتى الجنوب سلمتني بجيوش الخلاص الزاحفة إلى الشمال
لنرد الحق إلى نصابه ، وتثار للضحايا والمظلومين ، وتعيد
« حيفا » وفلسطين كلها لأصحابها الشرعيين ، وتقضى على
التعصب الصهيوني الأعمى ... وسندخرط — شيوخا
وشباننا — في سلك جيش المؤمنين بالله وبحق الحياة
الحررة .. هيا أيها الإخوان وامضوا في طريقكم ... » .
وجاء صوت « وليد » الذي يشبه إلى حد كبير مواء القطاة :

— « لن أسير ... »

لكن شقيقته « ضحى » أسرعت وحملته على الرغم منه ، وهو
يحاول جاهداً أن يخلص نفسه من بين ذراعها دون جدوى ، وأقبل

— ٣٨ —

خميس شاهين باسمًا ، ونظر إلى « ضحى » ، فى حنان ومودة يخالطهما
الأسى ، وهمس فى خجل :

— « دعيه لى .. أنا أقدر على حمل « وليد ، منك .. »

ومانعت قليلا ، لكن « وليد » حسم الموقف ورمى نفسه بين
ذراعيه وهو يقول : « أبى خميس .. كيف تسمع كلام أبى وتترك
« حيفا » لسوف أجعل أختى « ضحى » تخاصمك .. لن أتركها تكلمك بعد
اليوم .. هذا الحز يكاد يقتلنى .. الناس هنا كثيرون .. كلهم
يكون .. ما هذا .. ؟ وذاب صوت الصغير فى خضم الطنين الصاعد
من القافلة ، وفى هدير الحكايات الدامية ، وعبارات الأسى
والذكريات المؤلمة . وبعد مسير ساعات مال خميس شاهين على
إذن الشيخ ريحان وقال : « الناس فى حاجة إلى ماء وزاد .. » فهز
الشيخ رأسه فى حيرة وقال :

— « كل الماء والزاد المتبقين يجب أن يكونا للأطفال والجرحى
وحدهم .. وعلينا أن نجهد أنفسنا فى المسير حتى نبلغ إحدى القرى »
ولم يكده يكمل عبارته حتى لاحت فى الأفق طائرة على مستوى
منخفض ، وهتف « خميس » عند رؤياها :

— « أنظر يا شيخ ريحان .. إنها طائرة يهودية ... لكم أخاف
القدر ... »

وصاح خميس : « قفوا .. ثم انبطحوا جميعاً على الأرض .. »

وفي لحظات كانوا الجميع قد ارتموا على الرمال ، ووجوههم تلامس الأرض ، أما الشيخ أبو نجلاء ، فقد بقي حماره واقفاً في بلادة دون اكتراث ، وظل الشيخ فوق حماره وفكه الأسفل مدلى ، ونظراته زائغة تنظر إلى بعيد عبر الصحراء الحارقة الممتدة بلا نهاية ، ولم يتزحزح أو يتزحزح حماره عن وضعه على الرغم من هدير بعض القنابل التي تساقطت فوق القافلة ، وكان صراخ بعض الضحايا يبلغ سمعه فيخيل إليه أن أصوات الاستغاثة في « حيفا » ما فتئت تطن في أذنيه .. وبعد فترة لا يدرون أطالت أم قصرت انسحبت الطائرة وانقطع أزيزها ، ثم تأهبت القافلة مرة أخرى للسير ، بعد أن وارت الزراب خمساً من الضحايا ، وبعد أن ضمدت جراح عشرة آخرين ، لكن أبا « نجلاء » ، وحماره لم يمسا بسوء ...



الفصل الخامس

تغير وجه المدينة تغيراً كلياً ، ولبست ثوباً آخر غير الثوب الذي كانت تلبسه ، والمباني البيضاء الناصعة التي تشرف على البحر الكبير لم تزل كما هي ، والمساجد والقباب قابعة كالعهد بها ، لكن دون مؤذن يؤذن للصلاة ، وأجراس الكنائس الكبيرة قد أخرجت ، وأشجار الزيتون تتمايل في حزن وأسى وكسل ، ومع هذا الشكل الظاهري الذي يبدو ثابتاً لم يتغير إلا أن المدينة قد أصبحت لها مذاق جديد لكنه مرير ، مذاق يحسه البقايا الذين لم يغادروا المدينة حتى الآن ، إما لأنهم أسرى ، أو لأنهم مرضى في المستشفيات ، أو الذين بقوا في المدينة مصرين على عدم مغادرتها برغم مصيرهم المخيف المتأرجح ، لقد أصبحوا غرباء في مدينتهم ، وامتألت شوارع المدينة ومعسكراتها وبيوتها بأشتات غريبة من اليهود الغزاة ، كانوا يسرون في دروب « حيفا » في نشوة وطرب وسكر ، وكانهم رجل كان مفلساً ثم أثرى فجأة ووجد نفسه يمتلك ضيعة واسعة هيبت عليه من السماء ، وخيّل لفلول العرب الباقين في المدينة أن المدينة السكاكية تنأى خافتاً ، وأنها تذرّف الدموع الساخنة في صمت رهيب ، وانكسار مؤنس ..

وبدا بعض شبان اليهود وشاباتهم يرقصون في الشوارع في حلقات ، ويرتلون بعض الأغاني العاطفية متشابكي الأيدي ، أو متلاصقي الصدور ، يتبادلون قبلات خاطفة بلامعنى ، ويترنحون وهم يرقصون كالطيور الذبيحة ، إنهم في لحظة من لحظات العمر التي لا تكاد تفهم على حقيقتها لما فيها من انفعالات كثيرة متناقضة غامضة ، ومشاعر متضاربة مبهمه ، ولما لا؟؟ إنهم يرقصون ويغنون ورائحة الأشلاء والدم المتعفن تختلط برائحة الخمر ، وكل كان متناقضاً أن تقوم مواكب البهجة والمرح إلى جانب القسوة ومظاهر الوحشية والضحايا الذين يملأون الشوارع .

في هذا الجو الغريب أفاقت « نجلاء » إلى نفسها ، إن سرعة الأحداث وبشاعتها ، وتتابعها ذلك التتابع المخيف قد أوشكت أن تذهب بعقلها ، أو ليس عجيباً أن يحاول الجاويش الصهيوني « ليفي » أن يقبلها فإذا ما مانعت وقاومت وصفعته على وجهه أسرع بتقييدها مرة أخرى ، فجعلها عاجزة عن المقاومة والحركة من جديد ، ويبدو أن الجاويش لم يكن يفعل ذلك لرجبة مجنونة عابثة فما أكثر فتيات جنسه اللأئي يستطيع أن يقضى معهن الليالي الحمراء أثناء تلك الفترة الزمنية التي لا قيم فيها ولا قيود ، وبديهي أن الجاويش يفعل ذلك ليؤكد لنفسه بطريقة أخرى أنه انتصر ، وأنه يحتل الأعراض وأجساد النساء كما احتل أرض المدينة وعقارها وضياعها ، وبعد أن قيدها انحنى فوقها ثم قبلها على الرغم (٣ - أرض الأنبياء)

— ٤٢ —

منها ، ولكنه فوجيء ببصقة تستقر على خده الأيمن ، فمسح
اللعباب في هدوء ، ثم ابتسم ابتسامة صفراء ، وهمس في خبث
يخنقه الغيظ :

— « عندي فكرة ، »

ونظرت إليه « نجلاء » في رعب ، فقد خمنت أنه ينوي بها شراً ،
وخاصة أنها بلا مقاومة .. بلا أمل وقلوبها يفيض حزناً وأسى ،
واستطرد الجاويش قائلاً :

— « عندما أحقنك بمادة مخدرة فستستسلمين ، عندئذ أفعل بك
ما أشاء ... »

عند ذلك أغرورقت عيناها بالدموع وقالت :
— « هذه التصرفات الخبيثة سترمى بكم في جهنم »
قال مقهقهاً :

— « نارك جنة .. »

فرقت لهجتها ، وبدأت في نبراتها الذلة والانكسار من أجل
العرض الذي يوشك أن تدوسه النعال ، وقالت :
— « ألا تخافون الله ؟؟؟ »

فعاد « ليفي » يضحك ضحكات شيطانية . ومن خلال ضحكاته
كان يقول :

— « الله ليس هنا .. إنه لا يكون في ميدان القتال

- ٤٣ -

ولا في مخادع النساء ، نحن يا فتاتي لا نلتقي الله إلا في المعابد ،
ونادراً ما نذهب إليها .. فالله غنى وقوى وهو ليس في حاجة
إلينا ، ثم إنه يسره أن يرى أبناءه - أحفاد إسرائيل -
يمرحون ويشربون ويستمتعون بمباهج الحياة .. »

لم تشعر « نجلاء » بغير وخزة الإبرة ، ثم راحت بعدها فيما يشبه
الغيبوبة ، ومرت بها أثناء نومها أحداث مختلفة شائنة ، وكانت
أعماقها - عقلها الباطن - يصرع ويقاوم لكن أعضائها كانت
مستسلمة مسترخية لا تستطيع أن تبذل أدنى جهد ، وعندما أفاقت
بعد مدة لا تدرى أبعادها الزمنية ، تلفتت حوالها ، فوجدت
الجاويز وثلاثة من الجنود يترنحون كالسكران ، وقال الجاويش
« ليبي » في شيء من الزهو :

- « لقد انتصرنا .. »

ودارت « نجلاء » بنظراتها الزائغة هنا وهناك ، بقع من الدم
من تحتها ، وآلام جسدية تعذبها ، ودهاء وخبث ينطلقان من عيون
الذئاب الضارية ، ورائحة الجرم البشع تزكم الأنوف ، وسياج العرض
الشريف قد تحطمت وصارت ركاماً ، والحياة كلها أصبحت أمامها
بلا معنى .. بلا قيمة .. بلا جاذبية ..

وهمست بصوت جريح مهزوم :

- « ليقتل أموت »

قال الجاويش :

— « بل ستعيشين .. »

— « هذا أقسى العذاب .. »

— « يجب أن تفهمي يا عزيزتي أننا سنحتفظ بك كأسيرة ..
من يدري ؟؟ قد يأسر العرب بعض اليهود يوماً ما ، وقد يكون
عند ذلك تبادل أسرى ، ومن ثم فسنحافظ على حياتك لا رحمة بك ،
ولكن من أجلنا نحن .. »

وأحنت « نجلاء » رأسها ، وقد جمدت الدموع في عينيها ولم تعد بها
رغبة في شيء ، كل شيء أصبح في نظرها ميتاً لا يشير فيها أدنى
شعور ، وتساقطت دبر أذنيها كلمات الجاويش « ليفي » وهو يقول
غامزاً بإحدى عينيها :

— « كنت رائعة يا فتاتي .. ولم يكن ينقصك غير الحرارة
والتجاوب العاطفي .. وهذه مسألة وقت .. ، فنظرت إليه ببرود
وهو ينصرف دون أن تنطق بكلمة .. »

وعاشت « نجلاء » في أسرها حياة عجيبة ، فيقظتها ذهول ، ونومها
أرق وأحلام مروعة ، واختلطت مأساة وطنها بكارثة أسرتها فلم
تعد تميز بينهما ، فلسطين وأمها وأبوها وأخوتها شيء واحد .

عرضها و عرض أمتها لا يختلفان ، والدموع التي تسكبها لا تدرى
 أهي من أجل وطنها أم من أجل أسرتها أم من أجل نفسها ،
 وعندما سمعت في معتقلها أن هناك جيوباً للمقاومة العربية ترابط
 خارج « حيفا » وداخلها ، وتقلق القوات الإسرائيلية شعرت بقليل
 من الارتياح . لكم يسعدنا أن بنى قومها يستطيعون أن يقاوموا
 ويثأروا ويريقوا دم المعتدين ، ويورثوهم الرعب والقلق ، ومادام
 الصهيونيون يقتلون أكثر من يقع في أيديهم ؛ فلماذا يستسلم لهم
 المواطنون ؛ فإذا كان الغدر والقتل أمر محتم ، وسلوك مشروع في
 عرف اليهود فلا بد من عدم التسليم ، ولا بد من المقاومة ولو بأضعف
 الأسلحة وأقلها جدوى ، فالموت في معركة النضال والصراع يبعث
 على الراحة والسعادة ، ويفجر الأمل في الانتقام الكامل والنصر
 المؤزر يوماً ما ، وما أروع ميته أخيها ، لقد لقي الله بعد أن سفح
 دم الميجور الصهيوني ، والحياة الذليلة أو الموت الذليل كلاهما
 لا معنى له ، ولهذا نبعت في رأس « نجلاء » فكرة التضحية
 والمغامرة ، فلماذا لا تحاول الهرب ؟؟ أتخاف الموت ؟؟ إنه شيء
 بسيط للغاية فتمت مات أفراد أسرتها جميعاً أمام بصرها ولم يعد لها
 أحد ، لهذا يجب ألا تجعل من التفكير في أمر الموت شيئاً مؤرقاً ،
 لتنفذ خطة الهرب ، فإذا ماتت فلن تخسر كثيراً ، وإذا عاشت
 « آه » يا لها من أمنية غالية . . لقد تحررت الآن من الخوف وعندما
 تتحرر من الحصار الحديدي حول « حيفا » وتنطلق إلى أرض

لم تدنسها أقدام الغزاة بعد ، فلمسوف تفعل الكثير ، وفي أتون النضال المقدس قد تحرق أحزانها وآلامها الفردية ، لأنها تشعر منذ الآن أنها إنسانة جديدة خلقت خلقاً آخر ، وبهذه الروح ستفعل المعجزات . .

ومعسكر الأسرى للنساء كالسجون المفتوحة ، حراسه بسيطة ، وأسوار شائكة ، وأكشاك خشبية صغيرة ، وبالبوابة الرئيسية حارس واحد ، وحول السور الشائك جنديان أو ثلاثة ، لم يكن يشغل البال في هذا الوقت غير الزحف لاحتلال أكبر قدر من الأرض العربية ، ومحاولة القضاء على المقاومة العربية التي لم تنظم بعد ، ولم يكن اليهود يفكرون كثيراً في عدد قليل من المعتقلين العرب ، لأنهم ببساطة لا قيمة تذكر لحجزهم ، ولو فرض وفر أحدهم ، فسيجد كثيراً من العقبات أمامه ، منها أنه سيجد نفسه في مدينة جملها يهود ، وسيصطدم بالحصار اليهودي وحقول الألغام والقوات المرابطة خارج المدينة ، وأدركت «نجلاء» كل ذلك ، ولم تكن تخاف من الموت بعد ما رأت وسمعت . .

الفجر على الأبواب ، نفس اللحظة المشئومة التي تمت فيها المؤامرة الانجليزية الصهيونية ، واختطفت «نجلاء» حجر أمن الأحجار الكثيرة المبعثرة داخل المعتقل ، وقصدت البوابة الرئيسية ، كان بابها مغلقاً وحارس جالس لا يتحرك ، كان نائماً بعد أن سهر طوال الليل ، وبعد أن استبعد أن يحدث أدنى شغب من هؤلاء النسوة الضعيفات

المذعورات . كانت تخطو في ثبات عجيب ، لم تضطرب أو يدق قلبها دقات الخوف ، لم يطرأ الموت على ذهنها ، ورفعت الحجر ثم أهوت به على الرأس المرتكزة على عمود خشبي ، وكررت العملية مرة أخرى وثالثة . فانطرح الحارس أرضاً دون حركة ، وعلى بعده ترين كان يبدأ السور الشائك ، فاختطفت بندقية الحارس وذخيرته ، ثم زحفت تحت الاسلاك ، وسلكت طرقاً ضيقة تعرفها تمام المعرفة ، وشعرت « نجلاء » أن مدينتها الحبيبة « حيفا » تحنو عليها وتسترها وتبسط فوقها ظلاً من الأمان والحماية ، ووجدت نفسها بعد دقائق في يابرة « شعيب بك » المليئة بأشجار الفاكهة ، وجرت بأقصى ما تستطيع من سرعة ، حتى بلغت أطراف المدينة ، كانت تتسلل وعيناها تجوبان الظلام كعيني نمره شرسة ، وعندما أشرقت الشمس كانت « نجلاء » قد بعدت عن « حيفا » أكثر من سبعة كيلو مترات ، فشعرت بالأمان الجزئي ، لقد أفلتت من بين فكي الوحش الطاغية ، وتحررت من الأسر ، وقتلت خنزيراً . وفي استطاعتها الآن أن تفعل شيئاً ذا قيمة . .





الفصل السادس

لم تستطع القافلة المهاجرة أن تواصل السير جنوباً دون انحراف، فقد تأكد لهم أن هناك قوات معادية في يافا، وبعض المواقع الحصينة في مستعمرات العدو، ولهذا اتجهوا في مسيرهم صوب الشرق يقودهم خميس شاهين والشيخ اسماعيل ريحان، وعلى الرغم من وجود عديد من الرجال والشبان إلا أن خميس كان أكثرهم حيوية ونشاطاً، كان شاباً مستطيل الوجه. يميل وجهه إلى السمرة وشعره مرسل مصفف فاحم اللون، وعيناه السوداوان يعلوهما حاجبان غزيران، في نظراته حدة، وفي كلماته وحركاته حماس وروح عالية مسيطرة، وطوال الطريق كان يواسي المنكوبين، ويضمّد جراح المصابين، ويحمل بعض الأطفال على كتفه، ويجمع من حوله الشبان ويقسم عليهم الخدمات العامة، ويبحث معهم عن الماء والطعام، ويدرس معهم الدور الذي سيقومون به مستقبلاً في المعركة، واتفقوا على أن يبلغوا بمن معهم من اللاجئين منطقة عربية آمنة، ثم يحصلوا على السلاح ويتلقوا بعض التدريب، وينضموا إلى زملائهم المناضلين في أي قطاع من القطاعات وليكن قطاع «حيفا» بالذات لإمامهم التام بمواقفه وطرقاته، لكن كان أهم شيء هو أن

يضمنوا الأمن والسلام والإقامة الطيبة لهذه القافلة الكبيرة من الأطفال والنساء والشيوخ والجرحي . . . وبلغوا غايتهم بعد يومين من السير المضني والشمس المحرقة والجوع والظمأ ، كانت قرية كبيرة تلك التي نزلوا بها ، وكان بهذه القرية موقع لرجال البطل الفلسطيني المجاهد عبد القادر الحسيني ، وخرجت القرية عن بكرة أبيها وقت الاصيل لترى هذا الفوج الكبير من اللاجئين ، ونظر السكان لإخرايمهم المرهقين المقرحي الجفون نظرة أسى وحزن ، الغبار يعلو وجوههم ، والجفاف يرتسم على شفاههم . وأنفاسهم تتلاحق وكأنهم أنهم أسبقاً رهيباً قاسياً ، وبدأ عليهم أنهم قد ضلوا في التيه أعواماً طويلة لا يومين اثنين ، وتمتم لاجئ عجز وهو يرمي جسده المنهك تحت شجرة مورقة : -

- « إنه حكم الله . . »

وقالت امرأة تعرج وهي تخطو إليه وتجذب ، خلفها طفلاً صغيراً :

- « وليس لنا إلا الصبر . . »

- « أليس من الظلم يا امرأة أن نتحول بين عشية وضحاها من

أثرياء إلى متسولين؟؟ لماذا؟؟ لماذا كل هذا؟؟ أي منطق يبرر ما يحدث اليوم؟؟ هل قالت كتب العهد القديم لهؤلاء اليهود اسلبوا الناس أموالهم وديارهم وأرواحهم؟؟ وهل قالت كتب العهد الجديد للإنجليز ضعوا السلاح في يد المجانين الموتورين ، وبيعوا لهم أرواح

- ٥٣ -

البشر الأبرياء وأرضهم وكونوا عوناً لهم على الفساد ؟؟ ،

وهرولت إليهم امرأة ثالثة تبدو عليها آثار النعمة والجمال برغم

ما يعترها من إرهاق وغبار وشحوب ، وقالت في عصبية : -

- « كان متجرنا مليئاً بكل الخيرات ، وبمستودعه بضائع يزيد

ثمنها على ألفين من الجنبيات . . . »

وقطع خميس شاهين عليهم حديث الحشرات والذكريات المريرة

وهو يقول : -

- « أعتقد أنه لا داعي لأن نبقى هنا في العراء . . . »

قال العجوز في يأس : -

- « لا مفر . . . لم يعد لنا قصور . . . »

وأردفت المرأة التي تمسك الطفل بيدها :

- « وسيظل الإحساس المؤلم يطاردني ويصور لي أني في العراء

ما دمت بعيدة عنه . . . »

قال خميس في ابتسامة بلا معنى : -

- « لا داعي لهذا الكلام . . . غداً يعود كل منا إلى بيته . . . »

قال العجوز وهو يرفع إلى خميس وجهاً مغضناً وعينين غائرتين

لا تميزان ما أمامهما جيداً : -

- « متى يا بني ؟؟ »

« عندما يشاء الله . . »

وأطرق الجميع صامتين ، ثم استأنف خميس حديثه قائلاً :
 - « لا يصح أن نبقى هكذا في العراء ، ومن حولنا أهل القرية
 ينظرون ويتألمون . . إنها صورة سيئة . . لقد دبرنا أمرنا . .
 إن بالقرية أربعة مساجد وكنيسة وثلاث دور للضيافة
 والاحتفالات ومدرسة ، ومكتبتين لتحفيظ القرآن الكريم
 وسوف يأوى اللاجئون جميعاً لهذه الأماكن ، وهناك
 يستطيعون النوم والراحة وتناول الطعام وتدير أمورهم . . »
 وبسببها كانت أفواج اللاجئين تخرق شوارع القرية ، كان الصمت
 الكئيب يرين على كل شيء وعيون النسوة والعذارى والفضوليين
 إلى تنظر الموكب عبر النوافذ والأبواب النصف مغلقة ، وفي عيون
 الجميع انبثقت الدموع ، وسمع صوت امرأة تقول خلف نافذتها :
 - « هل قامت القيامة ؟؟ يخيل إلى أننا في آخر الزمان . . وأن

هذه إحدى علامات الساعة . . »

وخلف نافذة أخرى قالت امرأة في دهشة : -

« من هؤلاء الغرباء يا زوجي ؟؟ »

« ليسوا غرباء أيتها الزوجة البلهاء . . إنهم إخواننا . . »

وامتلأت شوارع القرية بأولئك الذين يحملون على كواهلهم أعباء
 الصدمة الأولى ، ضحايا الغدر في « حيفا » المدينة السيئة الحظ ،

وبعد ساعتين أو ثلاث كانت كل مجموعة من هؤلاء اللاجئين
تأوى إلى مكانها ، وأسرع رجال من أهل القرية بجمع
الطعام والملابس وكل ما يحتاج إليه الضيوف ، وسلموا
ما جمعوه للشيخ ريجان وخميس شاهين ، واستطاعا بمعاونة
باقي الرجال أن يوزعوا كل ما حصلوا عليه على المنكوبين ،
وقد لوحظ أثناء تحديد الإقامة أن تستقر كل أسرة بمفردها
يفصلها عن باقي اللاجئين حاجز بسيط من حصير أو ستارة
ممزقة من قماش قديم ..

وبعد يومين من الإقامة ، قال خميس في قلق :

— « أعتقد أنه يجب أن نكون صرحاء يا عم الشيخ ريجان ،

— « بالطبع يا بنى .. ماذا تريد أن تقول ؟

— « هذه القرية محدودة الإمكانيات .. »

— « أعرف .. »

— « محدودة الثروة .. أغلب سكانها رعاة وزراة ، وليس فيها

موارد كافية للرزق .. »

— « هذا صحيح يا بنى .. »

— « ومن ثم فليس من العدل أن يعيش هذا العدد الضخم من

اللاجئين عالة عليهم .. »

— « وماذا تقترح .. »

- ٥٦ -

- « أن يوزع عدد من هؤلاء اللاجئين على مناطق أخرى مجاورة هذه وأحدة . . . »
- « والثانية ؟؟ »
- « أن يزاول كل واحد منهم عملاً - أى عمل - يدر عليه بعض الرزق . . . »
- « معقول يا ولدى »
- « ثم ألسنت معى أن عدد اللاجئين سوف يزداد من يوم لآخر وقد يبلغ مئات الألوف ؟؟ »
- « ربما . . . »
- « ولهذا أرى يا سيدى الشيخ أن يحاول عدد من هؤلاء اللاجئين الاتجاه صوب حدود البلاد العربية ، فهناك يجدون الأمان ، وفي مصر مثلاً سيجدون الرعاية والعمل الذى يرتزقون منه ، ولا يبقى منهم هنا غير القادرين على حمل السلاح الذين ينضمون إلى الفدائيين أو إلى الجيوش العربية التى تخترق الحدود الآن . . . »
- « وهز الشيخ رأسه قائلاً : »
- « ما تقوله يا خميس يجد لدى قبولاً تاماً »
- « حسن . . . لنقل ذلك بصراحة لإخواننا اللاجئين . . . ومن بدرى ؟؟ قد لا يطول أمد المعركة ، وقد نقضى على العدوان

الصهيوني ، وتعود الأمور إلى نصابها . . وإلى أن يحدث ذلك فقد تقام معسكرات خاصة لهؤلاء اللاجئين . . إنها على أية حالة مشككة محيرة ، إذ يجب أن نواجه عدوان العصابات الصهيونية ، وفي نفس الوقت نداوى جراحنا المادية والمعنوية ونفكر في أمر أولئك اللاجئين . . .

ووجد خميس أنه قد اطمأن مؤقتاً على مصير الشيوخ والنساء والأطفال ، ولهذا اتجه بفكره نحو المعركة ، إن عليه أن ينضم منذ الغد أو بعد غد على الأكثر إلى إخوانه الفدائيين ، وأن يأخذ معه كل قادر على حمل السلاح من رفاقه ..

كان الشيخ أبو «نجلاء» يجلس ساهماً قرب ميضأة المسجد الذي أوى إليه بعض اللاجئين ، لم يكن له أسرة أو ولد أو زوجة تواسيه، وكانت الصدمة الكبرى لم تزل تملك عليه مشاعره وأفكاره وتجعله أشبه بالتمثال الحجري منه إلى كائن بشري حي ، وبدا أن جراحه الجسدية لم تعد تؤلمه ، بعد أن كفت عن النزف ، وكان لا بد لهذا الذهول والتشتت الذهني والعاطفي من نهاية ، ألم يقل أن المصائب تولد كبيرة مروعة ، ثم تأخذ في التضائل رويداً رويداً ، كل شيء يولد صغيراً إلا المصائب ، وانتفض الشيخ أبو «نجلاء» وقد سمع فجأة صوتاً ما كان أعذبه . . صوتاً لم يسمعه منذ مدة . . لقد جاءه صوت المؤذن يؤذن لصلاة الفجر « الله أكبر .. الله أكبر . . »

(٤ - أرض الأنبياء)

— ٥٨ —

وتلفت الشيخ حواليه وهو يتمتم :

« هل نحن في الجنة ؟؟ »

« بل في بيت من بيوت الله .. »

وانجابت الغشاوة عن عينيهِ . ونظر هنا وهناك ، الوجوه
السمراء مبللة بماء الوضوء ، واللحي البيضاء بياض الحليب تشرق في
طهر ، وعلى الرغم من النيران التي تشتعل في غرب القرية ومن حولها
إلا أن الله يُعبد ، والصلوات تقام ، والدعوات تصعد إلى السماء
والمؤذن يكبر « الله أكبر » ، والأمل يحيا في النفوس ، وعاد الشيخ
فجأة يقول بصوت عال : —

« لكنهم ماتوا جميعاً - أولادى وامراتى .. »

ونظر إليه المصلون والمتوضئون ورفاقه من اللاجئين ، وانبعث
صوت إمام المسجد :

« يا مولانا ... إنهم كانوا وديعة لله عندهم .. ولما أراد الله أن
يسترد وديعته فلماذا تحزن ؟؟ هل أنت أحنى عليهم من خالقهم ؟؟
إنهم الآن « في جنات ونهر » ، في مقعد صدقٍ عند مليك مقتدر ،
قم يا رجل قم .. إلى الصلاة ... »

وشعر أبو « نجلاء » بيد تجذبه في رفق ، وتذهب به إلى الميضاة ،
وتلامس كغفاه الماء البارد ، وأصوات كالطينين هي أصوات المتبتلين

والضارعين تتناهى إلى سمعه ، وبعد دقائق كان مندساً بين صفوف
المصلين ، يقرأ الفاتحة ويؤمن على الدعاء ، ويركع ويسجد . . كان
بين يدي الله . . ومن يكون بين يدي الله حقاً ، وقلبه مفتوح له
فهو في الجنة وإن كان حياً يرزق ، يدب على الأرض حيث تهب
ريح الشقاء .



الفصل السابع

ترك خميس مجموعات اللاجئين المبعثرة هنا وهناك ، لم يتركهم ضيقاً بهم ، أو تبرماً بأساهم ومشاكلهم ، لكنه أراد أن يعود إلى نفسه ، شعر بحاجة ماسة إلى خلوة هادئة يناقش فيها بعض الأمور وحده ، وخميس أكثر ما يكون صدقاً مع نفسه ، ليس هناك مجال لارتداء الأقنعة الزائفة ، أو انطلاق اللسان بغير ما في الوجدان ، وما أن اختلى بنفسه في طرف من أطراف القرية تحت كرمة صغيرة ، حتى امتد بصره إلى السماء .. إنها نفس النجوم التي تطل الآن على «حيفا» .

نفس العيون الخالدة التي تتطلع إلى مأساة الإنسان المظلوم . ومع هذه الأحزان الكامنة في أعماقه إلا أنه حسم الأمر في واقعية صادقة ، إن ما هدمته الأيدي الآثمة بسلاح الغدر لا يمكن أن يعاد بناؤه إلا بالقوة . . القوة المستنيرة وحدها هي التي ستصلح الأوضاع ، وترد الأشياء إلى طبيعتها ، لم يعد للعدالة أو المنطق السليم مكان في هذه القضية التي خذلها الضمير العالمي ، وتنكرت لها القوى المغرصة الاستعمارية ، لو كان العرب أقوياء ، لما استطاعت قدم باغية أن تلوث أرض الأنبياء والرسالات الخالدة ، أما كون العرب ضعفاء وأصحاب حق فقد هددهم الغزو والضياع والاستغلال ، إن خميس لا يؤمن اليوم بمنطق القوة الوحشية في طبيعه ، أو شذوذ

في مبادئه ، أو استجابة لعقم في فكره ، ورجعية في سلوكه ، وإنما آمن به اليوم لأن القوة هي الحل الوحيد في عالم أصبح الحق مجرد باطل صريح ، أليس من البلاهة أن يتغنى بالحب والسلام وهو طريد مشرد مسلوب الأمن ، تطارده أسلحة الحقد والدمار ، ويذبح بنو وطنه على قارعة الطريق ، وتراق دماؤهم في عقر بيوتهم ، وتنهب أرزاقهم وأرضهم ظلماً وعدواناً؟؟ ألم يقل نبي البر والرحمة أن من مات دون ماله فهو شهيد ، وأن من مات دون عرضه فهو شهيد؟! إذن لا بد من الرحيل إلى أرض المعركة ، وتذكر خميس في هذه اللحظات الحاسمة أسرته التي تقيم في « الخليل » لكم كان يتمنى أن يراهم قبل أن يقذف بنفسه في اتون المعركة ، لكن . . لا بأس أن يؤجل ذلك الآن ، إن كان في العمر بقية فلسوف يراهم ، ثم إنهم أبعد كثيراً عن مواطن الخطر ، فهم في شبه أمان . . ثم تذكر « خميس » أمراً آخر . . تذكر « ضحى » ابنة الشيخ إسماعيل ريحان تذكرها كما يتذكر الإنسان نفسه أو بعض نفسه ، هذه العذراء الخجول لها في قلبه منزلة كبرى فوق الوصف والإبانة ، كانت « ضحى » هي ابتسامة الصباح الوليد كلما رآها وهو ذاهب للتدريس في المدرسة التي يعمل بها ، وهي الحلم الجميل الذي يطبق عليه أجفانه وهو يأوى إلى مضجعه في المساء ، وهي الأمل العذب الذي يوشى خيالاته إذا ما فكر في المستقبل . . كان هذا بالأمس ، أما اليوم . . ما أفساه نواقعه المر ، وحصاده الأليم ، أليس إنمأ كبيراً أن يفكر في الحب

والأرض من حوله تشتعل بالكرهية والحقد والدمار ؟ لماذا يفكر الآن في «ضحى» ؟؟ أيريد أن يبقى إلى جوارها ؟؟ هذا مالا يخطر له على بال ، فهو يشعر أنه - وهو في المعركة - ستدافع عنها ، وعن مئات الألوف بل الملايين من مثيلاتها ، إنه بذلك سوف يؤكد انتصاره لمعاني الحب النبيل ، يريد أن يستمتع بحبه في أرض حرة كريمة ، ومن البديهي أنه يشرفه أن يعود إليها بطلا شريفاً عاش من أجل الآخرين ، بدلا من أن يبقى إلى جوارها ذليلاً أنانياً يعيش من أجل نفسه ، وفلسطين «ضحى» شيء واحد ، فهما بعد عن حبيبته ، ومشرق وغرب ، فهو يسير إليها ، وينفي عن طريقها الشوك . والأخطار والعار . . . إنه مع «ضحى» أينما سار ، والعواطف الشجيرة التي تشده إليها هي نفس العواطف التي تحرق قلبه وتدفعه لخوض المعركة الكبرى . . . لكن إذا مات ! ! آه . . . ماذا يحدث إذا مات ؟؟ سؤال أقلق «خميس» وأثار الألم والحرمان في قلبه ، سيموت إذن ظمات جائعاً ، وبسلاح صهيوني جائر لا يعرف الحب ولا الطهر .

وتنتهي القصة إلى هذا الحد ، لكن كيف ؟؟ الحب الحقيقي لا يموت ، لأنه فوق نزوات الجسد ، وفوق الرغبات الطارئة التي يعثرها الملل والفناء ، والحب هنا - في أرض الأنبياء - حب كبير لا يموت . لكن لماذا يفكر «خميس» في الموت ؟؟ ما هذا التشاؤم الذي لا يليق ببطل سيخوض أشرف معركة ، لسوف يحيى ، وستحي أمته ، وينتصر الحق ، ويعيش لفلسطين الكبيرة أرض

الله الطاهرة ، ولفلسطين الصغيرة «ضحى» ، الوداعة الجميلة . . . ،
والذين يحبون بحق لا يفكرون إلا في الحياة والأمل والانتصار
على كل العقبات ، فالحب طاقة سحرية تصنع المستحيل !! - حباً
هذه مقوماته لن يموت أبداً ، ولن تنال منه فواصل المكان والزمان ،
ولا تقلبات الموت والحياة ، وعندما تتحرر فلسطين سيشرق كل
شيء ، وسترتسم الابتسامة الخالدة على الوجوه البشرية ، وسيلعب
شعاعها على الأشجار والأبنية والتلال وكثبان الرمل ، وستنير
السماء والأرض ، وتحيل الوجود إلى أغنية حلوة شذية . . .

لكن القلق عاود «خميس» ، وعندما تذكر أن هذه القرية التي
يقيمون فيها الآن لن تكون مقراً ثابتاً لإخوانه اللاجئين ، ومعنى
ذلك ، أن «ضحى» سوف ترحل عن هنا إن عاجلاً أو آجلاً ،
وقد تسبب هذه العواصف الهوجاء التي تجتاح فلسطين في تشيبتها
وتشريدتها بحيث يأتي يوم يكون من العسير الاهتداء إليها ، وقد
تقع في أيدي هؤلاء الصهيونيين الأوغاد ، فيمثلون بها ، أو يحطمون
كبرياءها ، فلا يراها مرة ثانية ، لشد ما يزعجه هذا الخاطر ، ويورق
عليه أمله الباسم في غدٍ أفضل ، ومع ذلك فقد حاول «خميس» جاهداً
أن يتغلب على هواجسه ، وأن يعتصم بعقيدته الأصيلة وهي : أن
نسكبة وطنه الكبرى فوق آماله وعواطفه الفردية . . .

أوى «خميس» إلى فراش النوم في ساعة متأخرة من الليل ، كان نومه متقطعاً قلقاً ، ومع ذلك فقد استيقظ عند مطلع الفجر ، وعوداً على أداء الصلاة جماعة ، كان الجو رطباً حانياً ، وروحانية مشرقة تضيء في أروقة المسجد، وتملاً نفس «خميس» بالرضا والقبول والإيمان . لأول مرة يحس حقيقة أن للإيمان العميق الصادق مذاق حلو شهى يساوى كنوز الدنيا بأسرها ، وأيقن حينذاك ألا شيء اسمه الفناء بالنسبة للإنسان المؤمن ، وما الموت إلا قنطرة إلى عالم زاهى الربوع ، قدسى النفحات ، خالد لا يفنى ، وبعد أن أدى الصلاة ، وارتدى ملابس الميدان وحمل سلاحه وذخيرته ، وجد في نفسه الشجاعة الكافية لكي يذهب إلى «ضحى» ليودعها ، ولم يكن قبل ذلك يحاول الانفراد بها ، أو يسقط ما بينه وبينها من تزمّت وقيود يفرضها العرف والتقاليد ، وعندما أصبح وحيداً معها صمت لحظات ثم قال :

— «لم أستطع أن أرحل قبل أن أراك»

ولما لم تجب بشيء ، جف ريقه ، وشعر بالخرج ، ولم يستطع أن يدارى حرجه بغير الاستطراد في الحديث : —

— « أنت تشعرين بما أحفظه لك في قلبي من ... من تقدير ، وسأظل طول حياتي حاملاً لك في قلبي أنبل المعاني والعواطف وأخلدها .. انى على ثقة بأننا سنلتقي ، وعندما يريد الله أن يتم هذا

- ٦٥ -

اللقاء في عالم حر سعيد ، فسنبداً حياتنا على أجمل وجه وأروع ..
أما إذا شاءت الأقدار ألا أعود و ... »

فقاطعته قائلة :

— « لا تقلها .. لا تقلها .. »

ثم انهمرت دموعها ، وأخذت تدير وجهها بعيداً عنه ، بينما
قال « خميس » : —

— « أجل .. يجب أن أقولها .. »

— « وستعود إلينا سليماً أنت ورفافك .. »

— « سنعود يا عزيزتي .. »

-- « وستنتصرون .. »

— « بإذن الله .. »

— « وستقام الأعراس ، وتصدق الطبول لنا في « حيفا » الحبيبة .»

وشرداً بأحلامهما إلى بعيد ، حيث أشجار التفاح والبرتقال والزيتون ،
وحيث البحر الواسع ، والمآذن والقباب ، وحيث الذكريات الحلوة ،
وأيام الحب والصفاء ، وأفاق « خميس » إلى نفسه قائلاً : —

— « لتجفني دموعك إذن .. أنا لا أذهب إلى موت بل إلى

حياة !! أتفهمين ما أرمى إليه ؟؟ »

— « بكل تأكيد .. أنت اليوم في نظري أكبر من أي وقت

مضى ، وتقديرى لك قد ارتفع إلى مرتبة القداسة .. لأنك رجل يعرف الشرف ويعرف الواجب .. لأنك رجل .. وكفى .. ،

شعر «خميس» لدى سماعه لهذه الكلمات بأنه قد تحول إلى عملاق كبير ، وأنه قد أصبح مزوداً بقوة خارقة لا تعرف الخوف أو الخور ، وتمنى أن يهبه الله ذراعين طويلين يستطيع أن يطوق بهما القوات الغادرة كلها ، ثم يضغط عليها ويسحقها بشدة حتى يعتصر ماء الحياة منها ، ويقذف بها جثثاً هامدة ..

وجاءه صوتها مرة ثانية :

- « أعرف أن الفراق مر . لكنه لهدف كبير .. »

- « لكن البعاد سيزيد عاطفتنا توقد وأصالة .. »

- « بكل تأكيد يا خميس .. »

- « وستظل صورتك الغالية فى قلبى .. »

- « وسأدعوا لك عند كل صلاة .. وسأعلم « وليد » الصغير

كيف يضرع إلى الله أن يكتب لك النصر والحياة والعود الحميد .. »

وأدرك «خميس» أنه يجب ألا يطيل البقاء فى مكان اللقاء ، ورأى

أنه يجب أن يسارع بالعودة إلى رفاقه ، حتى يبدأوا رحلتهم ،

ويتخرطوا فى سلك المعركة ، وتمتم «خميس» فى انفعال لم يستطع

مداراته :

— ٦٧ —

— « اعتقد أنه يجب الآن أن أرحل . . . »

فلما لم تجب عليه ، رفع عينيه إليها ، كانت « ضحى » شاردة ، وبدأ عليها أنه لم تع تماماً عبارته الأخيرة ، وهمّ بأن يسألها عن سر شرودها ، لكنها قالت في لهفة ، وهي تبعث بأناملها في عصبية :

— « خميس !!! »

— « نعم . . . »

— « عندي فكرة . . . »

— « ماذا؟؟؟ »

— « لماذا لا أحمل السلاح مثلكم ، إن التدريب عليه لا يحتاج إلى وقت طويل . . . ما رأيك؟؟ هذا أعظم عمل ، ليتنى أ كافح إلى جوارك . . . لاشك إنها أمنية رائعة ، ثم لا تنسى أن مافي قلبي من رغبة في القصاص من هؤلاء المعتدين تكاد تقتلني . . . هيه . . . ماذا قلت !!! »

قال « خميس » وهو يتنهد :

— « لم يش الأوان بعد . . . إن ما لدينا من سلاح وذخيرة لا يكفي إلا عدداً قليلاً من الرجال ، فتسليح النساء إذن أمنية مبكرة جداً . . . أو قولى أنه حلم . . . لو كان لدينا السلاح الكافي الصالح للمقاومة لحلت المشكلة ، بل لما فكر الأعداء في تنفيذ مؤامراتهم . . . »

أحنت « ضحى » رأسها فى أسى ، ثم أعطت « خميس » .
وقالت والدموع تنسكب على خديها من جديد :

— « فى رعاية الله . . . »

— وقبل أن يتركها قال :

— « قد تفكرين فى الكتابة إلىّ حتى أعلم — على الأقل —
مكانك الذى ستقيمين فيه إذا ما غادرت هذه البقعة . وأعتقد
إرسال خطاباتك على هذه القرية قد تصلنى ، فسأمر هنا من حين
لآخر ، وسأوصى أحدهم بتسلم ما يصل رجالنا من مكاتبات .. »

وأنهى « خميس » حديثه

ثم مضى ..

كان لوقع خطواته فى أذنيها صدى حزيناً دامعاً . . .

لم تستطع أن تبقى على وضعها الراهن ، بل أدارت وجهها نحو
الطريق الذى سلكه ، كان ينطلق واسع الخطى . فارع الطول ،
كيف شهره القدر فى وجه قاطع طريق ، وكانت « ضحى » تشعر أن
قلبها يتململ فى صدرها ، ويحاول جاهداً أن ينطلق من سجن الضلوع
ويلحق بالراحل الحبيب . . إلى أتون المعركة القاسية .



الفصل الثامن

ثارت مشاعر العرب والمسلمين في شتى أنحاء العالم ، إنه حدث كبير أن تتحقق آمال صهيون في هذه الأونة بالذات ، وأن تقطع أرض عربية لتكون لهم وطناً ، المنابر في القاهرة وبغداد ودمشق وعمان والمدينة المنورة وعشرات المدن تصرخ داعية إلى الجهاد المقدس ، والشوارع الكبيرة تغص بالمئات من الألوف هاتفة متوعدة ، المؤتمرات السياسية الصاخبة تعقد ، النشرات تملأ الأندية وأماكن التجمعات ، الصحف تمتلئ صدور صفحاتها ، وتسيل أعمدها ثورة وحماسة ، الموقف يتأزم لدرجة مخيفة ، وحكام العرب يجدون أنفسهم مساقين سوقاً إلى خوض المعركة على الرغم من الظروف القاسية . . فالسلاح قليل ، والاستعداد للمعركة ليس على ما يرام ، وقوات الاحتلال الغربي ترابط في أكثر الأقطار العربية ، لكن ثورة الجماهير لا تؤمن بالمنطق والواقع الأليم ، يكفي أنهم أصحاب حق ، ولو خرجوا عزلاً وبلا ذخيرة لخاضوا المعركة ، إذا كيف يرون قطعة عزيزة عليهم من الوطن العربي تنتزع ظلماً ولا تتور ثأرتهم ؟؟

إن هذه المأساة تجرح كبرياء العرب ، وتنال من معتقداتهم . . أنهم يرون أن الاستعمار شيء طارئ قد يزول اليوم أو غداً ، أما

إقامة وطن قومي لليهود فإنه يحمل في ثناياه مأساة أكبر من الاستعمار والتسلط الغربي ، فإذا ما قامت دولة - كإسرائيل - وأصبحت لها كل مقومات الدول وإمكاناتها .

واكتسبت صورة دولية ثابتة ، فسيكون القضاء عليها أمراً يحتاج إلى كثير من التضحيات والمتاعب والسنين . .

ومع هذا الغضب الشعبي الجارف إلا أن القاهرة بدت في صورتين متناقضتين ، فالبسكوات والباشاوات ورجال المال يرون أنه من العبث الوقوف في وجه سياسة رسمتها وأشرفت على تنفيذها الدول الغربية ، ومن العسير أن يقف أحد في وجه الاستعدادات العسكرية التي تغدقها أوروبا على إسرائيل ، هذه هي القاهرة من خلال أفكار المسيطرين على زمام الأمور فيها ، أما القاهرة كشعب فقد كان لها رأى آخر فالمعركة ضد اليهود هي نفس المعركة ضد القوات الانجليزية في القنال وإن تغيرت المواقع والأسماء ، وليس المهم - في نظرهم - أن يكون لنا تفوق عسكري لكي نخوض المعركة ، ولكن المهم ألا نسلم بالمخطط الاستعماري . فالمهادنة ضرب من الخيانة ، والتسليم لليهود بقطعة من أرضنا المقدسة عار أمام الأجيال القادمة ، وهكذا رضخت القاهرة ملكاً وحكاماً للقاهرة شعباً ثائراً متعطشاً للمعركة . وعلى الرغم من الحكومة أعلن الجيش المصرى الحرب على إسرائيل . .

وعلى الرغم منها أيضاً نشطت حركة التطوع وجمع التبرعات
والسلاح وحركة التدريب في المعسكرات الشعبية المختلفة ..

وفي حي « السيدة عائشة » بالقاهرة كان يديس الأستاذ أحمد
بدران وهو مفتش لغة عربية في المنطقة الوسطى ، ومعه زوجته
وإبنته صالح بدران الطالب بالسنة الثالثة بكلية الآداب قسم الفلسفة
جامعة القاهرة ، وكان الأستاذ أحمد - وهو أزهرى سابق - يتابع
كل ما يقال ويكتب عن فلسطين باهتمام بالغ ، ويوجه النقد اللاذع
للعرب وتقاعسهم ، ويعتبر قيام دولة إسرائيل مخالفة صريحة لنص
من نصوص الدين ، وبداية سيئة لفساد العالم وقيام الساعة ، فقد
كتب الله على بنى إسرائيل - كما قرأ في كتب الدين - أن يعيشوا
مشردين في الآفاق جزاء عصيانهم وانحراف مفاهيمهم ، ونظرتهم
السوداء الحاقدة الأنانية للبشرية كلها . . . ولكل ما ليس يهودياً ،
وأنتهم على عقب التاريخ سبب عديد من الكوارث والخيانات ،
ولهذا قرر في ثقة وإيمان قائلاً : « إما أن يقضى على إسرائيل اليوم
أو غداً ، أو يعتبر هذا فألاً سيئاً على البشرية جمعاء ، وعلى المسلمين
والعرب بوجه خاص . » وكان يقول لزوجته :

- « إذا ما سكت العرب على هذه الكارثة ، وتعاموا عنها
فسيأتى يوم يدق فيه الصهيونيون أبواب مصر .. عند ذلك فقولى
على عرضنا وعلى مقدساتنا وتراثنا العفاء ! انظري ما يفعلونه

الآن في إخواننا العرب من قتل وتشريد وتمثيل ١١ كيف يحدث هذا في القرن العشرين ، وكيف يحاولون السيطرة على أولى القبلتين وبيت المقدس .. لا يجب أن يحدث هذا ، ويجب أن نقاوم لآخر قطرة من دمائنا .. « سمع صالح بدران هذا من أبيه ، فأقدم صالح في ثبات وإصرار ، ووقف أمام والده مطأطئ الرأس وقال :

– « لهذا قررت الانضمام إلى المتطوعين المسافرين إلى فلسطين .. » فابتسم الأستاذ أحمد ، وعبث برباط عنقه ، ثم أعاد وضع طربوشه على رأسه ، وتنحنح ، ثم قال :-

– « هذا شعور جميل منك .. تشكر عليه .. »

– « لذا سأسافر .. »

– « تسافر؟؟ »

قالها أبوه في دهشة ، فأردف صالح قائلاً :-

– « أنا لا أهزل .. »

فقال أبوه وقد اختلجت شفته السفلى وشحب وجهه :-

– « لكنك لم تنزل صغيراً .. »

– « اننا نجد في العشرين ، وأنا في الواحدة والعشرين .. »

فارتج على أبيه ، دارت الحجره به ، ودق قلبه دقائق ، متلاحقة ، لكنه تماسك ، وارتسمت على وجهه علام الجذ والحزم وقال :

— ٧٣ —

— « هذا لعب عيال »

— « لماذا؟؟؟ »

— « الحماس الأجوف لن يجدى فتيلاً . . »

— « لكنه ليس بأجوف . . إنما يحركنى إلى هذا التصرف الشريف عقيدة ثابتة ، ألم تحدثنا عن الجهاد والتضحية وشرف الشهادة فى سبيل الله ، ووعده الله بنصر المؤمنين ، وأنه كتب التشريد على اليهود شذاذ الآفاق حسب تعبيرك؟؟

فهب الوالد واقفاً ، وأمسك بكتف ابنه ، وهزه فى سخرية مصطنعة وقال : -

— « للمعارك رجالها !! أليس مضحكاً أن تذهب إلى الميدان دون خبرة أو تدريب . . »

فلم تلتن قناة صالح ، بل قال فى إصرار : -

— « منذ شهر وأنا أتدرب ، وأجيد الآن استعمال قنابل

ش . ف (شديدة الانفجار) واستعمال (البرن) . والزحف على الأرض ، والمصارعة اليابانية . . لقد تعلمت حرب العصابات .

وصمت برهة أمام ددشة أبيه وانهاره ثم استطرد قائلاً :

— « ألم تقل لأصحابك أن الجهاد فى هذا الوقت «فرض عين»

لم أكن أعرف معنى هذه الكلمة ، ولما سألته عنها فهمت أن الجهاد

(ه — أرض الأنبياء)

الآن واجب على كل فرد .. إن هذا الحكم الشرعى الذى سمعته منك جعلنى لا أستمتع بلذة النوم .. »

وأدرك الأستاذ أحمد أن ابنه صالح لا يهزل ، وأن قوة كاسحة من الإيمان والعقيدة الراسخة وحماسة الشباب تحركه فى عنف نحو الأرض المقدسة ، ولم ينكر الأستاذ أحمد - بينه وبين نفسه - كلمة واحدة من الكلمات التى قالها ابنه ، كان يؤمن بكل كلمة سمعها ، لكنه صرخ وقد تدفقت الدموع من عينيه :

« أتعنى ما تقول حقاً ؟ ؟ »

« بالطبع .. »

« لكنك وحيدى .. ليس لى أحد سواك .. »

« ليس هذا بعذر .. »

« لكنى أبوك .. وأدرك أكثر مما تدرك .. »

« لا أفهم ما تقول .. »

فابتلع الرجل ريقه ، وجفف دموعه وقال :

« المعركة زائفة .. وفاروق يقيم مسرحية دامية ويلعب

خلف الستار ، والانجليز أيضاً يلعبون ، إنهم يريدون أن يمتصوا

الحقد الشعبى والثورة الجارفة التى توشك أن تقتلعهم .. القوات

الانجليزية فى القنال متربصة ، وسلاحنا منهم لاناخذة إلا برضاهم ..

هل فهمت ؟ ؟ أيعقل أن يكون الانجليز هم أول العاملين على إقامة

— ٧٥ —

إسرائيل ، ثم يعطونا السلاح للقضاء عليهم؟؟ أنت مجنون .. مجنون
ورب الكعبة .. »

اختلط الأمر على صالح ؛ وأخذت تطن في رأسه عبارات أبيه
القاسية المثبطة ، فتفصد جبينه عرقاً ، واجتاحته موجة عارمة من
الغضب . وهتف في نبرات جريحة منهزمة : -

— « معنى هذا أنه لا فائدة .. »

— « لا فائدة .. »

— « لن يخرج الانجليز لأنهم أقوى منا ، ولن نستطيع محاربتهم ،
لأنهم يحتكرون السلاح . ويضربون من حولنا ستاراً حديدياً ..
— « أجل يا بني .. »

— « ولن ينتصر العرب على اليهود ، لأن الانجليز يؤيدونهم
ويحمونهم .. »

— « أجل يا بني .. »

— « ومعنى هذا أنه قد ضربت علينا الذلة والمسكنة ولم تضرب
على اليهود ؟ .. »

فصرخ الأب قائلاً : -

— « قف .. هذا قرآن .. لقد نزلت آية « وضربت عليهم الذلة
والمسكنة وباءوا بغضب من الله » نزلت في اليهود .. إنك تحرف
الكلم عن مواضعه .. »

— ٧٦ —

فدق صالح الحائط بقبضته في ثورة ، ثم أخذ يشد شعر رأسه
في انفعال ، ويقول وقد تبللت عيناه بالدموع : -

— « من الأذلاء في القرآن ؟؟ »

— « الكفار يا حبيبي .. »

— « ومن الأعزاء ؟؟ . »

« المؤمنون .. »

— « ومن نحن ؟؟ كفار أم مؤمنون .. »

— « مؤمنون والحمد لله .. »

فجفف صالح دموعه ، وارتسمت على ثغره ابتسامة مباغثة
لم يتوقعها أبوه ، ثم اقترب من أبيه ، وطوقه بذراعيه في حنان
وعاطفة جياشة وهو يقول :

— « سأرحل مع الراحلين يا أبي .. »

قال الأب في نبرات جريحة كسيرة : -

— « متى ؟! »

— « بعد غد »

— « سأعيش لك وبك ، سأدعو لك عندما يبشر الفجر

بمولد يوم جديد ، وسأدعو لك عندما ينسكب الظلام من السماء
وسأقول أعادك الله سالماً يا صالح . »

فقال صالح وهو يقبل رأس أبيه : -

« وستقول نصر ك الله يا صالح أنت ورفاقك .. والأعمار
بيد الله يا أبى .. »

وأردف الأب قائلاً وهو يستند على كتف صالح ليعود
إلى مكانه فوق المقعد : -

« لكم يسعدنى أن أرى فى عينيك ، وأشم من كلياتك الفتية
روحاً جديدة تطرب لها روحى .. لكنى أبكى .. وسأبكى لأنك
ولدى الوحيد .. إبنى كأب أقول لك ابق بجوارى حتى أسعد بك
وبنجاحك فى الحياة ، لكنى كإنسان مؤمن حر .. أقول لك
اذهب لتدفع ضريبة الدم ، ولتحقق لوطنك الكثير ، ولعقيدتك
السمحاء ، النصر ، والحرية .. وتؤكد معانى الخير والعدل
والحب .. »





الفصل التاسع

رأوها قادمة من بعيد ، تحمل يمينها السلاح ، وتندفع صوب المنخفض الذي يلي التبة العالية ، ذلك المنخفض الذي تحيط به كشيان الرمل والصخور ، وصاح أحد الرجال : —
— صوبوا إليها البنادق ، إنها تحمل سلاحاً . . .
وأردف « خميس شاهين » : —
— لكن لا تطلقوا « إنها فتاة أظنها عربية »
وكلما اقتربت ازدادت ملاحظتها اتضاحاً ، وحينما أصبح بينها وبين « خميس » ما يقرب من ثلاثين ياردة ، هتف بصوت ممتلئ حازم : —

— « من القادمة ؟ »

وبدون خوف ردت قائلة :

— « نجلاء . . . »

« اقذني بالسلاح على الأرض وارفعي يديك . . . »

— « حسناً . . . ها هو . . . »

وفعلت ما أمرها به ، وظلت تتقدم حتى وجدت نفسها بين

عدد من الرجال ، تطل اليقظة والتوثب من عيونهم ، وغمغمت :

— « أنا فتاة من « حيفا ، البائسة . . »

ودقق « خميس شاهين » النظر في وجهها الشاحب الحزين .

ونفض عن يديه وسترته التراب « ثم وقف قبالتها وقال :

« إننى أكاد أعرفك —

— « وأنا أعرفك يا معلم . . نحن أبناء المدينة المنكوبة . .

ألم تكن تسكن بيت الشيخ إسماعيل ريجان ، وتعلم الصبغة

في مدرسة المدينة . . »

— « بالضبط . . لكن من تكونين ؟ . . »

وروت باختصار كل المعلومات التي تتصل بها ، وبأبيها ومسكنهم

ومأساة أسرتها التي راحت ضحية التوحش والغدر ، وشرد « خميس »

بضع لحظات ، ثم قال : —

— « لقد عرفتك الآن ، لكن أباك لم يمت . . »

— « رأيت الرصاص يخترق ظهره بعيني رأسى ويخر صريعاً . . »

— « وأنا رأيت به بعيني رأسى أيضا . . كان جريحاً مذهولاً ،

وكان يخترق معنا عرض الصحراء مع قافلة اللاجئين الهاربين من

وحشية الصهيونيين في حيفا . . »

فقالت وهي لا تكاد تصدق ما تسمع : —

« ماذا تقول؟؟ أأبي حتى؟؟ لست متأكد أيها الأخ . .
 أليس كذلك؟؟ إن أسرتي فنيت عن آخرها . . رأيتهم جميعاً
 يصرعون ، ثم اختطفني اليهود و . . وأخيراً هربت من معسكر
 الاعتقال وأتيت إلى هنا . . »

وبدأ الانفعال يجتاحها ، وتجسمت لخيالها المأساة من جديد ،
 الأرواح التي أزهدت هدرأ . . أعز الناس لديها كيف ذهبوا جميعاً
 إلى العالم الآخر في لحظات ، وبطريقة بشعة « العدوان الرهيب على
 كرامتها كفتاة ترى الشرف كل شيء في الحياة ، وامتألت عينها
 بالدموع ، ودارت رأسها ، وتهاكت ، فامتدت إليها أيدي
 الرجال ، وأسندوها حتى أضجعت وهي تهمس بصوت واهن :
 - « إلى بجرة ماء » .

عندما لامست « الزمزية » شفيتها الجافتين ، كانت كطفل
 جائع يتوق إلى ثدي أمه ، وأخذت تجرع الماء في نهم حتى أرتوت ،
 ثم همست قائلة :

- « أشكركم يا رجال »

وفتحت عينيها من جديد ، وأخذت تعيد النظر إلى الوجود
 المغبرة التي تحيط بها ، الوجود العربية التي لوحها الشمس وأضناها
 السهر ، إن هؤلاء الرجال لاشك يفكرون بالليل والنهار . والتفكير
 يقلقهم ويبعث الأرق في ليلهم ، في الليل ينقضون كالصقور ،

وفي النهار يقبعون في حرص وبقظة ، انهم يحملون على كواهلهم مستقبل أمة ، ويتكفلون بالحفاظ على مصير شعب ، آلاف مثلهم ينبشون في أعماق الصحراء العربية في أرض فلسطين ، ويخطفون في البيارات ، ويحاصرون مشارف المدن والمستعمرات الإسرائيلية ويضحون بالنعيم الدنيوي والراحة المادية ، وزهرة أعمارهم من أجل مبدأ .

وأفاقت « نجلاء » مرة أخرى على صوت « خميس » يقول :
 أنا أعرف أبا نجلاء كان معنا . . . لقد تركته منذ وقت قريب مع العم إسماعيل ربحان وباقي اللاجئيين في قرية تبعد عن هنا عشرين كيلو متراً « لكنه بكل تأكيد قد غادر القرية الآن . . . »

وغمغمت : — « هذه مهجزة يامعلم . . . »

— « بالتأكد لم تكن إصابته قاتلة . »

— « وباقي الأهل . . . »

ولما أطرق « خميس » صامتاً ، قالت : —

— « ألم ينبج منهم أحد ؟؟ »

— « للأسف . . . »

— « قضاء الله أيها الإخوة . . . كنت أتمنى أن يعيش إخوتي

— ٨٥ —

وأن يكونوا الآن إلى جواركم يخوضون هذه المعركة المقدسة . ولو
نجوا من الغدر وماتوا هنا على هذه الأرض في معركة مكشوفة
لما بكيت عليهم . . . لكن ما الحيلة وقد انتهى الأمر . . . »

ثم رفعت رأسها وقالت :

— « أين قائدكم ؟ ! »

— إنه هنا . . .

وتقدم رجل قصير ذو لحية سوداء ، ونظرات حديدية

ثابتة : —

— « أنا في خدمتك . . . »

— « من أين ؟ ؟ »

— « من مصر . . . كلنا إخوة . . . »

— « أتقبلني ضمن رجالك ؟ ؟ »

وهنا تدخل فتى ظل صامناً طوال الوقت ، ينظر إليها ويستمع

إلى حديثها وحديثهم دون أن يعلق ، قال صالح أحمد بدران طالب
الآداب القادم من القاهرة :

— « أنه لأليق بها أن تنضم إلى هيئة التمريض في إحدى

المستشفيات أو مراكز الإسعاف . . . »

— ٨٦ —

قالت « نجلاء » في إصرار : —

— آلاف غيرى من الفتيات يستطعن أن يقمن بمهمة التمريض في الحرب تختلف المشارب ، منا من يهوى تضميد الجراح ومداواة المصابين ، ومنا من يطلق مدفعه ليقتل المعتدى . . . ليقتص . . . أنا واحدة من الصنف الأخير . . . هل فهمت . . .

قال صالح متفلسفاً :

— الحقد وحده يعمى ويقود للتهور والخطأ .

فقالت بسرعة .

— لكنى صاحبة مبدأ وقضية ، وعلى هدى مبدئى أسير . ليس بالحقد المقدس وحده نخوض المعركة ، وليس بالسلاح وحده نضرب فى صدر العدو ، ولكن بمنطق الحق والعدالة والسلاح نسير فى الطريق الطويل الدامى إلى تخليص وطننا السليب . . . هل فهمت ؟ ! ،

وتقدمت فى نحيف العود فارح الطول اسمه نادر وقال فى لهجة

رقيقة : — « يسعدنا أن تكونى إلى جوارنا : »

وحسم القائد القصير ذو اللحية السوداء الأمر قائلاً :

— حسناً : لك ما تريدن . . . نحن هنا سبعة ضمن كتيبة

عمر بن الخطاب ، عهد إلينا بالبقاء في «سور باهر» في مواجهة نقطة حراسة يهودية شديدة المراس . . . وستكونين أنت الثامنة . . .

واقتر ثغرها عن ابتسامة حزينة وهي تقول :

— أشكرك سأكون عند حسن ظنكم جميعاً . . .

وأردف القائد القصير ذو الليحة السوداء : —

— ليس المهم أن نضحى ونموت دون خوف ، بل الأهم من هذا كله أن نصنع شيئاً . . . أن نحافظ على حياتنا من أجل المعركة التي قد تطول ، إن موت واحد منا عزيز علينا لأبعد مدى ، ولهذا نحن نعمل هنا في شجاعة لكن دون تهور ، ونفكر طويلاً لا تردداً وجبناً ، ولكن من أجل الوصول إلى أسلم النتائج وأضمنها وبأقل الخسائر . . .

وهزت «نجلاء» رأسها قائلة :

— «فهمت . . . سترون إني أستحق زمالاتكم وثقتكم» .

كان التعب يبدو في عينيها ، وكان التراب العالق بأهدابها وخصلات شعرها وثيابها يذبي عما كبده من مشاق طوال سفرها الطويل المليء بالعقبات والأخطار ، ولم يفت ذلك «صالح» الذي همس في أذن القائد قائلاً :

— ٨٨ —

— « إنها في حاجة إلى الراحة . . »

وتدخل « نادر » دون حاجة إلى ذلك وقال : —

« إنها متعبة . . مسكينة . . يجب أن نهيء لها أسباب
الراحة فوراً . . »

قال القائد وهو يخفض نظراته : —

— « هذه نوبة صالح وخميس شاهين . . وأنت أيتها
الأخت تستطيعين أن تأوى إلى الكهف القريب لتتناولى بعض
الطعام الجاف وكوباً من الشاي الساخن ثم تنامى قليلاً . . »

فقالت مجاملة : —

— « لكنى أستطيع القيام بما يجب على من أعمال فوراً . . »

قال القائد في حزم : —

— « نفذى الأمر دون مناقشة . . أنت جندى الآن . . »

فهبّت واقفة ، واتجهت إلى حيث أشار القائد وهي تقول : —

— « سماعاً وطاعة . . »

وخطت إلى الطريق ملتوها ببط ، حتى بلغت الباب الموارى

للكهف ، ثم دلفت إلى الداخل ، كانت بالكهف كومة من القنابل
اليدوية ، وكمية لا بأس بها من الذخيرة ، وبعض المدافع
والمسدسات ، وقفص كبير به بعض المواد الغذائية ، وموقد
غازي ، وبرميل كبير للماء ، وبعض الأغطية والمفارش
والمهمات الخفيفة ، واتخذت لها جانباً ، ثم لفت بطانية
حتى جعلتها أسطوانية الشكل ، وألقت برأسها عليها ، وشعرت
باطمئنان كبير يسرى في كيانها .

وسرعان ما راحت في سبات عميق .



الفصل العاشر

استطاع قائد كتيبة «عمر بن الخطاب»، أن يقضى على ألوان الحرج التي ترتبت على وجود فتاة واحدة بين سبعة رجال، لم يكن هذا شيئاً، ألوفاً لدى عقلية الرجال وتقاليدهم والخجل التقليدي الذي يلازمهم، لكن القائد أمكنه أن يعد لها ركناً منزوياً تمام الانزواء في تجويف صخري مجاور للكهف الذي يقيمون فيه، كما أمكن الفتاة بحزمها وصلابتها وأحزانها التي لا تفارقها أن تزيل الحرج، ولا شك أن عنف المعارك وخطورتها قد جعل الجميع مجرد جنود يفكرون في القنابل والألغام والهجوم والموت والحياة. وعند تناول الطعام كانت «نجلاء» تقوم بتوزيعه عليهم، وإذا ما وجبت الصلاة وقف القائد ذو اللحية السوداء في المقدمة كإمام ثم تلاه الرجال، ومن خلفهم تقف «نجلاء» خاشعة بين يدي الله تؤدي الصلاة، وفي نوبة الحراسة تلتزم مكانها، لابسة سروالا خشناً، وسترة ضافية، وطاقيّة من القماش الأصفر، وفي أغلب الأحيان كانت تلف شالا حول رأسها وجانبي وجهها وعقبا، فلا يمكن - عندئذ - التفرقة بينها وبين الرجل.. ولم يكن يضائق القائد سوى مرح «نادر» المبالغ فيه، وتبسطه في الحديث معها، والثثرة بمناسبة وغير مناسبة، غير أن القائد كان يكتفي بانفت نظره، مقدرأ

طبيعته المرحة ، وميله للترفيه البريء . ومع ذلك فعند ما انفرد صالح بدران بخميس شاهين قال له :

- « لم أكن أتصور أن قائدنا يقبل امرأة معنا .. »

- « ولم لا؟؟ إننا في حاجة إلى أيدي كثيرة تهدم الفساد ثم نقيم على أنقاضه دعائم حياة جديدة حرة .. وفي رأي أن قائدنا رجل عاقل ذكي ، ألا ترى أن «نجلاء» مريضة النفس من جراء المأساة التي عاشتها ، وأنه لا علاج لها إلا بالانغماس في المعارك العنيفة ، إنها بذلك تؤدي واجباً وفي نفس الوقت تجسد في ذلك شفاءها .. »

وهز صالح رأسه قائلاً :

- « معقول .. »

- « تم لا تنسى أنك في الجامعة ترى الفتيات إلى جوار الفتيان ، وفي الشارع يسير الرجال إلى جوار النساء ، وفي المصانع ودواوين الحكومة أصبح طبيعياً أن يعمل الجنسان جنباً إلى جنب فلماذا لا يحدث ذلك في حقول الألغام والنضال؟ .. »
فقال صالح مغضن الجبين :-

- « صناعة الموت رهيبة ، والنساء رقيقات .. »

- « ربما ، لكن «نجلاء» قد انصهرت في بوتقة الأسى الحارق

وهي ترى بعيني رأسها أهلها يذبحون .. »

— ٩٣ —

— « هذا مؤلم .. »

ثم أردف « خميس » بعد فترة صمت :-

- « وفي الحرب القادمة إذا ساء حظ العالم واندلعت شرارتها فإن أى فرد - امرأة كان أم رجلاً - يمكنه أن يضغط على زرار في لوحة صغيرة ، فتنتطلق الصواريخ ذات الرؤوس الذرية ، والأسلحة الرهيبة إلى مجالات بعيدة ويفنى آلاف .. بل ملايين البشر .. يا صديقي إن العالم يتطور ، ومقاييسه تنقلب رأساً على عقب .. »
قال صالح وهو يحاول تنظيف مدفعه ، وينفض عنه الغبار ويتأكد من صلاحيته للعمل :-

— « كان الله فى العون .. »

— « مدنيتنا متوحشة منحرفة ، برغم ما حققته من تقدم على رائع .. »

فقال « خميس » على الفور :-

— « لأنها مدنية كافرة نسيت الله .. »

— « بل عزلت الله والدين فى الكنائس والأديرة ، ونحته عن معترك الحياة الصاخبة .. »

— « وهذا الانفصام يا عزيزى صالح قد يودى إلى الكارثة ؟ »

— « فليرحمنا الله . ! »

— ٩٤ —

صاح القائد بصوت حازم « اجمع هنا ،

وتلاقى الرجال السبعة ومعهم « نجلاء » بعد لحظات ..

كانت العيون مركزة عند شفتى القائد ، وكأنهما مغنطيس يجذب اهتمامهم ونظراتهم ، كان قائدهم غريباً ، انفعالاته دائماً غامضة لا تبدو على وجهه ، وفي أخرج الأوقات لا تبدو الارتعاشة في يديه أو شفثيه ، يصدر الأوامر الرهيبة بنبرات هادئة ، وكأنه يتسامر مع أصدقاء أصفياء في ليلة مقمرة جميلة ، حتى الانتصارات الضخمة التي يحققها أحياناً لا يتحدث عنها إلا وكأنها شيئاً طبيعياً يجب أن يكون دائماً ، يشعر بالتقصير ، ويشعر برفقائه - مهما فعلوا - أنهم دون المستوى ، وأنهم يستطيعون أن يضاعفوا الجهد ويحققوا ما يسمى بالمعجزات ، حتى نومه .. إنه يستلقي وكأن أمر الموت أو الحياة لا يعنيه في قليل أو كثير ، وإذا ما هتف به أحد ولو بصوت خفيض فتح عينيه وأجاب وكأنه لم يكن نائماً ... وبعد أن تجمعوا قال القائد :-

— « أيها الإخوة .. جاءتنا رسالة عاجلة من قائد القطاع « على كتيبة عمر بن الخطاب .. س . ب قنباصة .. أن تهاجم الموقع اليهودي « ش في منتصف الليلة .. يجب الاستيلاء . على الموقع « ش بأى ثمن .. »

ثم قال القائد مستطرداً :

— « إن هذا الموقع اليهودى أيها الأصدقاء يبعد عن هنا خمسة كيلو مترات ، فوق تبة متوسطة الارتفاع ، وهذا الموقع يغذى النقاط اليهودية ومراكز الحراسة بالمعلومات والأوامر والمؤن . . إنه منطقة رئيسية هامة من الناحية الاستراتيجية . . ومن ثم فإن احتلاله سيكون خسارة كبرى للعدو ، وسيربك خططه في هذه المنطقة ؛ بقدر ما سيكون كسباً كبيراً لنا . . يجب أن نبادر بتنفيذ الأمر الصادر، لنا قبل أن تقترب القوات العربية النظامية من هنا . . يجب ألا يكون في طريقها عوائق تؤخر الزحف . . من يدري قد نطبق على « تل أبيب » مع أيام العيد ؟ ؟

وسادت فترة صمت قصيرة قال خميس بعدها :

— « الطريق إلى الموقع ع ش مكشوف تماماً ، والموقع على تبة عالية ، ومن ثم فإن القناصة اليهودية قد تقضى على أية قوة تزحف نحو الموقع . . »

كانت « نجلاء » فى شوق جارف لخوض المعركة ، لم تكن تحب أن تسمع أى اعتراض ، أو تقبل أى تأجيل ، لطفة مجنونة تدفعها إلى التقدم السريع والعمل البطولى ، لهذا قالت :

— « شجاعتنا وإصرارنا تسهل لنا المهمة ، وسترون أننا سنطبق على الموقع ع ش دون أن نفقد نقطة دم واحدة . . »

فقال القائد :

- « أمنيات جميلة يا عزيزتى لكنها غير عملية . . الطريق مكشوف وتقدمنا على أرض منخفضة يتحكم فيها العدو من مركز مرتفع كيف نهاجمه ؟؟ هذا هو السؤال . . »

الدم الثائر يجرى فى عروقها حاراً دفاقاً ، وقشعريرة عجيبة تهز جسدها هزاً ، وأصابع يديها تنقبض وتنبسطن وهى ممسكة « بالبرن » ، لكم تحدثها نفسها أن تترك أفراد الكتيبة وتجري . . وتجري بكل ما وهبها الله من قوة ، ثم تزحف إلى حيث يقبع ثعالب اليهود فى خنادق محكمة يسمونها « الدشمة » ، ثم تصب نيران مدفعها فى ثغرات تلك الدشم ومنافذها وتقضى على وكر الثعالب . . لكن ما الحيلة وقائدها حريص حتى توشك أن تتهمه بالتردد ، يريد أن يدرس كل الاحتمالات حتى لتكاد أن ترميه بالخذلقة وتضييع الوقت ؟ . لكنها أدركت أن المسألة ليست مجرد حياة أو موت ، بل هى فى نفس الوقت أمر انتصار أو هزيمة ، وهى الآن فى حرب ضمن مجموعة من الجنود يفكرون ليحققوا أعظم الانتصارات بأقل الخسائر ، ثم إن عليها الطاعة وعدم التمور .

قال القائد القصير ذو اللحية السوداء :

- « عندى فكرة . . »

فتطلعوا إليه باهتمام ، وأعطته « نجلاء » ، كل سمعها وبصرها وكيانها ،

وحدست أن هذا الرجل يوثق به ، وأنه لاشك سيأتى بأفكار رائعة ، واستطرد القائد :

- « سنهاجم الموقع ع ش من الخلف . . »

قالت « نجلاء » :

- « كيف ؟؟ »

جلس القائد على الرمال ، وحاول أن يرسم خريطة للموقع اليهودى المواجه ، ثم قال :

- « يجب ألا نتحرك من هنا إلى الموقع ع ش مباشرة . . »

لأننا لو فعلنا ذلك سهل اقتناصنا ، وهذا الميدان المكشوف هو الجهة الوحيدة التى يؤمن اليهود أنه لا يأتى هجوم إلا منها ، لأنهم لا يصدقون أن يأتى أحد من خلفهم حيث الاتصالات والدوريات مستمرة بينهم وبين مواقعهم الخلفية ، لهذا أرى أن ننقسم إلى مجموعتين واحدة تتجه إلى يمين الموقع ع ش ، ثم تقوم بحركة التفاف حوله حتى تبلغ نقطة خلفه ، ويلاحظ أن تمر هذه المجموعة حول الموقع على بعد معقول بحيث لا تقترب منه فيضيع تدبيرنا إذا مارأوها ، أو تبعد كثيراً فيصيبها التعب أو تقع فى كمين موقع إسرائيلى مجاور . . هذه الخطة لن تكلفنا سوى قطع مسافة أكبر على الأقدام ، ووقتاً أطول ، لكنها ستكون ذات نتيجة حاسمة بإذن الله . . »

وابتسمت « نجلاء » لأول مرة فى نشوة ، لشدة ما تسحرها تلك

- ٩٨ -

الأفكار النيرة الوائية ، لو كان كل الرجال في المعركة على هذا النمط فسيكون النصر أكيداً لا محالة ، لكن خميس أفسد عليها استمتاعها حينما سمعته يقول :

- « لكن قد يتصادف وتكون هناك دورية صهيونية في طريقها إلى الموقع آنذاك . . . »

فقال القائد ببساطة :

- « جاز جداً . . . »

فقالت « نجلاء » في حدة :

- « إن « خميس » يحاول تعقيد كل شيء . . . »
فقال القائد :

- « كلا يا عزيزتي إنه اعتراض وجيه . . . »

- « إذن لن ننفذ الخطة ، وسنضيع وقتنا في المناقشات . . . »

كان صالح يقف إلى جوارها ، ونظر إلى وجهها الشاحب المنفعل ، وشفيتها المزمومتين ، وعينيها الحزينتين الغاضبتين ، وأنفها الدقيق المتناسق ، واستدارت وجهها الذي يزيد الشال الملفوف استدارة ، ثم قال :

- « صبراً يا أخت . . . سنصل في النهاية إلى عمل ترضين عنه . . . »

لا تنسى أن قائدنا قال : يجب المحافظة على حياتنا دائماً لا جيناً من

— ٩٩ —

الموت ، ولكن من أجل امتداد المعركة والحصول على النصر
بأدنى الخسائر . . . ،

والتفتت إليه عازمة أن تقهر منطقته ، لكن الصدق الذى خالط
نبراته ، والوداعة التى ارتسمت على ملامحه منعتهما من الكلام ،
وأسرع القائد قائلاً :

— « إذا حدث وتصادف مرور دورية فى هذا الوقت خلف
الموقع ، فعلى المهاجمين أن ينتظروا حتى تتوارى أو تنضم إلى قوات
الموقع ع ش ، ثم نبدأ المعركة ، وعلى العموم لن نبدأ المعركة إلا إذا
وصلت مجموعتنا الثانية من الجهة الأخرى المقابلة .. »

هز « خميس » رأسه قائلاً :

— « كلام .. سليم .. »

* * *

أخذ القائد معه ثلاثة أفراد ، وكانت « نجلاء » ثالثتهم ، وقاد
خميس شاهين المجموعة الثانية يرافقه صالح بدران ونادر ، وتصافح
الجميع ، ثم افترقوا كل فى طريقه ، وسار القائد فى مقدمة مجموعته ،
كان الظلام دامساً ، وذئاب تعوى من بعيد ، ورأس « نجلاء » يدور
بآلاف الذكريات والأفكار والآمال ، كلها متداخلة غير محددة
تماماً كالأفق الأسود الذى يبسط وشاحه القاتم على العالم الممتد

— ١٠٠ —

الفسيح ، لم يعد الجو حاراً ، لكن قطرات العرق كانت تتراس على جبينها الناصع كحبات الخرز الصغيرة ، وساقاها النحيلتان تغوصان في الرمال أحيانا كثيرة ، لكنها لم تكن قد شعرت بالتعب بعد ، وعادت إلى ذاكرتها صورة « الميجور » الصهيوني الذي مزق قميص نومها ، وأخياها الذي أفرغ فيه رصاصاته ثم قتلوه ، وأفراد أسرتها الذين واجهوا الحائط ، ثم دهمهم الرصاص من الخلف ، والليله السوداء . ليلة المخدر الذي حقنوه في جسدها ليسرقوا شيئاً عزيزاً غالباً .. آه .. ما أقسى الحياة .. لكم تمت الموت في هذه اللحظات .

وصحت من أحلامها على صوت القائد يقول :

— « على الرغم من أن هذه الأرض أرض الأنبياء والروحانيات إلا أنها شهدت معارك مريرة ، وسالت عليها الدماء غزيرة .. مصير الرومان تحدد هنا .. ومصير التتار وكذلك الصليبيين الذي تحطمت آمالهم على هذه الصخور السماء .. ومعارك الحرب العالمية الأولى وثورات العرب ضد الترك .. أليس غريباً أن تكون أرض الأنبياء بحيرة للدماء على حقب التاريخ ؟؟ »

قالت « نجلاء » وهي تفكر بامعان :

— « حماقة الانسان .. لو كان منصفاً لقبّل ثرى هذه الأرض المقدسة .. لكن الأطماع دائماً تلوث المقدسات .. »

قال القائد وهو يغز السير : —

- ١٠١ -

- ولذا نحن هنا للحفاظ على هذه المقدسات .. ثم إن إعطاء
الباغى درساً قاسياً أمر لا بد منه حتى تستقيم أمور الحياة .. ،

وبعد فترة صمت قالت « نجلاء » :

- « أتعرف حائط المبكى ؟ . »

- « لقد زرتة فى القدس .. »

- « كنت صغيرة ، وفى أحد أعياد اليهود رأيت بعضاً منهم
يتزاحمون جوار الحائط ويبكون .. قلت لأبى لماذا يبكون ؟ قال
إنهم يبكون هنا كل عام .. لذا سمي حائط المبكى .. هم يبكون مجدهم
الغابر ، وملكهم الزائل .. وإن تجف دموعهم حتى تتحقق أحلامهم
وأرى يا أبتى أنهم سيبكون أبداً الدهر لأنهم يبكون الوهم والأحلام ،
قال القائد : -

- « أعرف ذلك ، لكن ما مناسبة هذا الكلام ؟ . »

- « إن مما يغىظنى أن كل إنسان - مهما كان ظالماً - يعتبر
نفسه صاحب حق ، كثيراً ما يخدع الإنسان نفسه ، حتى اللص
الذى يسرق يعتبر نفسه صاحب حق فى مال الأغنياء .. »

- « لكن الأمر بسيط .. إن الحكم الموضوعى العادل ينفي
كل شك .. فمن العدل أن يفهم اللص أنه بدلاً من أن يسرق يجب
أن يسعى ويجد ، ويكون لنفسه ثروة .. أما أن يسرق لئلا كل فهذا
انحراف صريح .. يجب أن يكدح لئلا كل ولا يسرق لئلا كل .. وفى

— ١٠٢ —

خيرات الأرض متسع للجميع .. مثلاً .. كان اليهود يعيشون هنا
كمواطنين شأنهم شأن المسلمين والمسيحيين واللاذنيين ، ولكن الطمع
والاثرة دفعتهم للانانية واغتصاب أرض العرب .. لو حاول كل
أتباع دين في كل دولة من الدول أن يستقلوا بوطن ، ولو تطور
الأمر ، وفكر أصحاب كل مذهب في الدين الواحد أن يستقلوا
بدولة ، لتحول العالم إلى مجموعات صغيرة مزقة متحاربة تماماً كالعهود
القبلية ، حيث كانت القبائل تتحارب من أجل الآبار والكلا
واتساع الرقعة .. إنها حماقة كبرى يا عزيزى وواجب العقلاء أن
يقضوا على هذه الحماقات .. »

قالت « نجلاء » وقد تشربت نبراتها بالبكاء :

— « حق ما تقول .. كلما تساءلت لماذا قتل أهلى على تلك
الصورة البشعة ، ولماذا عاملوني تلك المعاملة الوحشية ، تدور الأرض
بى ولا أجد سبباً معقولاً اللهم إلا شراة الإنسان وحقارته .. »
وعاد الصمت يغلف المكان ، لم يعد يُسمع غير وقع الأقدام
التي تضرب الأرض ضربات مكتومة ، والأنفاس اللاهثة من جراء
الخطوات العجلى ، والانفعال المستولى عليهم .. وقطع القائد
الصمت قائلاً :-

— « ترى كيف حال رفاقنا الآن فى الجهة الأخرى .. »

قالت « نجلاء » :

- ١٠٣ -

- « لا شك أنهم بخير ... »

- « الله معهم »

- « أرجو ذلك .. »

وامتد بصرها عبر الظلمة ، ثم همست : -

- « تواجهنا هضبة صغيرة ... »

- « هذا عظيم .. أنك ترين الأشياء بقدر من الوضوح في

الظلام .. عيون قطة يقظة .. »

ولدى حافة الهضبة توقف الأربعة ، وأخرج القائد من جيبه

بوصلة ثم قرّبها من عينيه ، وقال لنجلاء : « انظري معي .. » وبعد

فترة تأمل ومناقشة قال :

- « نحن في الجنوب الشرقي من الموقع على بعد ثلاثة أميال .. »

قالت «نجلاء» : -

- الطريق طويل وشاق .. »

فأجاب القائد : -

- « أجل .. لكننا سنصل بإذن الله .. »

- « أعتقد أننا سنستولي على الموقع ؟؟ »

- « ولم لا ؟؟ كل شيء جائز .. ليس أول موقع نستولي

عليه ولا هو آخر المواقع .. قد نفرح لاحتلاله ، وقد نحزن إذا

— ١٠٤ —

ما فشلنا ، لكننا كلها انفعالات طارئة سرعان ما تذوب بمرور الوقت .. الذى يهمنا هو النتيجة النهائية .. »

— « أجل .. »

وأخيراً تلاقى المجموعتان خلف الموقع ع ش ، لم يكن يفصلهم عنه سوى نصف كيلو متر ، وانتظروا قليلاً حتى استردوا أنفاسهم اللاهثة . وقاسوا المكان بنظراتهم الكليّة حتى يحدها الظلام وطبيعة الأرض المتعرجة ، ثم قال القائد فى هدوء :-

— « على القطة أن تسدد نظراتها أمام وخلف .. هل ترين شيئاً .. أو تسمعين حركة ؟؟ .. »

قالت رابطة الجأش :

— « كل شيء هادىء تماماً .. »

— « حسناً ، سنهاجم الموقع زاحفين على هيئة نصف دائرة أو أكبر من نصف دائرة بقليل .. أتم تعرفون بناء « الدشمة » وتصميمها .. ليس هناك طريقة للقضاء عليهم سوى وضع أصابع الديناميت المشتعلة والقنابل شديدة الانفجار فى ثغرات « الدشمة » إنها الوسيلة الأكيدة لإتلاف الرجال والعتاد الذى معهم .. ثم المباغتة ستقضى على كل مقاومة .. »

— ١٠٥ —

وتفرقوا على هيئة نصف دائرة يفصل بعضهم من بعض مسافات كافية ، في هذه اللحظات الحاسمة حيث الخطر ، نسي كل منهم جميع مشاغله حتى نفسه نفسها ، لم يعودوا يذكرون سوى المهمة الملقاة على عاتقهم ، لكن « خميس » طرأت في ذهنه فكرة وسرعان ما ترك مكانه وأسرع نحو القائد قائلاً في همس :

— أرى أنه لا بد أن يهاجم أحدنا الموقع من الأمام أنهم لا شك سيوجهون رصاصهم نحوه إذا ما اكتشفوا الأمر ، عندئذ سيكون كل اهتمامهم منصباً نحو الجهة الأمامية وهي الجهة التي يتوقعون أن يأتي الخطر من ناحيتها ، وبهذا تنكشف ظهورهم تماماً ... »

وشد القائد على يد « خميس » في حماس قائلاً :

— « عين الصواب .. فلاذهب أنا ... »

— « كلا ، لتبق كما أنت ، وسأقوم بتنفيذ فكرتي ، وسأعرف

كيف أفلت من رصاصهم ... »

شد القائد على يده في حماس وقال :

— « على بركة الله ... »

وإزداد اقترابهم من الموقع ، وجماعة انصببت النيران من الدشم ، لكنها كانت في الاتجاه الأمامي ، ورأى « خميس » أن خطته قد نجحت إذ وجه الأنظار إليه ، وبداله أن التقدم بالنسبة له انتحار

(٢ — أرض الأنبياء)

— ١٠٦ —

أكبر ، لهذا بحث لنفسه عن ساتر واختبأ خلفه ، ثم اكتفى بأن ظل يطلق نيران مدفعه من آن لآن حتى يظل جاذباً أنظارهم نحوه ، دون أن يطمع في أكثر من ذلك . . كانت النيران الصهيونية تُقذف بجنون ، وبقي الأمر هكذا بضع دقائق ، وجماعة دوسى انفجار مريع ، تبعته بعض الصرخات الهالعة ، وكفت على أثره نيران العدو . . ثم انفجار ثان وثالث . . وهمس القائد :

— « أحسنت صنعاً يا نجلاء . . لقد أسقطت المتفجرات

في سرعة ودقة غريبة . . » وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى . . »
ثم التفت إلى الرجال « ونجلاء » قائلاً :

— « انتظروا . . سوف أتقدم وأحاول دخول الدشمة . .

خذوا هذا المدفع . . يكفي مسدس . . »

عندما بلغ الدشمة ، سمع أنيناً خافتاً . فهتف بصوت أجش :

— سلموا أنفسكم . . لن تصابوا بسوء . . »

فتحول الأنين الخافت إلى استغاثة ضارعة :

— « أنا مصاب . . لا أستطيع الحركة . . »

— « أين الطريق إلى الدشمة . . »

— « ارفع الغطاء الحجري . . وادخل . . »

— « إني أحذرك من أى تصرف أحمق أنت ورفاقك . . إن

معى مجموعة كبيرة من الرجال ، واستعدادات هائلة . . »

« تقدم .. الرفاق ماتوا جميعاً .. وأنا أكاد أموت ..
أنقذنى .. »

رفع القائد الغطاء الحجري . ونظر عبر الدهليز المعتم فلم يستطع أن يرى شيئاً ، واصطدم أنفه برائحة الدم والدخان والاحتراق ، فأخرج من جيبه كشافاً صغيراً وأرسل نوره عبر السرداب .. فرأى الأرض وجزء من الدشمة .. وعول على أن يثب داخلها بسرعة فإذا ما بلغت قدماه الأرض ، كان عليه أن يتحول عن موضعه بسرعة حتى لا يعطى فرصة لحركة غادرة تؤدي به .. لا بد أن يدخل الدشمة مهما كانت التضحية .. وتصرف بلباقة ومرونة وما كاد يصل أرض الدشمة حتى وثب في اتجاه آخر وهو يضيء نور الكشاف يد ، والمسدس في اليد الأخرى ، حركة سريعة لم تستغرق لحظات ، ولا يدري متى ولا كيف انطلقت رصاصة أصابت زراعته اليسرى ، فعاجل الجاني بعدد من الطلقات حتى قضى عليه .. كان الدم ينزف من جرح سطحي في ذراعته ولكنه لم يكن يشعر بأى ألم بعد .. وجاس بنظراته خلال الحجرة الصغيرة آثار احتراق هنا وهناك .. ومدافع ومسدسات ومهمات لم تنزل تحترق .. وخمسة من الرجال .. خمسة فقط لكنهم ممزقين .. واتخذ وضع التحفز والاستعداد حينما هبط عليه ثقل من أعلى .

« لا تخف ، رأيت أن أتبعك بعد أن سمعت طلقات الرصاص .. »

« نجلاء ؟ »

- ١٠٨ -

لم تكدر تمر دقائق معدودة حتى كان كل شيء هادئ تماماً ،
وتم الاستيلاء على الموقع ، ش حسب أوامر القيادة ، وعندما
اجتمعوا عندالموقع ، تساءل القائد : « أين « خميس ، شاهين ؟؟ » ،
فجاءه صوت على مقربة : « قادم إليك . . أنا بخير . . »
وغمغم القائد :

— « نحمد الله على أن وصلنا إلى هذه النتيجة المشرفة في وقت
قصير وبلا ضحايا . . »
قال صالح بدران :

— « لم تكن شجاعتنا وحدها هي السبب ، بل التفكير السليم
والخطط البارعة . . »
قال القائد : « وتوفيق الله . . »
ثم استطرد القائد :

— « عشرات . . بل ألوف يفعلون الآن ما نفعل . . نفس
التضحيات والبسالة من أجل تصحيح القيم الخاطئة ، والموازن
المقلوبة . . لكن تذكروا ياإخواني ، إنه ليس دائماً أن نرجع من
المعارك بلا خسائر . . دائماً يموت رجال شجعان في ميادين الشرف
ولا يقلون عنكم خبرة وذكاء وبطولة . إنها مشيئة الله . . »
مرة ثانية يقول «نادر» وهو يهز رأسه في حركات تمثيلية مضحكة :

— ١٠٩ —

— « نحمد الله ، ثم يردف القائد :

— « ليس المهم أن نستولى على الموقع ونظهره ، بل الأهم أن نحافظ عليه ، وأن نقضى على جيوب العدوان المجاورة ، إن ما فعلناه أمر مهل ميسور . . . »

وشرب الرجال الماء ، وجلسوا يستريحون . لكن « نجلاء ، انفجرت باكياً ، ثم أخذت شهقاتها المتلاحقة تنهاى إلى أسماعهم مكلومة دامية ، فاقرب منها صالح بدران :-

— « ما الذى يبكيك يا أخت ؟ . . »

قال القائد باسمًا :-

— « دعوها تنفث عن نفسها ، لقد قامت بعملها على خير وجه . . »
وتغضن جبين صالح أسى ، وشعر بالخرج وهو يقف إلى جوارها ، لكنه على الرغم من ذلك استمر يقول :

— « يجب أن تسعدى بهذا النصر . . »

— « أنا لا أدري لماذا أبكى . إننى أخجل من نفسى . . معذرة
أيها الإخوان . . ساحونى . . لن أفعلمها مرة ثانية . . »

ثم جففت دموعها ، وعادت إلى الرجال المتجمعين حول قائدهم
ثم قال القائد :

- ١١٠ -

« يجب أن تنامى ساعتين ، وعند الفجر أتجهى نحو موقعنا القديم ، سيفد إليك فى الصباح مجموعة من الرجال ويقولون لك : أتينا للمرابطة فى الموقع س . ب قناصة ، احملى إليهم نتيجة المعركة وتلقى من عندهم أنباء وأوامر ثم عودى إلينا .. أعرف أنك متعبة لكنك لاشك سعيدة .. »

وابتسمت « نجلاء » هذه المرة وقالت :

« أشكرك .. سمعاً وطاعة .. »



الفصل الحادى عشر

خرج « خميس شاهين » من الموقع ء ش قاصداً الكهف القديم
 س . ب قناسة ، ومن الموقع الأخير ركب عربة « جيب » ، ليقوم
 ببعض المهام التى كلفه بها قائده ، كان عليه أن يجمع عشرة من
 المتطوعين الأشداء ، وأن يقوم بتدريبهم فى مكان أمين ، ثم يعود
 بهم ومعه بعض المؤن والذخائر والأخبار التى سيدتحركون على
 ضوئها ، وقصد لتوّه القرية التى لجأ إليها مع إخوانه المهاجرين
 منذ أيام ، كان يخترق المسارب الغير مطروقة ، ويصعد ويهبط عبر
 الطرق المتعرجة تحت حر الشمس اللافتح ، ورأى بعينيه الطرق
 التى تعج باللاجئين من جميع الجهات أطفالا ونساء ورجالا ، إن
 بنى قومه يهيمون على وجوههم فى الطرقات ، بعد أن فقدوا الأمن
 وساد حياتهم الارتباك الخيف ، ومن آن لآخر يرى معسكراً
 للفدائيين يزاولون أعمالهم فى صمت عاصف ، وأحيانا أخرى يرى
 قرى صغيرة مهجورة فقدت الحركة والحياة ، وحقولا واسعة قد
 تلف الزرع فيها أو جفت عيدانه ، وأشجار الفاكهة مثقلة بالثمار
 التى تتعفن وتتساقط . وشعر « خميس » بأحزان قاسية تعمل فى قلبه
 الرقيق ، ما أعجبه ! فى المعركة ، ووسط جماهير شعبه المشرد ،
 يشعر أنه مسئول وقائد ، وهذا الشعور يحوله تماما إلى رجل قوى

الشكيمة منقائل إلى أبعد حدود التفاؤل ، لا يعرف الحزن ولا اليأس ، فإذا ما آب إلى نفسه ، ورأى المصير التعس الذي حاق بشعبه ، تدفقت في قلبه دموع لا ترى ، وهاجمته آلام مبرحة ، واستبدت به خواطر مزعجة ؛ ترى ماذا يكون موقفه إذا ما سارت الأمور على غير ما يهوى ، واستطاع الطغاة أن ينفذوا مخططاتهم الغاشم ، ويضربوا مقدسات شعبه في الصميم ؟

وحينما بلغ خميس شاهين ، القرية قصد لتوه بيت حاكمها الذي استقبله استقبالاً طيباً ، وأفسح له عنده مكاناً ، وبعد أن استراح قليلاً وتخفف من بعض ملابسه العسكرية ، أخذ يشرح له السبب الذي جاء من أجله والأشياء التي تلزمه ، ثم تشعب الحديث بهما عن المعركة وتطوراتها . قال رجل القرية الأكبر :

« أقسمنا جميعاً ألا نغادر هذا المكان أحياء .. سنقاوم العدو حتى النهاية ، وإذا ماداهم قرينتنا فلن نخليها له بأى حال من الأحوال ، خير لنا أن ندفن هنا من أن نهرب أحياء إلى أى مكان آخر ؛ نحن لا نرضى العار يا بنى .. كلما رأيت اللاجئين في أسماهم وتعاستهم وخطواتهم الكيلة أحسست بمرارة قاتلة . لن أكون لاجئاً وأنا صاحب الأرض والدار ، ويوم يضطروننى لفعل ذلك فسأفضل الموت .. »

قال « خميس » فى اقتضاب :

- ١١٣ -

« هذه روح طيبة . . »

والتفت إليه الرجل في انفعال وقال :

« إن ما أقوله ليس مجرد تنفيذ عن أفعال طارئ . . إنه شعور حقيقي جاء بعد روية وتفكير . . لقد تحولت قريتنا إلى معسكر للتدريب ، كلنا يجيد استعمال السلاح الآن حتى النساء ، وسنكون على أهبة المعركة دائماً . . »
قال « خميس » في حماسة :

« لو تحولت فلسطين كلها إلى معسكر كبير ، واستطاعت أن تحصل على السلاح لما استطاع العدو أن يتقدم شبراً واحداً بل لما استطاع الحفاظ على مواقعه التي استولى عليها غدرأ . . »

« هو ذاك يا بني . . بعد أن تستريح ، ستري بنفسك أما كن التدريب ، والحركة الدائبة ، والإصرار على المقاومة حتى النهاية . . »
واستطاع « خميس » أثناء ذلك ، أن يقرأ بعض الصحف الصادرة في دمشق وعمان والقاهرة ، كما سمع من الرجل بعض التفاصيل ، وعلم أن الجيش المصري في القطاع الجنوبي والجنوبي الشرقي استطاع أن يتقدم بسرعة مذهلة ، ويطوق كثيراً من المستعمرات والمواقع اليهودية ، وأن يقضى عليها قضاء تاماً ، وأن يشير الارتباك في خطط العدو ، ويقطع خطوط تموينه ، وخاصة أن الطائرات المصرية قد أقدمت على مغامرات بطولية فوق الخيال ، بل إنها تهاجم « تل

أبيب ، نفسها ، وتثير في شوارعها الذعر والقلق ، كما علم « خميس » أن القطاع الشرقي الذي تعمل فيه القوات الأردنية متطوعين وعسكريين نظاميين ، قد خطا خطوات موفقة بعد أن عبر الحدود ، وعلى الرغم من إعجابه بهذه الانتصارات إلا أنه لم يكن مرتاحاً تماماً للجبهة الأردنية ، ولم يكن هذا خافياً على صاحب البيت الذي قال :

« إن ما يزعمني حقاً هو أن أثق في جيش يقوده « جنرال »

انجليزى يدعى « جلوب باشا » . . .

قال « خميس » حازقاً :

« إنها مهزلة »

فرد الرجل وهو يدق المنضدة بقبضته المتشنجة :

« أمن المعقول أن يكون « جلوب » الانجليزى أخلص

للعرب من بنى قومه الانجليز أصحاب الفضل الأول فى إنشاء إسرائيل ؟؟ »

« مستحيل . . . مستحيل . . . »

« صدقنى يا بنى . . . إن المعركة فيها كثير من الأخطاء . . .

فباسم وحدة الصف العربى نجبن عن الصراحة ، وتسمية الأشياء بأسمائها ، إننا نجامل ملك الأردن حتى لا يحدث تصدع فى جبهتنا ، وجميعنا يعلم أن جيش الأردن قيادته إنجليزية وميزانته إنجليزية ، وأبناؤه الأصلاء الذين يحترقون فى المعركة لا يدرون بما قد يدبر

- ١١٥ -

لهم في الخفاء ، ولا يستطيعون أن يوجهوا أى نقد أو اعتراض ،
قال « خميس » فى أسف :

— « يبدو لى أنه ليس من الحكمة أن نفتح جبهات متعددة ،
كأن نحاول إصلاح الوضع فى الجيش الأردنى فى الوقت الذى
تخدم فيه المعركة على أرض فلسطين ، وإن معنى ذلك تشتيت
الجهود ، وتعميق أوجه الخلاف بين الدول العربية ، وهذا يخدم
الصهيونية أجل الخدمات . . إن تقدم الجيش المصرى هذا
التقدم الموفق السريع ، والانتصارات الرائعة التى يحققها الجيش
العربى السورى عند الجبهة السورية ، والجهود الأكبر الذى يؤديه
الفدائيون الوافدون من أنحاء العالم العربى ، كل هذا قد يغتفر الهنات
الصغيرة ، ويقضى على المخاوف التى يثيرها الوضع الراهن فى الجبهة
الأردنية . . »

وأطبق الصمت ، كان كل منهما يشرد بأفكاره بعيداً ، هناك
حيث المعارك الدامية ، والصراع الرهيب ، وهناك فى العواصم
العربية حيث يحاول الاستعمار بماله من نفوذ ودهاء أن يصيب
المعركة بالتميع ، ويثبط من روح الثورة الشعبية المتدفقة كالسيل
الجارف . وغمغم الشيخ فى مرارة :

— « يا للعار . . الشعب المشرد الذى ظل يبكى أحلامه لدى حائط
المبكى منذ آلاف السنين . . يقمقه اليوم فى سخرية . . »

— « ستقلب قهقهاته بإذن الله إلى عويل واستغاثة . . . »

— يا ليت يا ولدي . . . إن جيلنا يحمل تبعه ضخمة . . .
 لكن ثق يا بني أن المعركة طويلة المدى .. ولكنها أيضاً استشعل
 النار في أرجاء العالم العربي ، ومن لم يستيقظ من نومه سيحترق .
 وعند ما يشرق فجر اليقظة العربية ، ويتقدم الصفوف رجل عربي
 صميم ، وقائد مخلص ملهم . فسيجمع ملايين العرب من حوله
 ويجمعهم على هدف واحد وقلب واحد . . . عندئذ تستطيع
 أن تقول أن القضية الفلسطينية قد حلت على وجه يرضى العدالة
 ويحفظ لنا شرفنا وأجادنا ومعتقداتنا . . . »

ترعرع الأمل في قلب « خميس » ، وأطربته هذه الكلمات السحرية
 ووجد فيها المنطق السليم ، والتفكير العاقل الواقعي ، على الرغم
 مما وشاها من جمال الأحلام ، وروعة المنى ، وقال « خميس » : —

— « كل ما يجب الآن هو أن تستمر المعركة . . . إن يموت
 شعب بهذا الإصرار وهذه الروح العالية . . . لأن الحق
 لا يموت . . . »

* * *

طاف « خميس » بأنحاء القرية ، وأطمأن على سير الأمور سيراً
 طيباً ، بعد أن رأى حركة التدريب والإصرار على المقاومة ،
 واستطاع أن ينتقى عشرة من الرجال الأشداء الذين قطعوا مرحلة

كبيرة في مجال الاستعداد والتدريب ، كما استطاع أن يملأ العربية « الجيب » بما أحتاج إليه من مؤن وذخائر ، كان يطلب كمية من الأطعمة فيأتون له بضعفها ، وكان يطلب أى شيء فيكون طلبه أمراً واجب التنفيذ ، وأسعده أن يرى روح التعاون تسود الجميع وعند مروره بأحد مساجد القرية سأل عن مصير اللاجئين الذين حطوا رحالهم بالقرية منذ وقت مضى ، فقال له الرجل :

— « لقد وصلوا السير صوب الشرق . . . وأظنهم بلغوا مدينة « القدس » . . . ثم أن أفواجا أخرى من اللاجئين أتت من نواح متعددة ، وأقامت بعض الوقت ثم رحلت بدورها . . . » وقضى « خميس » بالقرية ثلاثة أيام ، أدى مهمته خلالها على أتم وجه ، وفي اليوم الأخير ، جاءه أحد أصدقائه القدماء وقدم إليه خطاباً . . .

شاع الخجل في حركاته ، وتشربت وجنتاه بالحمرة ، وتحول الأسد الشرس عند المعمارك إلى شاب وديع ، تترامى في عينيه الصافيتين الرقة والحب والحنان ، وفض الغلاف بيد مرتعشة ، ونشر الورقة أمامه ، وفي ذيلها لمح اسم « ضحى » :

وخفق قلبه خفقات حلوة شجية ، وأغمض عينيه ليحلم بالوجه الوداع الحبيب ذى التقاطيع الفاتنة المتناسقة ، والنبرات التى تفيض شوقاً ووداً ، والنظرات الخجولة التى تحمل كل معنى رائع من

معانى الحب والوفاء ، وغمغم بينه وبين نفسه : « عندما يعود السلام
فسنعيش فى جنة وارفة الظلال ، وسنحاول أن ننسى أحزان الماضى
ومأسى الفرقة والضياع والقلق . . ستكون « ضحى » إلى جوارى
وسنسعى فى أرض حرة ، لنكسب رزقنا ، والزروع الخضراء
من حولنا ، والينابيع الصافية تتدفق بالفضة الذائبة ، ورائحة البرتقال
والليمون والتفاح تملأ خياشيمنا ، والسماء الزرقاء الصافية ذات
الشمس المشرقة من فوقنا . . سيكون كل شىء رائعاً وجميلاً ،
بلا انفجارات أو قتل أو حرائق ، أو زحف على الشوك والصخور
وكشبان الرمال تحت جناح الظلام الذى يكمن فيه الرعب والموت ..
أجل . . سوف نحيا كبشر شرفاء فى ظل الحرية والحب
والسلام . . آه ما أشد شوقى إليك . . يا ضحى . . يا حللى
الجميل . . »

كانت العيون ترمقه وهو شارد ذاهل . ونظراته القلقة تتردد
بين أسطر الخطاب الذى لم يقرأه بعد وبين السماء الممتدة إلى بعيد ،
ولم يخف عليهم ما شمله من انفعال . أياكون المحاربون الأشداء الذين
يعيشون بين الدم ورائحة البارود ، وَيُقْتَلُونَ وَيَقْتَلُونَ هم
أيضاً يمتلكون قلوباً رقيقة ، قلوباً تلين وتخضع للعواطف الإنسانية
العالية . . عواطف الحب والوفاء ؟؟

قرأ « خميس » هذا السؤال فى عيونهم . وتمنى فى هذه اللحظات

أن يكون صريحاً ، وأن يعلن أمامهم بملء فيه : إن المحاربين بشر .
 وأنهم يحبون كما يحب باقى النساء . إن الحرب أمر طارىء والسلام
 هو طبيعة الإنسان السوية . . لم يخلق الإنسان ليحارب أخاه
 الإنسان بل ليساعده ، ويحنو على جراحه ، ويأخذ بيده ، ويبعث
 فى قلبه دفء الحب والحنان . . لكن المنحرفين والمرضى والشواذ
 أصحاب النفوس المريضة ، هم الذين يميلون بناموس الحياة الوادعة ،
 ويحيلونها إلى جحيم وعدوان وجشع ، ومن ثم كان لا بد من تأديبهم ..
 إنها مأساة . . واللوم على صانعى المأساة . .

كان « خميس » يريد أن يقول هذا الكلام وأكثر منه ، لكنه
 آثر الصمت ، وطوى الخطاب مؤجلاً قراءته بعد حين ، وعاد قناع
 الصلابة والحزم يتخذ مكانه فوق ملامحه الصارمة ، وأخذ يواصل
 ما أنبت من حديث ، وإن كان طيف « صحفى » ظل يحوم فى خياله ،
 متشجحا بثوب رقيق أبيض يشبه إلى حد كبير ثوب الزفاف الجميل ..
 وفى المساء كان وحده ..

وأخرج الخطاب .. وأخذ يقرأ والعرق يتقاطر على جبينه الأبيض
 الذى لوحته شمس الصحراء القاسية . . « شقيق فلروح والفؤاد . .
 أكتب إليك من القدس حيث المسجد الأقصى وقبة الصخرة
 من المدينة العريقة ذات التاريخ والأجداد . . لكن صدقنى « يا خميس »
 إن المدينة تبدو فى نظرى كالرجل المريض المتهاك . . إنها مدينة
 تعيش الآن بلا رونق ، يزحم شوارعها لاجئون ممزقو الثياب ،

كسيرو النظرات ، كلهم يحسون بالغربة والهوان . . أقسم لك ، لقد مررت بشوارع المدينة ذات يوم قريب فلم أر إنساناً واحداً يتسم حتى لكأن الابتسام جريمة . . المدينة تعيش النكبة بكل مشاعرها برغم وصول بعض القوات الأردنية إليها ، وبرغم الذين يحرسونها من متطوعين وجنود نظاميين . . وقد أقيم خارج المدينة معسكر اللاجئين الذي احتشد فيه الآلاف . . وهكذا أصبحت أنا وأبي والصغير «وليد» نعيش في خيمة بالعراب بعد أن كان لنا بيت كبير يرفع هامته نحو السحب . . الخيام قيئة وكأنها مقسول ذليل ، يمد يده طالبا الإحسان في الطريق العام . . من الحماقة ألا يحقد الإنسان على من تسببوا في هذه النكبة !! وقد لاحظت يا عزيزي أن كثيراً من الأطفال يموتون في هذه الأيام . . فلا رعاية صحية ولا غذاء جيد ولا ابتسامات تملو الشفاه . . أشياء كثيرة تموت تحت بصرنا . . بل وفي أعماقنا . . أتذكر «ميمون» الذي قتلوه أمام أعيننا ؟؟ لاشك أنه أسعد حالاً منا . . لكن عبر الظلمات المدهمة تنطلق شرارات أمل . . الناس هنا ما زالوا يؤمنون بالله وبالحق الذي يناضلون من أجله . . كلما تذكرت أن «خميس» وآلاف من الرجال مثله مرابطون على سفوح الجبال ، وفي بطون الصحارى ، وعلى مشارف المدن والقرى والمستعمرات ؛ كلما تذكرت ذلك ازداد إيماني بالمستقبل . .

عزيزي «خميس» . .

معذرة إن كنت أقدم لك في أول خطاب لي تلك الصور القائمة

- ١٤١ -

التي تستدر الدموع ، وتثير النفس . فنحن لا نستطيع أن نزيغ الواقع المرير الذي نعيش فيه . . نحن نحى المأساة بكل عواطفنا وجوارحنا ، وواجب علينا أن نفعل ذلك ، وإحساسنا بالكارثة المروعة ، وبمبادئنا وتراثنا ووجودنا المهدد هي المنطلق إلى صنع شيء كبير يكتب لنا الخلاص والعود والحرية . .

عزيزى «خميس» . .

أمورنا تمضى حسبما أراد لها الله ، أبى رفض الإقامة الدائمة فى معسكر اللاجئين ، وقرر أن يفعل شيئاً إيجابياً ، وقد استطاع الحصول على عمل ، إنه الآن فى مؤخرة القوات المحاربة يساعد فى نقل المؤن والذخائر ، ويملاً النفوس بالثقة والصبر والاستمرار فى النضال حتى النهاية ، إن إحساسه بأنه يودى عملاً ما قد ملأ قلبه بالرضا ، وجدد من نشاطه وقواه حتى ليخيل إليك إذا ما رأته أنه قد صغر عشر سنوات . . وأنا الأخرى كان لى موقف مشابه . . إن جو الخيمة التى ناوى إليها ليلاً ونهاراً قد بعث الضيق فى نفسى . . أشعر كأنى أعيش فى زنزانة سوداء . . لهذا نوترت أعصابى ، وأيقنت أنى على وشك الانهيار . . إن الطاقة الحبيسة المتمردة فى داخلى تكاد تقتلنى وتحطمنى . . أريد أن أنطلق ، وفكرت وسرعان ما اهتديت إلى حل . . فى صبيحة يوم مشرق قصدت من فورى إلى مركز من مراكز الإسعاف بمدينة القدس القديمة ، وهذا (٨ — أرض الأنبياء)

- ١١٢ -

المركز يستقبل عديداً من جرحى الميدان كل يوم ، وطلبت من المختص بأمور المركز قبولى فى هيئة التمريض . . وبعد فترة وجيزة استطعت أن أجيد هذا الفن ، أحسست أنى أفعل شيئاً ما يناصر معركتنا . . إن كل جريح أنظر فى وجهه أرى فيه سمات « خميس » ورجولته وشجاعته . . إننى أبش فى وجوههم ، وأضمد جراحهم ، وأسهر الليل إلى جوارهم وأنا فى منتهى السعادة . . إنهم يحاولون أن يدمروا الحياة ونحن نحاول أن نقاوم عوامل الفناء ، ونصنع الحياة من جديد ، فالمعتدون أغبياء بحق السماء . . كلما تصورتك ممسكاً بسلاحك وأنا ممسكة بمبضعى ، أيقنت أننا نخوض معركة واحدة . . أعنى زملاء كفاح . . أليس هذا رائعاً ؟ ؟ أما « وليد » الصغير ، فهو دائب على تعلم القراءة والكتابة ، لكن الصغير ينشأ فى جور هيب ، لا يسمع غير كلمات الرعب : « الحرب . . الموت . . القتلى . . اليهود . . الغارات . . » . . إنه قد أصبح صامتاً شاردأ تبدو عليه سيما التفكير ، وكأنه رجل عجوز . . وكلما جاء ذكرك بيننا يشرق وجهه ، ويطلب منا أن نأخذه إليك . .

« أبو نجلاء » أفاق من صدمته ، والتأمت جراحه ، لكن الرجل أصبح محطماً ، إن إضافة ستين عاماً - وهى عمره - إلى ما شهده من أرزاء كفيلة بأن تحطم الجبال . . وفى كل صباح يقصد الرجل المسجد الأقصى ، ويقضى اليوم بطوله هناك ، ثم يعود فى المساء ، ولسانه لا يفتر عن قراءة القرآن والتسبيح لله . .

- ١٢٣ -

« خميس » ..

ماذا بقي ؟؟

كلمة واحدة ، هي إنني « أحبك » .. لماذا ؟؟ لأنك رجل تتمثل
فيك أحلام أمة تأتي أن يقهرها الطغيان ، ولأنك تشق الطريق
مع رجال أفذاذ لا يرجون من الناس جزاءً ولا شكوراً .. أنتم
ملائكة في عالم من الأبالسة .. فليحرسكم الله ، وليكتب لكم
النصر .. وسأنتظر يوم العودة المظفرة على أحر من الجمر ..

« ضحى » ..



الفصل الثاني عشر

كان « نادر » ذا طابع خاص بين الرجال السبعة في الموقع ، ش من رجال كتيبة عمر بن الخطاب ، ولم يكن يعيبه غير نخافة مفرطة بالإضافة إلى عوده الفارع ، كما كان في حركاته بطء ملحوظ ، وغير قليل من الكسل يغطيه بالنكات والمرح ، ولم يضايق هذا الوضع قائده كثيراً ، إذ المفروض أن الرجال ليسوا على وتيرة واحدة ، ولم يفت القائد أن « نادر » ابن لثري من أثرياء « حيفاء » الكبار ، ويبدو أن حياة الرفاهية والنعيم قد طبيعته بهذا الطابع من التراخي والكسل ، لكن المعركة كفيلة بأن تقلب حياته رأساً على عقب ، وتحيل رفته إلى خشونة ، ورفاهيته إلى تقشف ، لكن الأمر الذي ضايق القائد بعض الشيء هو أن « نادر » لا يأتي الصلاة إلا قليلاً ، قد يكون هذا أمراً بسيطاً ، لكنه كان بالنسبة للقائد المتدين ورفاقه الحريصين على إقامة الشعائر شيئاً غير مقبول ..

ولم يكن صالح بدران يرتاح إليه كثيراً ، وخاصة منذ أن أتت « نجلاء » ، فقد لاحظ أن « نادر » يلجأ إليها بمناسبة وبغير مناسبة . ويناقشها في أمور تافهة ، ويطيل النقاش معها دون حاجة ظاهرة إلى ذلك ، وصالح ليس ساذجاً ، فقد رأى في عيني « نادر » ونظراته رغبة ، لم يستطع أن يقنع نفسه بأنها مجرد عاطفة بريئة بين أخ وأخته ،

لكن انشغال الجميع .. وصالح معهم .. بالأمور الكبرى التي تتعلق بتطورات المعركة ، ومصيرهم هم ، لم يعط الصورة الملحوظة أهمية تذكر ، ومع ذلك فإن صالح أرغم نفسه على قبول الوضع ، وحاول أن ينفي الشكوك عن قلبه ، ولخير له أن يتهم نفسه من أن يرمى أخاه في المعركة بالظن ، فبعض الظن إثم ، وواجب عليه أن يفترض حسن النية في الجميع ، ولهذا كنتم ما يثور في نفسه من انفعالات متشعبة بخصوص « نادر » ، وأغمض عينيه ومضى في طريقه ، لكن أيستطيع صالح أن ينتصر على شكوكه دائماً؟؟ هذا فوق طاقته كبشر. وذات ليلة - بعد أن انتهت نوبة صالح في الحراسة ، قصد لتوه إلى حيث ينام « نادر » ، وحاول إيقاظه ، لكنه كان يفتح عينيه ليغمضهما ، ويتحرك في رقدته ثم يسكن من جديد ، فإذا ما هزه تنثأب ثم عاد إلى وضعه الأول ، لم يحتمل صالح هذا التصرف في معركة ، وبين صفوف رجال فدائيين ، فأمسك كتفي « نادر » النحيلين بعد أن ألقى بسلاحه جانباً ، ثم هزه في عنف وجفاف وهو يقول:

« لا وقت للهذر والميوعة .. »

وفتح « نادر » عينيه ونظر إليه في دهشة :-

« ماذا تقول؟؟ »

« هيا بسرعة إلى نوبتك »

كانت عينا صالح تتقدان ثورة وغضباً ، ولولا الحياء لأهوى

- ١٢٧ -

بيدي على وجه زميله صفعاً ولكما ، ونظر « نادر » إليه في شيء من العناد وقال ببساطة :-

- « لا أستطيع .. إن رأسي مصدعة .. »

وفغر صالح فاه وقال :- « ماذا ؟؟ إنك تهذي .. ليس الصداع مرضاً هنا .. »

فقال « نادر » وهو يضغط على جبهته :-

- « ليس من المعقول أن يحرسكم في الليل رجل مشقت الذهن رأسه يكاد ينفجر .. هل فهمت ؟؟ »

ورأى « خميس شاهين » - وقد كان مضطجداً إلى جوارهما - أن المناقشة تنجبه وجهة لا تسر ، فتجامل على نفسه وهب واقفاً وهو يقول :

- « لا تقلقا .. سوف أحل محل « نادر » في نوبته .. إن أربع ساعات لن تعبني كثيراً .. »

وخجل صالح بعض الشيء من نفسه ، فمالك زمام نفسه ، وعاد يقول :

- « بل سأقوم أنا بنوبته .. وأبقيا كما أنتما .. »

- « إن بعض الأرق ينتابني ، فلا داعي مطلقاً لأن أظل مستلقياً هكذا دون نوم حقيقي .. »

وأصر كلاهما على أن يحل محله، وانتهى الأمر بأن سحب « خميس » شاهين ، صالح بدران ، وذهبا معاً إلى نوبة الحراسة . كان الليل ساجياً ، لكن ضوء القمر يكشف الطريق ، والليالي القمرية هي أقل الليالي اشتباهاً وصداماً وخطورة ، واتخذنا مأواهما في بطن كتلة صخرية مفتوحة من جهة واحدة تطل على المواقع اليهودية التي تتوارى بعيداً ، وبعد أن استقر بهما المقام ، وعاد الصمت يغلف المكان ، وأشباح لا وجود لها تتراقص عبر الليل الفضى ، ومخاوف مبهمة ترقص من حولهما ، همس « خميس » :-

- « نحن إخوة .. »

- « أعرف .. لكنه لا يطاق .. »

- « لتقبله على علاقته .. لكل منا سلوكه وطباعه .. »

- « لا مجال للتدليل هنا « يا خميس » .. »

- « وإذا لم تحن على أخيك في المعركة فمن يحنو عليه .. نحن

نواجه الموت كل يوم ، وهذا شيء فظيع في حد ذاته ، إنه يزلزل أعتى الرجال شجاعة .. »

- « نحن نعيش تحت نفس الظروف القاهرة .. »

- « لكن يا صالح مدى احتمال كل واحد منا يختلف عن الآخر .

ليس كل منا نقص أخيه ، وليأخذ بيده ، ليس المفروض أن نكون جميعاً على وتيرة واحدة ، والمثالية المطلقة خيال ، إننا نسعى إليها

ولكن لا نصالحها .. منا من يبلغ منتصف الطريق ، ومنا من يشرف على الكمال ، والبعض يقطع إليه مدى قصيراً .. لسنا ملائكة ، ولكننا بشر يعيشون في جحيم معركة قاسية .. هل تفهمنى؟؟ ،

قال صالح بصوت خفيض :

— « أجل .. لكن .. »

— « لكن ماذا؟؟ ألم تقرأ الحكمة القائلة .. ارحموا عزيز قوم ذل .. كان «نادر» يعيش في بجموحة من النعيم .. يمتلك عربة وعدداً من السيارات الكبيرة، أبوه كان أكبر الموردين للفاكة إلى القاهرة .. وانتهى كل شيء في غمضة عين ، هو لا يعرف أين أبوه .. فقدوا كل مالهم وضياعهم .. وفقدوا أيضاً وطنهم .. أصبحوا مشردين غرباء مثلي .. هذه كارثة أنت تدركها .. »

قال صالح في ألم :

— « أنا مؤمن بكل ماتقول .. لكن اعذرني .. إنى لا أرتاح كثيراً له ، لست أدري لماذا ، إنه شيء في القلب لا حيلة لي فيه ، ومع ذلك فسأحاول جاهداً أن أحبه .. »

وجأة أمسك « خميس » بمعصم « صالح » وقال بلمهجة حادة :

— « إنك تخفى شيئاً .. »

قال صالح وقد ارتعشت مفاصله :

— « ماذا تعنى؟؟ »

— « لنكن صرحاء .. »

— ١٣٠ —

وساد الصمت لدقيقة ثم قال « خميس ، بصوت مبحوح :

— « أنت تحبها . . . »

وكن يتهاوى تحت وقع صدمة قاسية همس صالح :

— « من ؟؟ »

— « نجلاء . . . »

— « مستحيل . . . »

— « وهو يحبها أيضاً . . . وهنا نقطة الخلاف بينكما . . . »

توترت أعصابه ، وضغط على كف «خميس» دون وعى .. أخذت
أنفاسه تتلاحق ، ثم انفطرت دموعه وهو يقول :

— « مستحيل . . . إنها خيانة . . . لا يمكن أن أفعل ذلك ..

جئت هنا لكي أقدم حياتي ثمناً لقضية عالية مقدسة ، كيف أحيل
جهادي الخالص إلى نزوات حقيرة . . . إنك تطعنني في أعز
ما أملك . . . »

وأخذ جسده كله يهتز من أثر البكاء والانفعال ، بينما حاول

« خميس » أن يخفف عنه ، ويربت على رأسه وظهره في ود أخوى ،
ثم قال بعد أن هدأت أعصاب رقيقه قليلا :

— « آسف . . . انه مجرد مزاح . . . قد يكون ثقيلا بعض

الشيء . . . أنا هكذا دائماً ، لي بعض الانحرافات والفلتات المؤلمة ،

لكن سرعان ما أتبين حماقتي . . معذرة . . أنا أحب «ضحى» ،
 وضحى هناك بعيداً في القدس ، إنها فتاة طيبة مجاهدة على خلق
 وجمال رائعين .. أنا سعيد بها ، ونعمل في حقل واحد من أجل تحرير
 فلسطين ، وحبنا هو الظل الوارف الرطب الذي يمدنا بالصبر
 والسلى في هجير المعارك الدامية . . لتغفر لي حماقتي . .
 أليس كذلك يا صالح ؟ ؟ ،

وتتابع إطلاق الرصاص فجأة من جهات ثلاث : شمالاً
 وجنوباً وغرباً ، وانبطح كلاهما على وجهه في وضع استعداد .
 وإلى جوارهما بعد لحظات وجدا القائد يزحف ، ويقول :

– « إنه هجوم عنيف غادر . . يتبعون نفس الخطة التي
 اتبعناها ونحن نحتل هذا الموقع . . كونوا على حذر ، إنهم
 يهاجموننا بما لا يقل عن عشرين . . يجب أن تفرقا الآن لا تطلقا
 الرصاص قبل أن أمر كما . . «نجلاء» وهداهما في الدشمة . . «ونادر»
 ورفاقه الثلاثة نائمون . . لاشك إنهم استيقظوا . . أذهب إليهم ،
 وأتأكد أن كل فرد في مكانه الذي رسمناه من قبل . . مرة ثانية
 لا تطلقوا الرصاص قبل إصدار الأمر . . هيا . . »

ولدى « الدشمة » وجد القائد «نجلاء» متحفزة خلف مدفعها
 كالنمر الشرسة ، فأعطاهما أوامره ثم انصرف إلى «نادر» ورفاقه الثلاثة ،
 كانوا يحملون أسلحتهم ماعدا «نادر» الذي اعتذر لمرضه ، وفي دقائق

كانوا جميعاً في وضع استعداد ، وشحب وجه القائد وقد تبين لديه بعد فترة أن المهاجمين يحتمون في مصفحات ثلاثة وضوء القمر يكشف الطريق حتى كأنها معركة نهائية . . حاول الأعداء أن يكتشفوا مراكز أفراد الكتيبة العربية ، لكنهم كانوا أحرص من أن يقدموا أنفسهم لقمة سائغة للهجوم الغادر الذي لم يكن متوقفاً . . لم يتوقف المهاجمون عن إطلاق الرصاص ، ثم أطلقوا بعض المصابيح الكاشفة لعلمهم يتبينون معالم « التبة » ومن عليها من رجال ، وغمغم القائد لنفسه . « معركة قاسية غير متكافئة ، لكن مامنعنا من الذخيرة يكفي للاشتباك يومين كاملين » .

وطرأت على ذهن القائد فكرة ، وسرعان ما عاد إلى حيث يرقده « نادر ، وقال :

— « نادر . . . »

— « نعم . . . »

— « تستطيع أن تحمل آلام الصداق . . إننا في مأزق ، ليس المطلوب منك أن تحمل السلاح وتخوض المعركة ، لكن في الإمكان أن تزحف من الجهة الشرقية قاصداً الموقع س . ب . قناصة ، إننا في حاجة إلى النجدة السريعة ، ستصل إلى هناك في ساعة وربع على الأرجح ، وستعود إلينا النجدة في مثل هذه المدة ، إنهم لن يستطيعوا دحرنا هنا خلال ساعات ثلاث بالتأكيد ، إذا ما جاءت النجدة ، أمكننا أن نكبد العدو خسائر فادحة ، ونستولى على بعض معداته . . »

— ١٣٣ —

تغضن جبين « نادر » ، وتحامل على نفسه ، وقد ارتسمت على وجهه سيما آلام مبرحة ، وقال :

— « إن هذا انتحار . . . »

— « لكننا الحرب . . . »

— « قد يتحيدني الأعداء ، وقد يكون هناك كمين آخر

في الجهة الشرقية . ومن ثم فإن هذه الرحلة الخطرة نتائجها معروفة سلفاً . . . وهي إنني سأقتل في الطريق ، ثم لا تأتي النجدة . . . فما هو كسبنا إذن ؟ ؟ »

قال القائد في حزم :

— « لكني أمرك . . . »

— سأنزل إلى المعركة ، ولن أقوم بهذه الرحلة . . . »

تركه القائد ومضى ، لم يكن قلقاً إلى حد بعيد ، فإن نطاقاً من الألغام حول الموقع قد وضع منذ يومين ، واختراق هذا النطاق سوف يكسب العدو خسائر فادحة ، لكن بعد نصف ساعة ، استطاعت إحدى المصفحات أن تخرق النطاق ، فتفجرت الألغام المبتوثة ، وبهذا استطاع المهاجمون — بعد أن خسروا مصفحة ورجلاً — أن يجدوا منفذاً يتسللون منه إلى الموقع ، وتأزم الموقف أكثر من ذي قبل ، فأسرع القائد إلى حيث يقبع صالح بدران ، وهمس . . .

— « إن نجاحك الليلة إنقاذ للموقع وللإخوة جميعاً . . . »

— ١٣٤ —

— « أعرف واجبي تماماً ... »

— « لا أقصد ذلك .. ما أريده هو أن تغادر موقعك الآن .

ثم اتجه صوب الشرق قاصداً الموقع القديم س . ب قناصة ، نحن في حاجة إلى نجدة لا تقل عن عشرة رجال .. النجدة معناها حياتنا والموقع .. لا بد أن تصل سالمًا وتبلغ الرسالة .. لا تشتبك في معركة .. خذ حذرک ، وتأكد أنك لو استطعت أن تبعد عن هنا كيلومتراً واحداً ، فلن تصاب بسوء باقى الرحلة .. اتفهمنى ؟؟ »

وفى صمت وسرعة خرج صالح من مكمنه ، ثم تجذب أما كن الألغام . كانت كل طاقته مركزة فى يديه ورجليه وعينيه ، إنه يزحف بسرعة غير معقولة ، عيون المهاجمين لا ترى سوى الموقع الذى خسرتة وتريد أن تسترده ، وبديهي لديهم ألا يحاول أحد الفرار تحت ضوء القمر ، فالفرار معناه الموت ، ومن ثم استطاع صالح بعد ربع ساعة أن يجتاز منطقة الخطر ، ثم انتصب واقفاً ، وأخذ يجرى بكل ما وهبه الله من قوة ، قاصداً الموقع س . ب قناصة ، كان عليه أن يقطع ستة كيلو مترات فى أقصر مدة ممكنة .

بقى « نادر » وحده جالساً على الرمل ، كانت عيناه تدوران فى الخبأ فى قلق ظاهر ، نوبة من الملل والعتيق قد أثقلت رأسه . الرصاص فى الخارج يثر ، والموقف يتأزم ، ورجال السكتيبة فى خطر كبير ، كل واحد يحمل سلاحه ويستعد لصد العدو ، ولا شيء يحتمل فكره

- ١٣٥ -

غير المعركة والموقع والحفاظ على الحياة لأنها غالية وعزيزة ،
والحرص على النصر من أجل الوطن لأنه غال وعزيز ، لأنه
الحياة الكبرى لهم ولأجيالهم ، وحام طيف « نجلاء » في رأس
« نادر » .. النار مشتعلة وتوشك أن تأكله ، وروحه تهفو إلى « نجلاء »
وعلى الفور حمل سلاحه ، وتسلسل إلى « الدشمة » ، وعندما شعرت
« نجلاء » بوقع خطواته خلفها ، هتفت في انفعال : « من ؟ ا ! »

-- « نادر .. »

-- « هل شفيت ؟ »

- « لا يعقل أن أتذك وحدك . بجوارك أنسى الألم
والمرض وتهبط على شجاعة غريبة .. »
لم تفكر كثيراً فيما قال ، ولعلها لم تع شيئاً من عبارته ، فقد
كانت كل مشاعرهما متجهة إلى حيث يتقدم الأعداء ، وإلى حيث
يقف القائد الذي لا شك سيعطى إشارة البدء بعد قليل .

- « قف في الاتجاه المضاد لي ، وجه مدفعك ناحية الشمال .. »

وكن على أهبة الاستعداد .. أسرع ، إن دور « الدشمة » في المعركة
هام جداً .. »

وكم كانت دهشتها عندما سمعته يقول :

- « اعطني يدك لأقبلها أولاً .. »

— ١٣٦ —

— « ماذا؟؟ هل جننت؟؟ »

— « إنك بذلك تمددني بطاقة روحية خارقة .. أنت قديسة .. »
فقلت باسمه دون أن تلتفت إليه، ودون أن يتسرب إلى ذهنها
أدنى شك : « الرجال في المعارك العنيفة قد يفقدون عقولهم
ويتصرفون كأطفال .. أليس كذلك؟؟ »

— « بل في تمام وعي يا نجلاء .. »

.. « حسناً .. لكن يدي على المدفع .. أسرع واتخذ وضعك
الاستعدادي .. لا تضيع الوقت .. »

ولم تدرك كيف وثب ثم قبل رأسها خطفاً وهو يقول : -

— « إن هذا زادي في المعركة .. »

قالت دون أن تتحرك أو تلتفت إليه :

— « ألم أقل أنك جننت؟؟ »

وانبعث صوت قوى لا أثر للتلعثم أو الخوف فيه يقول :

— « اضرب .. »

كان المهاجمون قد اقتربوا ، وبعضهم يزحف صوب الدشمة بغية
احتلالها ، والبعض الآخر ، يقذف من بعيد بالقنابل اليدوية
الشديد الانفجار والتحمم الفريقان ، كان المهاجمون يأبون أن
يتراجعوا ؛ ورجال كتيبة عمر بن الخطاب مصريين على أن يعطوهم

- ١٣٧ -

الفرصة كي يتقدموا أكثر من ذلك ، وخلال النصف الساعة الثاني سمعت صيحات استغاثة .. وغمغم القائد وهو في الجهة المقابلة للناحية الغربية « واحد من رجالنا يموت .. »

كانت النيران الخارجة من الدشمة قوية متلاحقة ، حسنة التصويب ، مما أصاب مصفحة أخرى بالعطب ، وأودى ببعض المهاجمين من رجال العدو ، ولم كانت دهشة « نجلاء » ، عند ما شعرت بيد نادر تقبض على ذراعها ثم يقول :

- « كفى عن الضرب .. »

- « ماذا تقول ؟؟ »

- « أنا فلتحر .. »

فجذبت ذراعه بعنف ، وواصلت الضرب قائلة :

- « لست في حالة طبيعية .. ؟؟ بالتأ كيد .. »

فعاود مسك ذراعها وهو يقول :

- « سيحتل الأعداء الموقع مهما قاومنا .. وسنقتل جميعاً .. »

خير لنا أن نسلم أنفسنا ، وستكون أمامنا فرصة للنجاة وهي أن يعاملونا كأسرى .. »

ودارت رأسها بالذكريات المريرة ، « حيفا » وبحر الدماء ، النذل الذي صوب بنادق رجاله إلى ظهور أفراد أسرتها ، الغدر وعدم

(٩ - ارض الأنبياء)

احترام حقوق الإنسان ، اليهود .. أنذال ، إنهم لا يعرفون شيئاً
اسمه الأسرى ، يعرفون الضحايا والذبايح والتسلي بمنظر الدماء ،
وسلب أعز ما يمتلك الإنسان الحر من شرف وعرض .. وصرخت :
- « عد يا نادر ، إلى مكانك وإلا أطلقت عليك الرصاص .. »

- « موتى بيدك أمنية غالية . يا أعز من عرفت .. »

- « أضرب .. يا أجبين من عرفت .. الرجال يموتون خارج
الدشمة ، والعدو يضيق الخناق .. نموت ولا نسلم الموقع .. »
وبدا الارتباك في صفوف الأعداء ، وسمعت طلقات نارية أبعد
مدى من مواقع العدو ، وصدرت استغاثات عن المهاجمين ، وتمتم
القائد في مكمنه « ماذا؟؟ هذا غير معقول .. لا يمكن أن تتم المعجزة
على هذه الصورة ، لو ذهب صالح طائراً ، وعادت النجدة طائرة لما
أتوا بهذه السرعة .. لكن المعجزات لا تكون معقولة ولا منطقية
في غالب الأحيان وذلك لأنها معجزات .. وصرخ « اضرب ، وعاد
الضرب من جديد ، لكن قوات العدو توقفت عن الزحف نحو
الموقف ، كما توقفت عن الضرب .. ويبدو أنها لن تعاود الصراع ..

لم يكد صالح بدران يخترق نطاق الخطر وهو يتسلل إلى الموقع
س . ب قناصة لطلب النجدة ، حتى فوجيء بقوة من الرجال تزيد
على العشرة عدداً ومعهم مصفحة واحدة ، وعلى أتم استعداد ،

— ١٣٩ —

وسرعان ما رفع يده . وعندما طلبوا منه كلمة السر . نطق بها فوراً ثم روى لهم باختصار كل ما يتعلق بأخبار الهجوم اليهودي على الموقع والخطة التي ينفذونها ، وخرج موقف قواته ، فأفهموه أن إحدى دورياتهم اكتشفت منذ مدة قصيرة وجهة العدو ، تخمنوا أنهم في حاجة إلى نجدة ولذلك أسرعوا إليهم ..

هكذا تمت المعجزة ، وهكذا سبق أغلب أفراد الكتيبة المهاجمة أسرى ، واندحر اليهود ، وثبتت كتيبة عمر بن الخطاب في موقعها ، لكن بعد أن استشهد اثنان وجرح القائد وخميس جراحاً ليست ذات خطورة كبرى .. والتفتت « نجلاء » إلى « نادر » ، وقد فاض وجهها بشراً وسماحة :-

— « رأيت يا نادر .. لقد انتصرنا . الأسرى هم لانحن .. السبب بسيط .. لأن الله معنا .. أرجو أن يكون الصداع والمرض قد ذهباً ، ويكون عقلك قد عاد إليك .. لا بد أن أغفر لك هذيانك لاشك أنك محوم .. »

فامتلات عيناه بالدموع وطأطأ رأسه .

أشرق الصباح ، كان القائد كائياً حزيناً لا يتكلم ، لشد ما آلمه أن يفقد اثنين من إخوته ، رفاق الكفاح والألم والتضحيات ، إن

- ١٤٠ -

الحياة في نظره غالية ومقدسة على الرغم من ممارسته صناعة الموت..
الإنسان يموت وتموت آلاف الآمال والأمنيات العذبة .. ما أقسى
المصير !! ورفع بصره ، كان هناك عشرة من الأسرى اليهود يقفون
منكسي الرؤوس ، واقترب منهم ، كان الخوف الشديد ينبثق من
عيونهم المحترقة ، قال لهم وهو يصر على أسنانه :-

- « خبِّروني .. لماذا تحاربون ؟؟ »

فرد ضابط برتبة ملازم أول :

- « هل ستقتلنا ؟؟ »

- « لماذا تحاربون ؟؟ »

- « انها خطيئة يا سيدي .. »

- « أنتم تكذبون .. »

- « نستطيع أن نكفر عن خطيئتنا .. »

- « كيف ؟؟ »

قالها القائد وهو يهز رأسه في أسى عميق ، بينما هتف الملازم
اليهودي وهو يتلفت يمنة ويسرة :

-- « سأريك كيف نكفر عن خطيئتنا على أن تعاملنا

كأسرى .. » ثم استطرد وهو يتفحص الفدائيين العرب :

-- « أين نادر سليمان ؟؟ »

— ١٤١ —

وانبعث صوت « نادر ، فجأة : —

— « أنا هنا .. »

كان مسدسه في يده ، وسرعان ما انطلقت منه رصاصات مجنونة نحو الملازم اليهودي ، فانقض القائد على « نادر ، واختطف منه مسدسه وأمسك بيديه النجيلتين ، بينما قال الملازم اليهودي

وهو يتهاوى : —

— « نادر خائن .. إنه جاسوس لنا .. يريد أن يسترد أبوه ضياعه في حيفا ، ويبقى ثرياً كما هو .. أبوه يعيش مع رجالنا في «حيفا» معززاً مكرماً ، وابنه يدفع الخيانة ثمناً لثرائهم .. لا تتركوا هذا الخائن يعود لأبيه .. »

وجهد المتطوعون كالتائبين ، ونظراتهم تنصب كاللحم على « نادر سليمان » ، جرده القائد من سلاحه ، ثم ربط يديه من الخلف ، ولم يكذب يفعل ذلك حتى سمع الملازم الجريح يقول :

— « ومعك جهاز لاسلكي صغير سلبته له بنفسى .. ابحثوا عنه

في جرابنديته (حقيبتته) .. ومعك مفتاح للشفرة .. »

وتسلل صالح إلى المأوى الذي ينام فيه الرفاق ، وسحب حقيبته

« نادر » ، ثم فتحها ووجد الجهاز الصغير بداخلها ، ثم عاد وقدمه للقائد

في صمت ، وانفجر « نادر » ضاحكاً كالمجنون وهو يقول :

— « أيها البلباء .. أنتم تحاربون إنجلترا وأمريكا وفرنسا ..

تحاربون أوروبا .. لتقبل الأمر الواقع .. أنتم مغرورون .. »

- ١٤٢ -

فقلت « نجلاء » وهي تبصق في وجهه :-

.. « لكننا أصحاب الحق ياوغد .. »

.. « وهم أصحاب القوة ياقطى الجميلة .. لكم أحببتك .. كان في
الإمكان أن أتحول إلى رجل وطني مخلص مثلك ، لو امتدت الفرصة .
ثم أخذ يجذب يديه ، ويحاول الانفلات من القيود ، ويضرب
الممسكين به برأسه ورجليه ، دون جدوى ، وصاح الملازم الإسرائيلي

- « أتعتبرونني كفرت عن خطيئتي ؟؟ »

فلما لم يجب أحد همس :-

- « بالله لا تقتلونى .. أعطوني الحياة وخذوا ما تشاءون ..
لم أفهم بشاعة ما تقدم عليه إلا بعد أن وقعت في قبضة الموت ..
نحن ضحايا أفكار فجة مغرضة .. لكنكم لا شك ترحمون ضعف
الإنسان .. »

وفي إيجاز وهدوء قال القائد وقد بدا عليه الإنهاك والضعف
من أثر الجراح الجديدة :

- « نحن لا نقتل الأسرى .. خذوهم إلى معسكر الأسرى
في القطاع الجنوبي للاستجواب .. وخذوا « نادر » إلى السجن حتى
يحاكم .. »

* * *

— ١٤٣ —

وبعد ساعة خيم السكون ، كان الشهيدان قد ووريا التراب ،
والأسرى سيقوا إلى الجنوب ، «ونادر» إلى السجن ، وصالح يجلس
محتقن العينين ، وخميس صاحب الوجه ، مرتعش الشفتين ، و«نجلاء»
تذرف الدموع في صمت ، وتكتم شهقاتها . والقائد يعيد ربط الضمادة
على ذراعه في حركات مبيتة ، وفكره شارد إلى بعيد .. إلى حفرتين
ضغيرتين تغطيهما الرمال ويرطبهما دم طاهر حر ..



معرفتي



الفصل الثالث عشر

كان لانكشاف أمر « نادر » رنة أسي في صفوف المجموعة ،
لومات في إحدى المعارك لكان أروح لنفوسهم مليون مرة من
وصمه بالخيانة ، وأقسى ما يصيب المكافحين في ساحات الموت
طعنة من الخلف ، كان صالح بدران لا يرتاح إليه ، ويجدها تفتأ
داخلياً في أعماقه يدعوهُ إلى نقده ومؤاخذته والاعتصام بالشك في
كثير من تصرفاته ، وعندما انحسر الغطاء ، وظهرت الخيانة بوجهها
البغيض ، لم تهز صالح نشوة طرب ، أو تستولى على مشاعره شماتة ،
كانت المأساة أكبر من التشفي والشماتة ، كل ما كان يأخذه عليه هو
مطاردته لنجلاء والمغركة مستعرة ، والمواقف متأزمة مما بعث في
نفسه ضيقاً وحنقاً بالغين ، ولم يكن يتصور أن يأتي يوم ويقف فيه
« نادر » موقف الخيانة ..

وذهلت « نجلاء » وهي ترى بعيني رأسها رجلاً من « حيفا » يأتمر
مع الأعداء ضد قضية وطنه الجريح ، لم تكن تتصور أن بين
الصفوف العربية خائناً يحمل السلاح ، ويركب المخاطر ، إنها
لا تستطيع أن تنسى أن « نادر » أحد الذين ساهموا في احتلال الموقع
« ش » ، كيف استطاع أن يخدعهم؟؟ وما الفرق بينه وبين الصول

- ١٤٨ -

الإسرائيلي الذي قتل أهلها ، وسفك دم عرضها ، قد يكون لغدر
عدوها ما يبرر تصرفاته من تعصب لبني قومه ، وإيمان زائف بقضية
ظالمة ، إنه يعتبر نفسه - مهما كان الأمر - صاحب حق ، لكن
كيف تجد مبرراً لرجل عربي أظلمته سماء فلسطين ، وحملته أرضها
وأغدقت عليه خيراتها ، وأتاحت لأبيه فرصة الثراء العريض بها ،
ما أتعبها !! لقد أعمتها مثاليته عن رؤية النقص في الآخرين ،
كانت تغتفر « لنادر » سخافات وملاحقاته لها ، وكانت ترى في حماقاته
ضرباً من نزوات الشباب ، أو تعبيراً عن الكبت والحرمان ،
وتنفيشاً عن أهوال الحرب وويلاتها ، لكن « نادر » هذه المرة كشف
عن وجه الغدر ، والتتكّر لأشرف قضية ، وخان ثقة رفاق المعركة
فيه ، كان يآكلهم ويشاربهم ، ويقاسمهم الفراش والخطر ، وهو في
حقيقته حيّنة رقطاع ، يضمّر السوء . . من أجل ماذا؟؟ لكي يحتفظ
لأبيه بثرائه ، ما أتفهمها من غاية ، وما أبشع ما اتخذ من وسيلة !!
وشعرت « نجلاء » بياس قاتل .. كانت تخفف عن أحزانها المتراكمة
بالبكاء ، وتستميت في التضحية ، ومع ذلك فهي لاتستطيع أن تنسى
أن رجلاً خان إخوة الكفاح . . ومن يدري؟؟ قد يكون ضمن
القوات الزاحفة لنظام فلسطين أشباه لنادر ، إذا كان ظننا حقيقياً
فما أتعب الحياة !!

كانت تخفف دموعها حينما اقترب منها صالح بدران قائلاً :-

- لا داعي لـكل هذا ،

— ١٤٩ —

— « إنها كارثة كبرى يا صالح .. »

— « لكنى أعتها أمراً طبيعياً .. »

— « طبيعياً؟؟؟ كيف تقول هذا الكلام؟؟؟ »

وأقبل القائد عند ذلك ، ويبدو أنه كان يرهف السمع لما يدور بينهما من حديث ، فقد تدخل قائلاً :

— « الله قد خلق الحمامة البيضاء ، وخلق أيضاً الحية الرقطاء .. »

فقالته وهي تدق الأرض بقدمها :-

— « لكن لماذا؟؟؟ لماذا؟؟؟ »

فاستطرد القائد قائلاً :-

— « وفي المجتمع يوجد المريض والصحيح ، والمجنون والعاقل ، وأيضا يوجد الخائن والمخلص .. لماذا؟؟؟ لحكمة يعلمها هو .. تستطيعين أن تفكري لماذا خلق الليل والنهار ، والحب والكراهية ، ومع كل هذه المتناقضات فإن الحياة تسير ، والبناء يرتفع ، والحق ينتصر ، وكلية الله هي العليا . ، لماذا جرح محمد في معركة « أحد » ، ولماذا هزم جنود الله آنذاك؟؟؟ لست أدري السبب في أن تشغلك هذه الاستفسارات عن النار المشتعلة في الأرض المقدسة .. إنها أسئلة خالدة ، فلنقبل الوضع يا أخت ، فلن نستطيع تحويل الليل إلى نهار ، لكننا نستطيع إضاءته بمشاعلنا المتواضعة ، ونستطيع أيضا أن نبحث

— ١٥٠ —

عن أمراض مجتمعتنا ، ونحاول علاجها .. هذا كل ما في الأمر ..
لكم أحزنتي أن يستشهد رفيقان لنا ، لكن هذا هو الثمن ، لن نحوز
النصر بلا تضحيات ، ولن يعلو الحق بلا قرابين .. »

وغمغم « خميس » وقد كان على مقربة منهم : -

- « يجب تتأهبي للقاء صدمات كثيرة . وخيانات متعددة ..
إننا نحارب في جو رهيب مليء بأشتات المتناقضات والأعاجيب .. »
ولاحظ صالح أن وجه القائد قد شخب بصورة ملفتة للنظر ،
فالتفت إليه قائلاً :

- « ما بك ؟ »

- « لاشيء .. يبدو أن إصابة كتفي قد نزفت دماً كثيراً .. »
- « ولهذا أرى أنه لا بد من رحيلك أنت وخميس شاهين
إلى أقرب مركز للإسعاف مخافة أن تتسمم جروحكما .. »

فأردفت « نجلاء » :

- « هذا عين الصواب »

فأجاب القائد :

- « لكنه من الضروري أن نحمل نقطة الحراسة اليهودية
الجنوبية .. ثم نستولى على النقطة الأخرى في شمال موقعنا ، معنى
ذلك أن تتطهر النقطة تماماً ، ونؤمن شر غدراتهم ، يجب أن يتم
ذلك في ليلة واحدة ، »

- ١٥١ -

وقال « خميس » :-

- « وقد أصبح عددنا كافياً بعد المدد الذي وصلنا .. »

فقاطعه « صالح » قائلاً :-

- « لكنى مصر على أن تفكرا فى معالجة جراحكم أولاً .. »

ليس من المنطق أن ننجوا من رصاص الأعداء ، ثم نقتل أنفسنا
بأيدينا إهمالاً .. »

قال القائد وعلى ثغره ترسم ابتسامة خافتة مقتضية :-

- « حسناً .. سنذهب الليلة لنطهر الجروح وتضميدها ،

ونعود غداً ، الأمر لا يحتاج لكثير من الوقت أو العلاج .. »

فى الليلة التى رحل فيها « خميس » والقائد ، آوت « نجلاء » إلى مضجعها
الصغير وحيدة ، وبقى « صالح بدران » على ربوة صغيرة وراء ساتر
صخرى فى نوبته الحراسية ، كان القمر مطلاً كالأمس ، والصمت
المقدس يطوى الكون من حوله .. كل شىء هادى تماماً ، وهو وحده
مع الله ، الله يتجلى من حوله ، فى كل شىء ، فى السماء الزرقاء
الممتدة إلى بعيد ، فى القمر الواضع الذى يفيض بالضوء الرصين الفضى
فى النجوم التى تتناثر . عبر السماء وكأنها تغور تبسم بالحب
والأمل ، فى كل مظاهر الطبيعة من حوله ، وشعر « صالح » أن قلبه
صاف رائق كالسماة فوق رأسه ، كضوء القمر الذى لا تشوبه شائبة ،
كل شىء يوحى بالبراءة والطهر والصفاء ، وهمس « صالح » لنفسه :

« المجاهدون في سبيل الله لا يكذبون .. إنهم رجال الله ، والله يحب أن يكون رجاله صادقين مع الناس ، ومع أنفسهم .. ، وابتلع صالح ريقه ، ثم حاول تجفيف العرق الذي أخذ يتقاطر على جبهته ، واستطرد في أفكاره : « اعترف أن بي ميلا جارفاً إلى «نجلاء» .. حقيقة أنا .. أنا أحبها ، أنت تعلم يا إلهي أني أقوم هذا الحب ، وأحاول قدر طاقتي أن أسحق بذرتي ، لكنها تنمو وترعرع على الرغم مني ، أنت يا إلهي الذي زرعت البذرة في روحي ، وأنت ياربي تتعدها بمائك المقدس . كل ما أستطيع أن أفعله هو أن أكرم هذا الحب في قلبي ، ولا أصرح به لأحد .. حتى «نجلاء» نفسها ، لن ترى في وجهي وتعبيراته سوى ما تراه لدى الآخرين في المعركة ، يجب أن تشغلنا المعركة عن كل شيء ، لقد جئنا لنضحى بحياتنا من أجل أشرف غاية ، فليمتد بنا طريق التضحية لأبعد مدى ، ويصبح عشقنا منصباً على الأرض الطاهرة التي تحاول تدنيسها أقدام الغزاة .. هذا عهديني ودينتك يا إلهي ، وسأبقى حافظاً له حتى النهاية ، سأعيش للمعركة المقدسة ، ولن أنصرف عنها لأى سبب مهما كان .. من يدري ؟؟ قد تمضي الأمور على خير مايرام ، ويقصر أمد المعركة ، عندئذ أكون في حل من اعتصامي بالصمت ، وكتباتي لمشاعري ، وأبادر فأقدم لها قلبي .. ثم نعيش كأسعد زوجين ، بعد أن نعقد قراننا تحت شجرة زيتون خضراء حلوة العبير .. ثم نعود معاً إلى القاهرة الحبيبة ، وإلى حى السيدة عائشة بضجيجهم وعرباتهم وأطفاله المرحين .. وعالمه الرائع الجميل .. ،

الفصل الرابع عشر

ارتدت ملابسها البيضاء الناصعة ، ووضعت الطاقية المميزة على مؤخر شعرها ، ثم شدت حزاما على خصرها ، واختطفت حقيبتها يمينها ، وهتفت في رقة :-

— « وليد » فأقبل مسرعا وهو يقول « هأنذا يا أختاه ، وكان يمسك بيده كراساً تسخا بعض الشيء ، وقلبا قصيراً من الرصاص ، فتناولات منه الكراس وهي تقول : « حسناً .. هل كتبت ما طلبته منك؟؟ لا شك أن خطك قد تقدم كثيراً » وفتحت الصفحات ثم أخذت تقرأ ما به :

— « فلسطين عربية .. النصر لنا الله أكبر والعزة للعرب » وهزت رأسها وهي تقول : « عظيم .. أريد أن تكرر كتابة هذا السطر عشر مرات ، وسأرى ذلك عند عودتي في المساء .. »

ثم اتخذت سمتها صوب باب المعسكر عازمة على الذهاب فوراً إلى مركز الإسعاف الذي تعمل فيه ، لكنها سمعته يصيح من خلفها :

— « يا آنسة «ضحى» .. انتظري .. إن الطفل في حالة سيئة .. »

وأقبل رجل يناهز الأربعين من عمره ، يرتدى زيّاً قديماً من

— ١٥٤ —

زى المزارعين ، السروال الأسود ، والصدارة المخططة ، وعمامة
على رأسه ، واستقبلته « ضحى » فى بشاشة وهى تقول :

— « ألا تزال حرارتة مرتفعة . ؟؟ »

— « ونوبة الإسهال تزعجه ، وتهد من قواه ، إنه يرقد الآن

شبه ميت . . . »

— « لسوف آتى معك . . . »

وسارت « ضحى » فى طرقات معسكر اللاجئيين ، الأرض متربة
متسخة ، عليها بقايا من طعام ومخلفات آدمية ، الأطفال يجرون
هنا وهناك شبه عراة ، حفاة الأقدام ، العيون الخائفة تنظر فى
قلق ووهن ، والوجوه الشاحبة يرسم عليها الهزال وفقر الدم ،
والخيام المكتظة بالبشر تزحم جانبي الطريق ، تقبع تحت الشمس
كالحة ممزقة ، ووجوه الرجال تبدو مغبرة غير حليقة ، والنسوة
يتحركن فى ذلة وانكسار ، وروائح غير طيبة تدهم أنفها الدقيق ،
ومظاهر الفقر والإهمال والتعاسة تبدو شواهدا فى كل مكان خارج
الخيام وداخلها ، وخيل إليها أنها تمشى فى حى من أحياء المتسولين
لا . . بل إن أحياء المتسولين تبدو أكثر نظافة وحيوية من هذا
المكان الذى يخطط فيه ساكنوه لأنفسهم قبور الضياع . . .

قال الرجل وهو يفسح لها الطريق إلى داخل الخيمة :

— « معذرة . . إننى خجل من هذا الحجر السيء التهوية ، لكن

لاحيلة لنا ، كان لنا بيت ، وكان نظيفاً أنيقاً ، به أثاث مناسب ،

وجيد التهوية . . لكنها مشيئة الله . . . »

— ١٥٥ —

قالت « ضحى ، وهى تبتمس :

-- « لا داعى للخرج ، إن مظهر خيمتنا لا يقل سوءا .. وعلى أية حال فهى أزمة طارئة ، وغداً نعود إلى بيوتنا ، وننعم من جديد بالحياة الوادعة الرغيدة .. لنعبر أنفسنا فى رحلة قاسية قصيرة ، إن من يقاسى الألم فى شدته ، لاشك يستسيخ جمال الحياة المنعمة ويقدر نعمة الله ويشكره عليها ، أليس كذلك ؟؟ »

فهز رأسه بانفعال وهو يقول :

-- « حق ما تقولين .. »

كان بالخيمة عدد من الصبية والأطفال والنساء ، وفى ركن الخيمة وقف طفل ملوث اليدين يمسك بكسرة جافة من الخبز ، وينظر فى بلاهة ، وإلى جواره رقد طفل لم يتجاوز الثالثة ، كان متمدداً غارب النظرات لا يستطيع الحركة ، ويصدر عنه أنين خافت ، ولدى رأسه جلست امرأة دامعة غارقة فى أرديتها السوداء ، تحرك لإمام وجهه الضامر النحيل الشاحب مندبلاً مبللاً بالماء . وصرخت الأم فى لوعة وهى ترى « ضحى » تقرب :

-- « إنه يحتضر يا ابنتى .. »

وضعت « ضحى » كفها الصغيرة على جبهته الملتهبة ، ففتح الصغير عينيه ونظر إليها فى رعب وصرخ : « أماه .. » بينما ابتسمت له « ضحى »

وهمست : « لا تخف يا حبيبي .. ، وآلمها أن تقرأ الرعب في عينيه ، كل شيء من حولها فقد الأمن والثقة ، وتوالى وقوع الكوارث والغدرات أورث الجميع هلعاً وتوجساً للشر دائماً ، أية جريمة بشعة ترتكب في حق الانسان البريء ، وتحطم آماله في السلام والحب والاطمئنان النفسى !! وكادت تنهمر دموع «ضحى» لولا أن تماسكت ، وكزت على أسنانها ، ثم فتحت حقيبتها ، وأخرجت مقياس الحرارة وحاولت أن تدسه في فمه فقاوم وبكى ، فلم تر بُدّاً من وضعه تحت أبطه ، وانتظرت .. كانت العيون ترمقها في ضراعة وهي تتوسط الخيمة المحتضرة الضوء ، والتي نفوح منها رائحة العفن وعندما سحبت مقياس الحرارة ، جاء صوت الأم برعشة البكاء :

— « أنقذيه يا ابنتى .. بحق الله .. إنه حفيدى .. أبوة لقي الله في الميدان وهو يحارب اليهود ، وقد أوصانى به خيراً لیسلة رحيله .. وأمه ضلت الطريق في ساعات الرعب والمجازر التي أقامها اليهود ، ولا ندرى أين ذهبت ، وهل هي حية أم ميتة .. ليتنى أموت ويعيش هو .. ليتنى .. ليتنى .. »

ثم أجهشت بالبكاء ، وهمست «ضحى» وهي تغالب انفعالاتها : -

— « أنت تؤمنين بالله .. أليس كذلك ؟ »

— « ونعم بالله يا ابنتى .. »

— « لتتركى الأمر له .. إنه أرحم به منك .. »

— ١٥٧ —

— « الحمد لله ... »

ثم أخرجت « ضحى » من حقيبتها بعض الأقراص البيضاء وهي تقول :-

— أقراص من السلفا والاسبرين ، لسوف تنخفض حرارته فوراً ، وبعد ساعات أرجو أن تقل مضايقاته من النزلة المعوية أرجو ألا تعطيه إلا سوائل سكرية وملاحية كعصير الليمون مثلاً .. إنه في حاجة إلى كمية كبيرة من السوائل .. »

وأخذت تشرح للرجل طريقة استعمال الدواء ، وتكرر له ذلك : ثم قالت :

— « والآن سوف أحقنه بعقار « الكافور » ، إنه مقوِّ للقلب والتنفس ، ومنشط للجسم ، سيفيق فوراً من حالة شبه الإغماء التي يعاني منها .. ما كان أحوجه إلى مستشفى أطفال ، لكن . فليرحمه الله ويكتب له النجاة .. »

ولدى مغادرتها للخيمة رأت يابها تجمعاً كبيراً من الصبية والغلمان وبعض الشباب والشابات ، فتوقفت عن المسير ، وأخذت تحدثهم عن ضرورة المحافظة على نظافة المعسكر وكنسه ورشه يومياً وعن تعريض المفارش والأغطية للشمس ، واتباع أساليب النظافة في الأكل والشرب والملبس على قدر الاستطاعة ، وعزل الذين يصابون بأى مرض في بعض الأماكن المنعزلة التي يجب

— ١٥٨ —

تخصيصها لذلك ، فجاءها صوت عجوز لم تتبين وجه صاحبه يقول :

— « أكرمك الله .. إننا لا نرى الصابون إلا في الأحلام ..

— « حتى الأحطاب التي نستعملها كوقود لم يدخلها وجود ..

إنها حياة بدائية قدرة لا تليق بإنسان .. »

فقالته وهي تطأطأ رأسها في خجل :

— « يجب أن نفعل أقصى ما نستطيع .. بأقل الوسائل ،

وأضعف الإمكانيات ، يمكننا أن نتجنب كثيراً من الأضرار

والمخاطر .. »

ورد آخر :

— « الموت أهون من هذا العذاب .. »

فرفعت صوتها ، وصرخت في حدة :-

— « ماذا تقولون؟؟ يجب أن نصبر ونقاوم عوامل الفناء ..

ألسنا مؤمنين ، إنها محنة وستزول بإذن الله .. كثير من الناس كانوا

يقاسون حياة الفقر والضياع قبل النكبة .. كنتم لا تشعرون بهم

وكانوا يعيشون ، ويحاولون شق طريقهم وسط الصخور والمتاعب

إنه امتحان ابتلانا الله به ، ويجب أن نكون رجالاً في احتمال

الصعاب .. « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا

الله لعلكم ترحمون .. » ماذا؟؟ هل أنتم في حاجة لكي أذكركم

بهذه المبادئ البديهية .. »

فهزوا رؤوسهم في خجل ، وقال شيخهم :
 -- « صدق الله العظيم .. »

وشقت لنفسها طريقاً بينهم ، ومضت مسرعة ، كان في داخلها
 أنين خافت لا يسمع ، وكانت أهدابها ترتعش في توتر ، لم تعد ترى
 شيئاً مما حولها ، كانت نظراتها تنظر إلى بعيد حيث تشمخ قبة
 الصخرة بالمسجد الأقصى نحو السماء ، في ثبات وثقة وكبرياء ،
 وكأنها رمز الإيمان الصاعد الذي لا يتزعزع ولا يهتز ..

جفت ، ضحى ، عينها قبل أن تدخل مركز الإسعاف ، إن ابتسامتها
 المشرقة أمر ضروري في هذا الجو المليء بالأنين والألم والذكريات ،
 وتوقفت قليلاً ثم حاولت الابتسام ، لم تكن تمثل بل كانت تجذب
 ابتسامتها من الأعماق ، ألا يستطيع الإيمان العميق بالله أن يحوّل
 اليأس إلى أمل ، والهزيمة إلى نصر ، والأنين إلى أغنيات عذبة
 حلوة النغم ؟؟ واستقبلها الطيب باشاً وهو يقول :

— « هل جئت يا ضحى ؟؟ حسناً .. أنا لم أذق النوم حتى الآن ،
 قالت شاهقة :-

— « ثمانى وأربعون ساعة .. ؟ لاشك أنك متعب ،

— « على النقيض مما تقولين تماماً يا عزيزتى .. إننى أشعر
 بسعادة قصوى ، إن المحافظة على حياة الآخرين ، يسعدنى جداً ،
 هؤلاء الذين يضحون بأرواحهم من أجلنا لا أقل من أن نضحى
 من أجلهم بيضع ساعات من النوم ، والفرق بيننا وبينهم شاسع ،

فهم يقضون ليااليهم الطويلة يهددهم الموت والخطر والقلق النفسى ،
ونحن هنا فى أمان تام ، ونأكل ونشرب ونستريح ، والبطولة الرائعة
يجب أن تلقى منا كل تقدير ورعاية ونخر .. »

— « صدقنى يادكتور » إنك تمدنا بطاقات هائلة من الصبر .. »

— « لا تبالغى فأنا مجرد فرد عادى جداً يؤدى واجبه لا أكثر .. »

— « إنها بطولة رائعة أيضاً .. »

— « لا أظن .. »

قالها وهو يأوى إلى مقعد خشبى ، خلف منضدة بيضاء صغيرة ،
ويرشف كوباً من الشاى ، ويتناول بعض الأقراص المنبهة ، وأخذ
يتجاذبان أطراف الحديث فأخبرها أن كمية من العقاقير والمواد
الطبية قد وصلت منذ ساعة فى عربة خاصة ، بعث بهامدير القسم الطبى
بالجبهة المصرية ، كما أخبرها أن بعض المرضى قد شفوا ، وأصبحوا
لائقين للعودة إلى الميدان من جديد ، وأن اثنين أو ثلاثة لابد من
نقلهم إلى المستشفى العسكرى بالقاهرة لحاجتهم إلى رعاية أكبر ،
وبعض العمليات الجراحية الدقيقة ، وعلت منه أيضاً أنهم استقبلوا
بعض المصابين الجدد ليلة أمس ، ثم قامت هى بدورها وأعطته
فكرة سريعة عن الحالة الصحية فى معسكر اللاجئيين ، وضرورة
مدهم ببعض العقاقير الهامة ، والثقافة الصحية وإلا انتشرت بينهم
الأمراض المعدية التى قد تودى بهم ، وتترك عدداً من الضحايا يفوق
كثيراً ضحايا الحرب ، عندئذ قال الطيب :

— « فعلا . . أنا أذكر أن صحايا وباء « الكوليرا ، في مصر لا يقارن بمن راحوا ضحية الغارات الألمانية في الحرب العالمية الأخيرة ، يالها من عظة بالغة !! ما دام الإنسان يموت على فراشه ، وتصرعه الأوبئة وهو آمن مستقر في بيته ، فلماذا يهجم بعض الناس عن اقتحام المعارك المقدسة ؟؟ ولماذا لا يتسابقون إلى الاستشهاد من أجل الحق وإعلاء راية العدالة . . ؟ صحيح . . صدق من قال : إحرص على الموت توهب لك الحياة . . إننى أسمع عشرات القصص من أفواه هؤلاء الجرحى الأبطال ، فكم من مرة يرمون بأنفسهم فى أحضان الموت ، ويقترحمون حقول الألغام والأسلاك الشائكة والرصاص كالمطر من حولهم ، ومع ذلك يخرجون سالمين . . إنه القدر . . وقدر الله هو نظامه . . »

قالت « ضحى ، وكلها آذان صاغية لحديثه :

— « أجل . . إن قدر الله هو نظامه . . »

— « لأن الوجود يمضى على أسس قديمة دقيقة ، وتسيره

قوانين إلهية محكمة الصنع . . »

فقالت « نجلاء ، وعلامات الجد على ملاحظها الدقيقة النماتة :

— « فلماذا نقلق إذن ؟؟ »

قال وهو يرشف الجرعة الأخيرة ويضحك :

— « لأننا أغبياء . . »

— « بل لأننا ضعفاء الإيمان يا دكتور . . . »

— « النتيجة واحدة . . . »

واضطجع الطبيب على الحائط ، وتدلت ذراعه ، كان يحاول أن يفتح عينيه بصعوبة ، لكنها كانت تغلق على الرغم منه ، وكانت « ضحى » تحاول أن تستمر في حديثها ، أما هو فقد كانت مقاومته للنوم تضعف شيئاً فشيئاً ، وإذا ما حاول الكلام خرج حديثه مبعثراً مشتتاً ، أو انطلق ألفاظاً لا رابط بينها ، كأن يقول . « القدر . . . النظام . . . الموت . . . أجل أن نخيط هذا الجرح . . . لناخذ غرزة هنا . . . عملية نقل دم . . . جرح بسيط . . . لا فائدة مجرد محاولات يائسة ، لكن يجب أن تستمر حتى النهاية . . . حتى ننام . . . » وأدركت « ضحى » أن جفنيه قد انطبقت تماماً ، وأن أنفاسه تنبعث رتيبة ، والعرق يندى جبينه الأسمر العريض ، والصلابة الصغيرة في مقدمة رأسه تلمع ، ومسحة من الرضا تشرق على وجهه المتعب ، وعلى الفور انسحبت من الحجرة ، تاركة الطبيب المصرى وحده لعله ينعم بقليل من الراحة . . .

كان عليها أن تذهب تَوَّأً إلى عنبر الجرحى لتقوم بتنظيف جراحهم وتضميدها ، وإعطائهم بعض الحقن والأقراص المسكنة للألام ، وفي طريقها كانت تفكر ، إن الأمور كلها — كما يبدو — تسير على ما يرام ، الروح العالية تسود جميع الجنود ، وبسات

الأمل والثقة تضيء على ثغورهم ، والعمل الجاد الشاق يسود كل مكان ، فالجميع يضحون بأعلى ما يملكون ، ولا يعباون براحة أو نعيم ، ويخوضون المعارك في بسالة منقطعة النظير ، القائد في المعركة ، والجندي في الصفوف ، والطبيب في مركز الإسعاف ، وأفواج المتطوعين من أنحاء العالم العربي ، والأصحاء والذين أصيبوا في المعارك ، كلهم صورة حية رائعة للبطولة والتضحية وإنكار الذات ، ثم إنهم ينتقلون من نصر إلى نصر ، والجيش المصري يطهر الأرض المحتلة في سرعة عجيبة ، والمتطوعون يقضون على جيوب المقاومة قضاء ساحقاً ، والدائرة تضيق حول اليهود .. كل شيء يمضي بطريقة مشرفة تنبئ بالخير ، فماذا بقي ؟؟ بقي أن ننتظر يوم النصر الأكبر ، يوم الخلاص وتطهير فلسطين من كل غاز ومعتد ..

لكن خوفاً مبهماً كان يحالط مشاعر «ضحى» .. خوفاً لا تدرى كنهه ، ولا تعرف مصدره ، إن قلبها يحدثها بأن أشياء كثيرة يطويها المستقبل في حجبه ، لعل روعة الأمل الكبير الذي يداعب خيالها هو الذي يورثها القلق ، أتصدق المنى ويتحقق الأمل الكبير على الرغم من مؤامرات الدول الكبرى ، وتمزق الصف العربي ، وضعف الإمكانيات العربية ، وإحكام قبضة الاستعمار على أخطر مرافقنا ومقدراتنا ؟؟ إن تحقيق الحلم الكبير - برغم بشائر النصر المتلاحقة - هو عين المعجزة ..

ولدى دخولها عنبر الجراحة قابلتها مظاهرة من الابتهاج

والترحيب ، الجميع يحبونها ، ويقرأون على ملاحظها الوادعة المنيرة
الامل والحب والسلوى ، طلعتها المحبوبة تفعل في نفوسهم أكثر مما
تفعل العقاقير في جراحهم الجسدية ، إن أنينهم يخفت عندما
يرونها ، وانطباعات الألم تمنحى إذا ما أهلت عليهم ، والدائبون
على الصمت منهم يتسابقون إليها بالحديث ، هذا يروى آخر أنباء
الصحف المحلية ، وآخر يذكر لها آخر بلاغ حربى فى نشرة الأخبار ،
وثالث قد جمع لها بعض الأنباء المفرحة من آخر القادمين من
الميدان ، و«ضحى» بين هذه المظاهرة الصاخبة تحاول أن تبتم لهذا ،
وتمازح ذلك ، وتقف إلى جوار بعضهم مشجعة وخصوصاً أولئك
الذين لا يستطيعون مغادرة أماكنهم ، وبعضهم كان يقرأ لها خطابا
أناه من أبيه أو أمه أو عروسه ، كانت «ضحى» ملتقى أفرأهم ، ومصدر
سلواهم ، ورمزاً رائعاً لفلسطين الأرض الطيبة التى يخوضون من
أجل تحريرها هذه المعركة المقدسة ، وبينما كانت «ضحى» منهمكة
فى تنظيف الجروح وتضميدها ، وقف شاب من الأزهر الشريف
فوق سريره وقال : « إننى لا أخوض المعركة بمدفعى فحسب ، بل
إن لى قلما من نار ، ولهذا فأنا أكتب من آن لآخر قصيدة ملتبهة
من الشعر عن فلسطين الحبيبة . . . »

ثم أخذ فى قراءة آخر قصائره بين تصفيق الجرحى
واستحسانهم ، وكانت «ضحى» تستمع إليه فى إعجاب واستمتاع
إلى أن قال :

« وحيثما والروابي الخضر والشيطان والنهر
وعذراء لها عينان يهفو منهما السحر
وأغنية مهوومة سداها الحب والبشر
طواها عاصف الطغيان في لجج من الألم
أخى وماذن سمقت وأجراس وصلبان
وخلد مونق الأعطاف بالإجلال مزدان
حضارات وأمجاد .. وأعلام وفرسان
وأرض تنبت الأختيار والأطهار من قدم

لم تتمالك «ضحى»، أعصابها، لقد عادت إليها على الفور صورة المدينة
الخالدة الجميلة، وأرضها الخضراء والشاطئ الوادع الحبيب،
والذكريات العاطرة، ثم تلتها صورة المذبحة الرهيبة التي لوّثت
معابد الحب والجمال والطبيعة بالدم الطاهر البريء، ثم رحلة
التشرد القاسية بعد أن فروا من المدينة إلى بطون الوديان
والصحارى، وجدت «ضحى» أنها على وشك البكاء، فحاولت أن
تسرع خارجة، لكن أعصابها انهارت فانفجرت الدموع من
عينها، وأخذت تشهق شهقات دامية، فكف الفتى عن إلقاء
الشعر، وكوّر الورقة في يده، وأخذ يضغط عليها. في توتر
وَألم، بينما صاح أحد الإخوان في وجهه :

— ١٦٦ —

— « كفى . . كفى . . »

وظلت « ضحى » هكذا دقيقتين أو ثلاث ، ثم انتصبت واقفة ، وأخذت تجفف دموعها . . وعادت إلى ممارسة عملها ، لكنها كانت هذه المرة صامتة منكسرة الرأس ، والشحوب يوشح وجهها .

وهمس الأزهرى الفدائى :-

— « ما كنت أحسب أن لشعري هذا التأثير كله . . »

فصاح به أحد جيرانه :

— « لست شاعراً ، ولكن أنت « ندابة » فى ماتم . . »

— « أنت لا تفهم فى الشعر . . »

— « وأنت لا تعرف ما هو الذوق »

وابتسم الأزهرى ، وأشرق وجهه بالسعادة العظمى وهو

يسمع « ضحى » تقول :-

— « إنها كلمات رائعة معبرة .. لكأنك كنت معنا فى حيفا .. »

وانتابته فورة حماسة بالغة ، فقال وهو يلوح بيده كمن يهتف

فى مظاهرة كبرى :-

— « أنا معكم إلى الأبد . . »

- ١٦٧ -

فجذبه جاره في ضيق وقال :-

- « أ عقل يا مولانا . . »

وعاد الضحك والمرح من جديد ، وغرق العنبر في جو المودة
والبشاشة والامل ، وسرعان ما رجعت الابتسامة إلى ثغر «ضحى» ،
ثم شملت الجميع بنظرة حانية ، فشعرت بسعادة قصوى تناسب
في أعماقها البيضاء . .

ونظرت إلى باب العنبر وقد سمعت دقات أجراس «مينة» ،
ولمحت على الفور إحدى الممرضات الصغيرات تقول مسرعة :-

- « حالات استقبال جديدة . . »

- « قادمة حالا . . »

وصاح الأزهرى وهو يصفق .

- « مرحباً بالرجال . . »

كان الطبيب يقف بباب حجرة الاستقبال متثائباً ، والنوم
يغالبه ، فقالت وهي تستأذنه في الدخول :

- « انك لم تكذ تستريح . . »

- « كلا . . هذه الدقائق ، قد جددت نشاطى تماما ،

وأمدتني بطاقات جبارة . . »

- ١٦٨ -

ووقع بصرها أول ما وقع على رجل قصير حاد النظرات ذى
لحية سوداء، ثم رأت من خلفه «خميس شاهين»، وأذهلتها المفاجأة
فهمست وهي تحاول أن تتماسك :

— «خميس؟؟»

فأسرع قائلاً والفرحة لا تكاد تسعه :

— «إنها زيارة خاطفة»



الفصل الخامس عشر

قال « خميس شاهين ، اضحى وهى تحمى الضمادة على جرحه :
- « لست أدري لماذا لا يعيش الناس إخوة » .

قالت باسمه :

- « لا مجال للفلسفات وسط غواصف الحرب ،
- « كلا يا عزيزتى ، فأنا أفكر دائماً ، إن حمل السلاح ،
والزحف على الحصى والرمل والشوك لا تنهكنى بقدر ما تنهكنى
أفكارى الملتهبة . . »

وشردت « ضحى ، يبصرها بعبداء لبضع لحظات ، ثم ، قالت :
- « وأنا بدورى أسألك لماذا لا يعيش الناس كاهم أصحاب . . »
- « مادامت هناك جرائم فلا بد من المرض . . »
« وما دمت هناك أحقاد ، فالنفوس المريضة وجودها بديهي ،
ولهذا تهتز وتضعف روابط الأخوة بين البشر . . »

لم يكن يخفى على « خميس ، ذلك التغير العجيب الذى يلحقه
كلها التقي بضحى ، فإذا مارآها استشعر الأمن والرضا ، وأدركته
راحة نفسية ساحرة ، إنها توحى إليه دائماً بالحب والسلام ، ولم
يكن هذا تناقضاً فى عواطفه وسلوكه ، فهو فى المعركة رجل جهاد ،
(١١ - ارض الأنبياء)

وهو مع «ضحى» ابن أمة مسلوقة الحق ، لكن خوضه للحرب لا يعنى عشقه للدم والجراح ، إن الحرب شر لا بد منه ، كالطلاق الذى هو أبغض الحلال إلى الله ، وما الحرب فى رأيه إلا وسيلة اضطرارية لردع المعتدى ، وإحقاق الحق ، وإرجاع الأشياء إلى طبيعتها السوية العادلة .

— أجل يا عزيزتى . . الحرب جريمة . . .

— « بالنسبة لمن ؟؟ »

— « بالنسبة لمن أشعلوها يا ضحى . . . »

— « ومن ثم فلا مجال لمناقشة هذا الأمر . . . »

— « آه . . إنه يعذبني . . عندما نعود إلى «حيفا» ، وتصبح فلسطين كما كانت دائما دولة عربية حرة ، فسأنسى أن هناك شيئا اسمه السلاح ، سوف أمسك فى يدي غصن زيتون أخضر ، وأحلم فى ضوء القمر ، وأقرأ الكتب ، وأعلم الصبغة ، وأشارك فى الجمعيات الخيرية ، وننعم بالحب والسلام . . . »

وضحكت «ضحى» حتى بدت نواجذها بيضاء كاللبن الحليب ، وانتهت من رباط الضمادة ، ثم جلست قبالة ، وأرخت نظراتها قائلة :

— « لو تحقق حلمك ، فلن يكون على هذه الصورة المفرقة فى المثالية ، ستجد نفسك مضطرا لأن تحمل السلاح حفاظاً على ما نلته من نصر ، أجل . . لا بد من أن تحمى حريتك واستقلالك

ومستقبل أجيالك بوسائل القوة التي وهبها الله لك : لن تكون عادياً
أو طاعياً بالطبع ، ولكنك ستكون رجلاً يقظاً يحرس أمن أمته
ومبادئها .. كثيراً ما يردد أبي آية عظيمة من آيات القرآن الكريم:
« كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرِهٌ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً
وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ
وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .. »

فهمز « خميس » رأسه قائلاً :

— « صدق الله العظيم .. »

وعادت « ضحى » تضحك من جديد وتقول :

— « يبدو أن الحرب تورثنا القلق وتقلبات العواطف ،

اليوم دعاة حرب أشداء ، وبعد ساعة ، دعاة سلام أوفياء .. »

لم يستطردا في الحديث فقد تصادف مرور القائد في هذا

الوقت ، كان يمر في خطوات قصيرة مسرعة دون أن ينظر هناك

أوهنا ، واعتدل « خميس » في جلسته ، وبدا عليه أنه يكن للرجل

احتراماً أكبر بكثير من توقير الجندي لقائده وهتف « خميس »

عند مروره أمامه :

— « هل استخرجوا الرصاصة من كتفك ؟ »

— « حمداً لله .. كل شيء على مايرام .. »

— « أرجو أن تكون سعيداً .. »

— ١٧٢ —

فقال القائد وهو يمضى فى طريقه ويتوارى عند منحى الممشى :

— « القعود هنا مل ،

فنظر « خميس » إلى وجه « ضحى » متأملاً ثم تساءل :

— « مل ؟؟ »

فقطعت عليه استطراده قائلة :

— « من هذا الرجل ؟ »

— « رجل عظيم .. إنه قائد كتيبتنا »

— « صدق ظنى .. كلما رأيت سمته وصمته وحزمه ، شعرت

أننى أمام رجل من صانعى التاريخ .. أولئك الرجال الذين كان أبى
يحدثنى عنهم دائماً .. »

ثم التفتت مرة ثانية إلى « خميس » قائلة :

— « من هو البطل ؟ .. »

— « هو الانسان الذى يضحى من أجل الآخرين ليحقق

لهم السعادة .. »

— « إنه ينسى سعادته إذن .. فالأبطال أشقياء .. »

— « كلا يا عزيزتى .. ان تضحيته تغمر قلبه بالسعادة ، ومن

ثم فهو سعيد حين يقدم السعادة للآخرين . »

ثم تنهدت وقالت :

— « آه . إنى مثلك .. أفكر كثيراً .. »

— ١٧٣ —

« بلا شك ، هذه المأساة تصهرنا لتخلقنا من جديد ، إنها تهز أسس المجتمع الذى نعيش فيه ، ومن شررها المتطير تتولد أفكار وقيم جديدة ، هذه المأساة ستغير معالم الحياة فى بلادنا ، وستكون بداية لثورة شاملة كبرى .. هذا ما أعتقد ، فقد رأيت نماذج جديدة من الرجال والأفكار فوق ثرى فلسطين ، وفى هيب المعارك الدامية .. »

وهبت « ضحى ، واقفة ، وأخذت تنسق هندامها ، وتبحث عن حقيبتها ثم قالت : -

— « آن أن أعود إلى المعسكر ،

* * *

فى منتصف الليل التقى القائد بخميس شاهين وبعض قادة الفدائيين الذين وفدوا من مواقع مجاورة، وفى هذا الاجتماع الصغير دارت أحاديث على جانب كبير من الخطورة ، كانت هناك رسائل تنشر ، وتقارير تقرأ وحوار عاصف يدور ، وسياء الغضب ترسم على الوجوه ، وشرر الثورة ينبثق من العيون ، ومن آن لآخر تدق قبضات الأيدي المناضد الخشبية فى عنف واحتجاج . لقد تأكد لهم أن هناك فضاء مسترة برغم التقدم الحربى نحو تل « أيب ، فالسلاح الجديد الذى استوردوه من بعض دول أوروبا ، اتضح فساده وضرره ، إنها جريمة أن يمسك الجندى المصرى بسلاح

- ١٧٤ -

يرجى أن يطلقه ، فإذا بالنار تنفجر فيه ، وإذا هو يموت يبيده
لا بيد أعدائه : وقال القائد موجهاً الحديث لرفاقه : -

- « إن ثمن هذا السلاح الفاسد مدفوع من جيب الشعب
الفقر الكادح ، إنه عرق الفلاح والعامل والموظف ، حرموا
أنفسهم من الرغيف ، وحرموا أطفالهم من المتعة ليقيموا بواجبهم
المقدس ، فإذا بباشاوات القاهرة وملكها يأخذون هذا المال ،
ويختلسون أغلبه ، للملك جزء ، ولبطانته جزء ، ولتجار الموت
الذين سافروا إلى أوروبا جزء ، والباقي يشترون به مخلفات فاسدة ،
لا شك أيها الإخوة أنهم اشتروا هذا السلاح من عصابات يهودية
بطريق غير مباشر ، إن معنى هذه الصفقة من الأسلحة الفاسدة معنى
خطير ، إن الحكام لا يفكرون في المعركة إلا من ناحية أنها مصدر
لثرائهم واستغلالهم ، إنهم بهذا يفتلون أنظف عناصر هذا الشعب
من الشباب والضباط والجنود ، ويتعاونون صراحة مع الأعداء ،
وينفذون المخطط الاستعماري الصهيوني .. إن فاروق وزبانيته
مجرمو حرب .. »

وهتف « خميس شاهين » :

- « مجرمو حرب ؟؟ »

-- « أجل .. فأنا أعى كل كلمة أقولها .. لست متهوراً ولا
مندفعاً ، ما معنى أن تعطيني سلاحاً فاسداً ، ثم تأمرني بخوض

— ١٧٥ —

المعركة ضد جنود مسلحين بأحدث الأسلحة الأوربية والأمريكية ما معنى ذلك ؟؟ إنها أحكام إعدام جماعية مستترة .. إنها خيانة لقضية فلسطين وقضية العروبة .. خيانة للدم الشهيد .. خيانة لله أيها الإخوة .. لو كانت هناك عدالة ، لأنزلوا فاروق من فوق عرشه . وجمعوا معه بطانة السوء ، ثم أشعلوا فيه وفيهم النار في أبرز ميادين العاصمة لتكون عبرة لكل طاغية في مصر أو في غيرها .. ماذا أقول أيها الإخوة .. أنحارب اليهود أم نحارب الخونة في صفوف شعوبنا ؟؟ نحن بين نارين .. »

أخذ القائد يجفف عرقه ، كانت كل عضلة في جسده تختلج ، وكانت الأفواه من حوله صامتة جامدة ، والحيرة معقودة على الرموس المرتفعة ، وحرارة الجو تزيد الموقف تأزماً وحدة ، وأنين مختلط ينبعث متتابعاً من عنبر الجراحة القريب ، وكأنه موسيقى تصويرية لمشهد مؤثر حزين ، وصر القائد على أسنانه قائلاً :

— « أليس مضحكا أن نحارب أعداءنا بسلاح نشتره منهم .. أتدرون متى ننتصر ؟؟ عندما نصنع سلاحنا بأيدينا ، ولن نفعل ذلك إلا إذا كسرنا الأيدي التي تعوق انطلاقنا ، هذه الأيدي هي الحكم الفاسد والاستعمار الذي يحميه .. »

قال « خميس » تخالط نبراته رنة ألم :

— « ليسمح لي السيد القائد أن ألق النظر إلى مسألة هامة ،

لقد خضنا المعركة . ونحن نعلم سلفاً أن خلف ظهورنا خناجر مسمومة ، وكان لا بد أن نخوضها ، وكل ما أستطيع أن أقوله الآن هو أن نركز أفكارنا حول موضوع واحد ألا وهو المعركة التي نخوضها . . .

قال القائد في حدة :

— « إنها معركة واحدة .. »

— « لنستمر في زحفنا نحو تل أبيب ، ونؤجل الأمور الأخرى »

— « أتضمن لنا عدم تسديد طعنات أخرى في ظهورنا ؟؟ »

— « بالطبع لا .. »

— « أرأيتم؟؟ الروس الفاسدة التي تهيمن على مصائرنا سوف

توردنا موارد التهلكة ، هذه حقيقة يدركها المخلصون من رجال

الجيش في مصر ، إنهم يطوون صدورهم على مرارة قاتلة .. »

وانتفض « نخيس شاهين » واقفاً وقال :

— « إنها مأساة .. لكن ما هو الحل ؟؟ »

رد القائد في اكتئاب :

— « أجل ما هو الحل ؟؟ إننا نبحث عنه جميعاً .. »

لم تكن هذه المشا كل لتجد الحل السريع ، ولم يكن من المنطق

أن يستطيع بضعة رجال تصفية الأفق المسكفر بصور من القرارات

أو المغامرات الدامية ، فلو فكروا الآن في تأديب المارقين وتطهير أداة الحكم ، وتخلوا مؤقتاً عن معركة فلسطين ، لا انتهى الأمر وابتلعها الصهيونية ، وانجابت سبب القلق والضياع بعد هذه المناقشة الحادة العاصفة ، وقال القائد وقد ترقرقت الدموع في عينيه :

— « ليس من الحكمة فعلاً أن نفتح أكثر من جبهة . »
قال « خميس » :

— « هذا ما أردت قوله ، ليس أمامنا سوى المضي في كفاحنا على هذه الأرض ، وانتصار قضيتها انتصار للقيم والمبادئ التي تتوثب خلف ضلوعنا . . ثم لا تنسوا أيها الإخوة أن آلاف غيرنا يقلقهم مصير أمتنا ، لا شك أن في القاهرة وبغداد وعمان وغيرها أحراراً كثيرين يرقبون الأمور ، ويتحرقون شوقاً لإصلاح الحال ، وتصفية الحكومات الفاسدة . . »
واندفع أحد الرجال الصامتين قائلاً :

— « ومع ذلك فلا مجال لليأس ، قواتنا لم تتراجع . . إننا ننتصر ، ما أكثر السجناء الذين تحرروا من القيود ، وسحقوا سجانينهم ، بالأمس انتصرت الهند برغم آلاف الجنود البريطانيين وبرغم فقرهم في المال والسلاح والغذاء وكل الإمكانيات . . »
وسننتصر بإذن الله . . .

كان الليل قد مضى إلا أقله حينما آووا إلى مضاجعهم ، وفي
رأس كل واحد بركان يتفجر ، وبقيت العيون مفتوحة برغم
الظلام والتعب والصور القائمة ، وما كان باستطاعة ضمائرهم
الحية أن تجدد إلى الراحة أو النوم سبيلا تحت هذا الأفق الدامي
المشحون بشتى الاحتمالات والمخاوف . .



الفصل السادس عشر

لم يكن « نادر سليمان » ابن ثرى « حيفا » يفكر أن أمره سينكشف في يوم من الأيام ، وما كان يدور في خلدته أن خيانتته ستتجلى وتصبح فضيحة كبرى تنقلها الألسن ، ويرويها المجاهدون في غيظ وهم يتسلقون قمم الجبال ، أو يجتازون بطون الصحراء ، ولو كان اللص متاً كذاً أنه سيقبض عليه متلبساً بجريمته ، والقاتل تحت جناح الظلام معتقداً أن عيوننا ترقبه في الخفاء لما جرؤ هذا أو ذاك أن يرتكب الحماقات ، دارت رأس « نادر » بهذه الأفكار المؤلمة وهو يقاد ذليلاً مغلول اليدين ، فطأ رأسه في خجل ، وانسكبت دموع صامته على خديه الخائرين . وكلما تذكر أن الأصابع تشير إليه في اتهام ، وأن العيون ترمقه في احتقار ، ازداد جريان دموعه ، وشعر بما يشبه الشياطين الحارقة يلهب روحه المعذبة ، وتمنى أن تنخسف به الأرض ، أو تختطفه يد مجهولة وتقذف به إلى حيث لا يلحق به أحد ، لقد ضاقت الدنيا من حوله ، وكاد اليأس يقتله ، وهم أن يرفع وجهه إلى السماء ضارعاً متوسلاً ، لكنه لم يستطع ، فكيف يرفع إلى الله وجهاً تلطخه الخطيئة ، أو يدين ملوثين بأحوال الحياة .. خان من؟؟ خان شعبه بأسره ، وقضية أمته المظلومة ، وخان دماء الشهداء والمناضلين الأحرار ، وتنكر

لدعوة الله ، وداس كل القيم الفاضلة ، ومبادئ الرجولة والشرف ، ولماذا خان؟؟ من أجل أن يحفظ لأبيه ثروته ، ولكي يخلف أباه على هذا الثراء .. يا للعار هل يثق في وعود اليهود؟؟ أليس من الجائز أن يقوم بدور الخيانة ، ثم يلفظه اليهود ويستولوا على كل ما يملك؟؟ وهل ضمن لنفسه امتداد العمر بحيث يستطيع أن يؤكد لها وراثة المال والجاه؟؟ وأي مال وأي جاه في ظل الاستعمار اليهودي؟؟ ألم يفش سره واحد من أولئك اليهود الذين وثق فيهم وخان شعبه وضميره من أجلهم؟؟ إن اليهودي لا يقدر الشرف أو التضحية ، لأنه لا يفكر إلا في نفسه وأطماعه ، وهمس «نادر» لنفسه في نبرات مرتجفة بائسة : «ألا يمكن تدارك مافات؟» لقد كان انكشاف أمره زلزالاً عنيفاً ، هز أصول تفكيره ومعتقداته ، لقد استيقظ من نومه وانحرفه على دوى الانفجار الهائل ، إذما أسهل أن يقارف المرء الرذيلة بعيداً عن أعين الناس ، وما أن أشق أن يجاهر بها وسط قوم شرفاء ، يتأذون لمشاهدها القادرة .. «لو يعود الزمان إلى الوراء ، وتشطب هذه السطور المخزية من سجل حياتي وأملك زمام نفسي ومصيري من جديد ، لكان لي سلوك آخر ، يشابه على الأقل سلوك امرأة شجاعة «كنجلاء» .. آه .. «نجلاء» هذه الأسطورة الفاتنة ، التي كنت أعدها أنموذجاً لا يظهر إلا في الخرافات التي تروىها العجائز . أو الأكاذيب التي تروجها كتب التاريخ لتغرس في النشء حب التضحية والبطولات القومية ..

لو امتد الزمن فترة أخرى .. أعنى لو استطاعت « نجلاء » ، أن تفتح قلبها لى ، وتهبى هواها ، وتتفرغ لضارتي ولو لبضع لحظات كل يوم ، لتعرضت حياتى لانقلاب شامل ، ولنسيت أمجاد أبى التافهة ، وثرأه العريض ، وجشعه الذى دفعنى وإياه للخيانة ، ولأصبحت الآن أحد أولئك الأبطال الذى ينتصرون لمبادئ الحرية والشرف على الأرض المقدسة ..

وفى بجن « غزة » ، استقر به المقام ، زنزاة كشيبة لا أنيس له فيها إلا وجه مأساته البشع ، وأشباح الذكريات السوداء تطل عليه من آن لآخر فتورثه الرعب والحسرة ، ثم صورة فتاة تقف خلف مدفعها فى تبتل وإيمان ، وكأنها تؤدى أقدس الصلوات ، ورجال شرفاء يقضون الليل والنهار فى جهاد مستمر ، لا من أجل أعراض الدنيا الفانية وأحلام الثراء ، والأجساد الشخصية الزائفة ، ولكن من أجل الله ، وانتصاراً لمعانى النبيل والوفاء والفضيلة ، وفى ليله الحالك الطويل ، يعيش « نادر » ، نهياً لأحزان قاتلة ، وندم كالجحيم حتى لقد أصبح يعتقد أن عذاب الله دون العذاب الذى يقاسيه فى زنزاته ، إن الحارس العربى يقذف إليه بالطعام وكأنه كلب حقير ولا يفكر مرة واحدة فى أن يجاذبه أطراف الحديث ، ونظراته ينبعث منها شرر حاقد يكاد يحيل « نادر » ، إلى رماد .. إنه محترق .. مذبذ .. ممزق النفس .. يتقلب على ما يشبه الجمر ليل نهار ..

فأهل الأرض يبصقون على نذالته ، والسماة تصرف وجهها عنه
لأن خطيئته من الكبائر ، فأين يذهب ؟ ؟

وعندما استدعوه إلى محاكمة عسكرية عاجلة ، كان يمشى بين
حارسين وكأنه في حلم ، لم تستطع ساقاه أن تحملاه ، فتوكأ على
كتفيهما ، كان ينظر إلى ما حوله نظرات ذاهلة مرتاعة ، فتتداخل
المرئيات ، وتختلط الألوان والوجوه والمشاهد ، فيشعر بشعور
الذى يضرب في التيه على غير هدى بعد أن كاد يقتله الجوع والظماً
والنصب . وعندما وقف أمام ضابط كبير وإلى جواره عضوا يمين
ويسار ، قال له الضابط :

— « أنت متهم بالخيانة العظمى . . مذنب أم غير مذنب ؟ ؟ »

ودوت هذه الكلمات في رأسه كالمطارق ، لم يستطيع أن يتكلم
فقد خيل إليه أن الرجال والجدران والمنضدة والمقاعد وقطع السلاح ..
الدنيا كلها تردد بصوت كالدوى الهائل : « أنت متهم بالخيانة العظمى ،
كثيراً ما قرأ في الكتب والروايات عبارة كهذه ، لكنها لم تكن في
يوم من الأيام لها هذا الدوى وهذه الرحفة الشديدة . . كان يقرأ
أخبار الثورات والخيانات والمشائق والدم بأعصاب باردة ، وكأنه
يتسلى على رقعة شطرنج ولا يهمه أن يموت الوزير أو يحاصر الملك
أو ينتصر أو يهزم . . لكنه اليوم في وضع مختلف . .

— ١٨٣ —

وجاءه صوت المحقق مرة ثانية ، لكنه كان جافاً حاسماً :

— « مذنب أم غير مذنب . . . »

قال « نادر » في شرود :

— « ما معنى ذلك ؟؟ »

— « أنت تعرف .. لقد تجسست لحساب الأعداء ، وبعثت
وطنك وتنكرت للأرض التي حملتك رضيعاً وصديقاً وشاباً ،
وفتحت أمامك وأمام أهلك فرص الثراء . . . تنكرت للقيم
الفاضلة التي تجعل من المخلوق البشرى إنساناً بكل ما تحمله هذه
الكلمة من معنى . . . »

قال « نادر » مرة ثانية :

— « ما معنى ذلك ؟؟ »

— « معناه أنك أناني . . . خائن . . . تسببت في سفك دماء
إخوانك فأنت قاتل أيضاً . . . وكنت تمد العدو بالمعلومات
العسكرية ، وتكشف عن تحركات المجاهدين ، وتتعلم بأوهى
الأسباب لتتقاعس عن خوض المعركة ، بل تحاول أن تثبط عزائم
زملائك ليرفعوا الراية البيضاء . كنت أخطر عليهم من ألفي جندي
إسرائيلى كاملى العدة والتنظيم . . . مذنب أم غير مذنب ؟ ! »

ورويدا رويداً أفاق « نادر » ، إلى نفسه ، تمالك أعصابه ، واعتصم

ببقايا إرادة هاربة ، ولعل شبح الموت المائل في خياله أمدده بقليل
من التشبث والاستمساك بأهداب الحياة ، فهتف والدموع
على خديه :-

- « إنها وشاية يهودية تريد أن تمزق وحدتنا بإثارة الشكوك ،
قال المحقق في برود :-

- « ولماذا احتفظت بجهاز لاسلكي إسرائيلي وبمفتاح
الشفرة معك ؟

- « »

- « ولما قلت عقب انكشاف أمرك ، أيها البلهاء . أتم
تجاربون إنجلترا وأمريكا وفرنسا ، تجاربون أوروبا . . لنقبل
الأمر الواقع . أنتم مغرورون . . لماذا قلت هذا ؟؟ »
- « لم أقل هذا ،

- « لكن أفراد كتبية عمر بن الخطاب لا يكذبون . . . »

- « »

- « ثم لماذا أفشى الضابط اليهودي سر ك ؟؟ »

- « »

وانفجر « نادر ، باكياً ، كان يحاول أن يجذب شعره ، ويدق
رأسه بقبضته ، ويضرب قدميه الأرض الصلدة ، ويتأوه ويصرخ

— ١٨٥ —

كفتاة اختطفها فرسان الزمان الغابر ، كان بلا أمل . . بلا منطق ، ولا يجد ما يبرر به خيائته ، ويحفظ عليه حياته . . وجفف « نادر » دموعه ثم قال :-

- « الرحمة يارفاق . . كان أبى وديعة لدى الأعداء . »

- « لكى تنقذ أباك قامرت بمستقبل الملايين ؟ ! أية وحشية

وأناية . . »

أنسيت أن مئات مثل أبيك وأشرف منه يموتون كل يوم
أبطالا شرفاء ؟ ؟

وأخذ المحقق يقلب الأوراق التى أمامه . . وران على الجميع صمت صاخب ، وبالنسبة « لنادر » كان هذا الصمت هو الموت بعينه ، وقال المحقق فى هدوء :

- « لو أرشدتنا إلى الشبكة التى تعمل معك لكان هذا فى

صالحك . . »

فصرخ « نادر » فى ألم :

- « لست محترف تجسس ، إنها نزوة شيطان . . »

- « حسناً . . أديك شئ تقوله ؟ ؟ »

رفع « نادر » رأسه وقال فى شجاعة لأول مرة :-

- « بقى أن أقول أننى مذنب . . لكن . . »

(١٢ — أرض الأنبياء)

— ١٨٦ —

— « لكن ماذا ؟ ! »

ألا تتسع قلوبكم للبخرة !؟ أقسم لو أعطيتموني فرصة الحياة
من جديد لعدت إلى الميدان ، وبذلت روحي وأبي وأعز ما أملك
في سبيل قضيتنا العادلة . . .

هز المحقق رأسه وقال في حزم .

— « إنه حكم الله . . . ولكم في القصاص حياة . . . »

— « إنه الموت . . . »

— « رمياً بالرصاص . . . »

— « متى ؟ ؟ »

ولم يجد جواباً ، خيل إليه أن الموت يدهمه من كل طريق ،
ويضيق عليه الخناق كتنين هائل ، واختلطت في مخه المشوش صور
عديدة ، أطنان الفاكهة التي يجمعها أبوه ، الآمال الحلوة التي
دأبت شبابه وذكرياته الزاهية في « حيفا » البعيدة ذات العبير ،
وليالي النضال الزائف على قمم الجبال ، وفي سراديب الكهوف
الرطبة الخافتة الضوء . ووجه « نجلاء » الملائكي الطاهر ، ونظرات
الشك في عيني « صالح بدران » ذلك الفتى الملمهم ، وخيبة الأمل الكبرى
التي ارتسمت على وجوه الرفاق عندما اكتشفوا خيانتته ، والضابط
اليهودي الأسير وهو يقذف بالحقيقة المدمرة ويميط اللثام عن

دوره القدر ، فتنهار قواه . . ثم أخيراً . . جسده الضامر
النحيل الفارع العود ، وهو يراه بعين الغيب يترنح تحت طلقات
الرصاص يوم يثار منه الشرفاء ومن نذالته ، وانهمرت دموع
«نادر» غزيرة ، كان جسده ينتفض ، ومن بين دموعه المنسكبة كان
يقول :

— «إننى أبكى نفسى ، إن الموت فى معركة شريفة شئ رائع
أيها الرجال . . لماذا لم أكن شريفاً ؟ : لماذا ؟؟ لماذا ؟ .
وضاعت كلماته اللاهثة وسط قرعة السلاح ، وصيحات الجند
وأوامر القادة ، ووقع الأحذية الغليظة وهى تدق الأرض وتذهب
به إلى زانزنته الكئيبة السوداء . .

الزنزانة والليل وأشباح الخطيئة والموت ، تتراقص إجماعاً
كلها من حوله ، وهو يدينها حائر تعس يقوم ويقعد ، يتلفت يمنة ويسرة ،
ويهرول عبر الحيز الصغير جيئة وذهاباً ، لكأن لوثة من الجنون
قد خالطت ذهنه ، فهو يحاول زحزحة الجدار السميك ، ثم يحاول
دفع الباب الخشبي الصلب ، أو يثب إلى أعلى عليه يستطيع أن يحطم
السقف ويطير بجناحين من الخيال . . إلى أين ؟؟ إلى أرض
مقفرة لا حياة فيها ولا أحياء ، حيث يعيش وحد. وينسى كل شئ
أباه . . والذكريات السوداء . . لا . . إنه يهذى ، هذه

أحلام طفل أبله ، يجب أن يكون عاقلاً وحازماً ، وأن يضع حداً لهذا العذاب والجنون . . لو كان رجلاً حقاً لمحاول أن يقتص من نفسه مثلها يقتصون منه اليوم . . قبل أن تشرق الشمس غداً ، فلسوف يقودونه إلى الساحة الرهيبة ، ثم يعصبون عينيه ، وفي لحظات يكون كل شيء قد انتهى لكن ، ألا يجوز أن يعفوا عنه؟؟ وقهقهه نادر ، ساخراً . . وغمغم : «لم أزل أحلم . . » ، ثم نظر إلى « البرش » الذي ينام عليه ، وعلى الفور جلس ليصنع منه جبلاً متيناً . . .

وعندما فتح السجنان زناخته في الصباح المبكر ، كان « نادر » يتدلى مشنوقاً في جبل مثبت في أعمدة النافذة ذات القضبان المتشابكة . . ودلو الماء ملقى في أحد الأركان القريبة . . وصرخ السجنان وقد شخب وجهه : « لقد انتحر . . »

الفصل السابع عشر

الترام يقترب من حى السيدة عائشة . وعلى الرغم من حرارة الجو وازدحام الترام بالراكبين ، فإن الأستاذ أحمد بدران كان يلبس طربوشه ورباط عنقه ، ومنهمكا أشد الانهماك فى قراءة إحدى الصحف اليومية ، كان يعيش فى معركة فلسطين بعقله ومشاعره ، فارتباطه بالمعركة لأكثر من سبب ، فهى إلى جانب أنها قضية الوطن العربى الكبرى ، فإن هناك اعتباراً آخر له أهميته وخطورته ألا وهو مشاركة ابنه صالح فى هذه المعركة وارتباط مصيره بمصيرها ، كان يقرأ كل كلمة تكتب عن فلسطين فى الصحف والكتب ، وعندما يأوى إلى بيته يجلس أمام المذياع ويحرك المؤشر حتى يستمع إلى كل المحطات الإذاعية العربية منها والأجنبية ، حتى جلساته مع أصدقائه مفتشى المنطقة ونظار المدارس والمدرسين الأوائل لا يكون له حديث أكثر جاذبية ، وأشد قرباً من نفسه من حديث المعارك الدائرة على الأرض المقدسة ، وكانت تهزه نشوة الفخر والسعادة إذا سأله أحدهم قائلاً :

— ألم تأت أخبار عن صالح؟؟ ،

كان يشعر آنذاك أن صالح رجل عظيم ، وأن عظيمته فى نظره تفوق ما يصفىه المنصب على الوزراء ورئيسهم ومليكمهم ، إن صالح

الآن خارج حدود مصر ، بعيداً هناك في خط النار ، تفصله عن بيته آماد بعيدة ، يحيا حياة التقشف والنضال والبطولة كرجل حر ، وصالح فعل ذلك بناء عن تفكير حر ، وانبعث ذاتي لا دخل لأحد فيه ، إن صالح الآن ذو إرادة حديدية لا تهاب الموت ، ولا ترهب المستحيل . . يالها من حقيقة رائعة ، لو أراد الأستاذ أحمد بدران أن يصنع ابنه على هواه ، ويصنع له من الصفات والمبادئ ما يرضاه لما أمكنه أن يفعل أكثر من ذلك . .

وعندما بلغ مسكنه استقبلته زوجته لدى الباب ، كانت عيناها متورمتين ، وآثار الدموع لم تزال عالقة بأهدابها ، وما أن رآها على هذا الحال حتى صاح وهو يلوح بالصحيفة :

— « اللهم أخزك يا شيطان ! ، ماذا جرى يا امرأة ؟ »

فأدارت وجهها بعيداً عنه دون أن تجيب ، كانت انفعالاتها في قمة جيشانها ، وكان هو يدرك رهافة إحساسها بالنسبة لفتاها ، ومن ثم أراد أن يشغلها بالحديث عما تفكر فيه فقال :

— « لاشك أني سأجد متعة كبرى في الدجاج والملوخية . إنها

أكلتي المفضلة . . . »

ولم تستطع الأم أن تكبت انفعالاتها أكثر من ذلك فقالت

بصوت باكٍ :

- ١٩١ -

- « الخطأ منى أنا . . لو كنت حازمة لأغلقت الباب دونه
ومنعته من السفر . . »

فقال ضاحكا :

- « إذن لحاكتك بتهمة الخيانة العظمى . . »

فلما لم تستجب لهذره ، قال :

- « ماذا تظنين يا امرأة ؟؟ أتعتقدين أن أباً مثلى يغامر
بحياة ابنه الوحيد ؟؟ المسألة ليست إهمالا متعمداً منى أو منك ،
إن ابنك يؤدي واجبه ، هيبه فى فترة للتجنيد الإجبارى ، ماذا
كنت تفعلين . . ألا تذكرين أحد أصدقائى الذى مات فجأة منذ
سنوات وهو يلقي الدرس على تلامذته ؟؟ الموت والحياة بيد الله
يا امرأة ؟؟ لا تكونى ضعيفة الإيمان . . »

فالتفت إليه فى ثورة :

« ابنى فقط . . هو ما أفكر فيه . لماذا يذهب رفاقؤه إلى
الجامعة ، وينعمون بالحياة ، ويتزهون على النيل وفى الحدائق
العامّة وينامون ويذاكرون وينجحون ، وهو هناك يقاسى الحر
والحرمان ، ويعيش وسط الأخطار المحرقة ؟؟ لماذا هو بالذات ؟؟
إن من يرى الناس فى الشارع ، ومواكب السادة وحفلات الترفيه
لا يصدق أن هناك حرباً تحرق الآلاف من الشباب اليافع . . »

فقال وهو يخلع سترته ويقذف بها فوق السرير بعنف :

— ١٩٢ —

— « إنها الأنانية .. دائماً تفكرين في نفسك ، وتنظرين إلى المثل السيئة .. إن ابنك ليس أنت .. وليس أنا .. إنه صالح نفسه ، له إرادته ورأيه الحر ، لينعل ما شاء .. إنه يخوض أشرف معركة من أجلنا جميعاً .. ومن أجل نساء مثلك وشيوخ مثلي .. يجب أن تؤمنى بهذا وإلا قذف الله بك إلى جهنم .. »

وانتفضت كمن لدغتها حية وهتفت :

— « جهنم؟؟ ماذا تقول يا رجل؟؟ »

— « إنك تدوسين كل القيم الغالية من أجل أنانيتك .. »

فقالت والدموع على خديها :

— « الحرب لا تعرف الرحمة يا أحمد »

— « وقلبك لا يعرف معنى التضحية »

— « وإذامات لا قدر الله؟؟ »

— « لن يموت .. »

— « كيف؟؟ »

فأخذ يرتل بنبرات خاشعة :

— « ولا تحسبن الذين قُتِلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند

ربهم يرزقون .. »

فقالت وهي تجفف دموعها :

— ١٩٣ —

— « قلب الأم يا أحمد . . . »

نطقت عبارتها الأخيرة في شيء من الذلة والالم ، فأثر فيه منظرها ، فوجدت الرقة إلى قلبه سبيلا ، وبدت زوجه في حاجة ماسة إلى العطف والعزاء ، لاشك أنها تعرف نبل الغاية التي يسعى إليها فتاها ، وتدرك عدالة القضية التي يدافع من أجلها ، إن ابنها أقرب منها إلى الحق . . . وإلى الله ، ومن ثم فهي تبارك خطواته ، وتثق في صدق نواياه ونظافتها ، ولكنه الضعف البشري الذي ينتابها من آن لآخر ، أو قلب الأم الرقيق كما تقول ، وليست أم صالح بدعا بين النساء ، فكلهن ينشدن السلامة والسعادة لفلذات أكبادهن ، ولا يجدن وسيلة للتنفيث عن ضعفهن الفطري غير الدموع . . .

واستطردت الأم قائلة :

— « كيف أبتلع لحم الدجاج وحببي في الصحارى الموحشة لا يأكل إلا اللقيمات الجافة والأطعمة المحفوظة . . . إنها قاسية . . . قاسية يا شيخ أحمد . . . »

قال زوجها مهوناً عايبها الأمر :

— هذه أمور تافهة . . . إذا امتلأت المعدة استوى لديها الديوك الرومي والطعمية ، الملايين يأكلون القديد بلا إدام ، وكثيرون لا يجدون ما يأكلون ، ويمدون أيديهم طالبين الإحسان . . . ابنك ورفاقه يأكلون ويشربون . . . ويسعدون ، يكفي أنهم سعداء . . .

وعندما يعود تستطيعين أن تدبجى له كل يوم دجاجتين .. هيه ،
 ماذا قلت ؟؟ لا تنسى أنى كنت مثلك فى بداية الأمر وكنت قلقاً
 على مصيره ، بل اعترضت على سفره ، فى نوبة من نوبات الضعف
 البشرى ، لكن الله سلم وأضاء قلبى بنور الحق ، كانت كلمات ابنك
 الفتية الواضحة كالسحر ، لقد بددت ضعفى وأنايتى .. اننا نحمد الله ..
 وغداً يعود .. ،

قالت وقد أشرق وجهها بطيف ابتسامة عابرة :

— « أيعود حقاً ؟؟ » .

— ياذن الله : . هيا يا امرأة .. احضرى الدجاج والملوخية ..
 هيا فإن عصافير بطنى تزقزق .. ،

قالت وهى تهرول إلى المطبخ :

— « فلينصره الله .. وليطل عمره .. »

* * *

كان الأستاذ أحمد بدران يتصنع الشراهة وهو على مائدة
 الطعام ، والحقيقة أنه منذ سفر ابنه ، وانشغاله بالأحداث السياسية ،
 لم يعد يقبل على الطعام بنفس الشهية القديمة ، حتى فترات نومه قلت
 إلى حد كبير ، فقد كان يعيش فى بيته بأعصاب رجل فى خط النار ،
 وأدرك الرجل بثاقب فكره أن الناس جميعاً — لا كما تزعم
 زوجته — يخوضون الحرب سواءً فى القاهرة أو فى فلسطين ،

وما استطاع الشعب في يوم من الأيام أن يفصل عن واقعة وعن الأحداث الجسام التي تهز جذوره . . وكانت زوجته تتناول لقيحات قليلة لا تكاد تقيم الأود ، وكاد الرجل يستغرب كيف تحيا زوجته وتمارس عمل البيت مع هذه الكمية البسيطة من الطعام ، لكنه يعود ويقول : « إنها قدرة الله . . فهو الذي يهبنا القوة والصبر والإيمان الذي به نعيش ، .. كانا يا كلان في صمت ، وبدا واضحاً أن صالح قد ترك فراغاً كبيراً في مسكن الأسرة ، كان يملأ البيت بالحديث والمرح والمناقشات الحادة مع أبيه ، وكان دائماً يتكلم عن المستقبل الجميل وكأنه أغنية عذبة ، وكان يثير عديداً من المشاكل الفكرية والفلسفية مع أبيه ، ولا يكف عن استطراده برغم اعتراض أمه على هذه السخافات والسفسطات التي تصدع الرأس ، ألا ما أشد شوقها إلى هذه « السخافات » ، وخرجت الأم عن صمتها قائلة :

— « زعموا أن الضباط من أبناء الباشاوات والكبراء لا يذهبون إلى الميدان ، وأن من لا تسعفه الوساطة يدفع الرشاوى .. »
فقال الزوج في ضيق :

— « لا يذهبون لأنهم ليسوا أهلاً لهذا الشرف .. لو ذهبوا لأفسدوا المعركة .. »
— « لكنه مخجل .. »

- ١٩٦ -

- « لا تنسى أن بعض الضباط الأحرار قد تطوعوا قبل دخول الجيش المعركة . . . وبعض من لم يصبهم الدور طالبوا بالجراح كي يسافروا إلى فلسطين . . . »

وسادت فترة صمت أخرى ، ثم قالت وهي تمضغ الطعام دون تلامذ :
- « وسمعت أيضاً أنهم زودوا الجيش بأسلحة فاسدة . . . »

قال وقد قطب جبينه :

- من روى لك هذه الأخبار ؟ . . . »

« الناس في الشارع . . . »

- « لكن قواتنا تنتصر وتتقدم ، ولو مضت الأمور على هذا المنوال فيسقط على اليهود في شهرين . . . »

وعاد الصمت يغلف المكان من جديد ، وحطت على حجرة الطعام وحشة من العسير أن تتبدد بمثل تلك الأحاديث القائمة المبتورة ، وتوقفت الأم عن تناول الطعام ، ثم سرحت بخيالها ، وبان في عينها الشرود ، وتسالت ابتسامة خفيفة إلى ثغرها ، فهمس زوجها :

- « فيم تفكرين ؟؟ »

- « أتخيله وقد عاد ، والأعلام والرايات تخفق فوق مسكننا ، واللبات الكهربائية الملونة تقلب البيت إلى شعلة من الأضواء

— ١٩٧ —

وكأننا في يوم عيد ، وجوقة موسيقية تعزف أعذب الألحان ،
والجيران والأقارب والأصدقاء يتوافدون مهنتين ، ويكرعون
أكواب « الشربات » . . . وفي هذا اليوم بالذات سوف نعلن
« خطبة » صالح لابنة أختي . . . وسنسعد بعودته وبخطبته . . .

فقال الزوج وهو يرفع كوب الماء إلى فمه :
— « أما العودة فستكون يوم عيد حقاً ، وأما موضوع
الخطبة فإنه يحتاج إلى سين وجيم . . . »
فقالت في غضب :

— « كيف ؟؟ »
— إنه أمر يخصه هو ولا دخل لنا فيه . . .
— « لقد قررته وانتهى الأمر ولن يعارضني فيه أحد ، ثم أنى قد
تقدمت لأختي رسمياً . . . »
— « هذا خطأ . . . »

قالت محتدة :
— « دائماً تصف تصرفاتي بالخطأ والحماقة ، أما أنت وابنك
فلا تخطئان أبداً . . . هذا ظلم . . . »
قال ضاحكا :

— « إنه أمر سابق لأوانه . . . »

- ١٩٨ -

- « بل يجب أن نبت فيه فوراً .. »

- « عندما يعود صاحب الشأن .. »

- « أنا أمه وأعرف مصلحته .. »

- « وأنا أبوه .. وأفهم الأصول .. »

لم تتطور المحادثة إلى مشادة ، فقد دق جرس الباب ، وذهبت
الأم ثم عادت وهي تكاد تطير من الفرح ، بل أطلقت على الرغم
منها زغرودة عالية ..

وهب الأب واقفاً ، وقد أذهلته المفاجأة :

- « هل عاد؟؟؟ »

- « بل جاء منه خطاب .. »

واحتضنت الأم خطاب فتاها ، ضمته إلى صدرها في شوق عارم
وكأنه « صالح » وليس قصاصات من الورق ، ثم رفعته إلى فمها وأخذت
تقبله في حرارة وتهمس : « يا حبيبي .. ألف نهار أبيض » ، ولم يعد
بالرجل حاجة إلى الطعام على الرغم من بقاء معظم الدجاجة على
المائدة ، وبقاء أطباق الملوخية دون نقص يذكر ، وتناول منها
الخطاب بيد مرتعشة ، وهو يقول : « لماذا لم يكتب إلينا من قبل؟؟
لماذا؟ هذا إهمال كبير منه .. إن الخطابات ترد الروح .. » ، وفض
الخطاب وأخذ يقرأ :

« أبي .. أمي ، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته .. »

أكتب إليكم وطوفان من المشاعر الحلوة الشجية يغرقتني في بحره .. لأنني أتذكركم دائماً .. وأشعر أنكم إلى جوارى .. دعواتكم الطاهرة يتردد صداها في قلبي .. دائماً أتم في عقلي وقلبي وأحلامي عندما تغفو عيني .. صلتى بكم دائماً ، وحنيني إليكم لا ينفد ..

أبي .. أكتب إليكم بعد أن تقدمنا أميالا عديدة ، وبعد أن استطعنا في مدة وجيزة أن نطهر منطقة « بتير » و « سورباهر » وما حولها من أوكار الصهيونية ، إننا نتقدم دائماً ، ولا نتقهقر خطوة واحدة إلى الوراء .. الله معنا يا أبي ، وذلك لأن الحق في جانبنا ، لأننا نخوض معركة الشرف والحرية .. وهذه الأرض التي نحارب فوقها تحنو علينا كأمر رءوم ، تبوح لنا بأسرارها وقدسيته وتحفظ أسرارنا ، وتشي بأعدائنا .. إنها مثل أرضنا تماماً ، ولذا لا تراودنا أحاسيس الغربة والفراق .. أبي .. إني أكتب إليك بسرعة ، من فوق تبة عالية تشرف على منطقة يهودية شرسة ، نزمع في القريب العاجل مدهمتها ، وسنحتلها بإذن الله .. إننا هنا مجموعة من الشباب العربي من كل الأقطار .. تمثل الوحدة العربية على أروع صورة ، فالمعركة واحدة والمصير واحد .. لكم يسعدني أن أحارب جنباً لجنب مع هؤلاء الرفقاء الاطهار ..

أبي .. الوقت ضيق ، والمشاكل كثيرة .. ولهذا أراني مضطراً

لإنهاء خطابي ، ولى عودة قريبة إن شاء الله علني أستطيع أن أكتب
خطابا مفصلا يرضى شغفك وتعطشك لأخبارنا . . ولا تنس أن
تقبل لي وجنتي أمي ورأسها ويديها . . ومرسل طيه صورة
فوتوغرافية مع بعض الأخوان هدية إلى والدتي الحبيبة . . والسلام .

صالح أحمد بدران
كتيبة عمر بن الخطاب

أغمض عينيه للحظات ، وظل شاردا ، وتورد وجهه بحيوية
ظاهرة ، بينما كانت زوجته تحاول جاهدة أن تخفي دموعها بدون
طائل ، وأخذ يعيد تلاوة الخطاب ، وكأنه برتل أعذب الألحان .
ثم وضع الصورة أمامه ، وأخذ يتفحصها ، إلى أن وقعت عيناه
على صورة «صالح» ، ووجد نفسه يحني رأسه ، ثم يقبلها في خشوع ،
واقتربت الأم ، ودقت النظر . . كان يبتسم في سعادة ومن حوله
دلائفة من الشباب يرتدون الزي العسكري ، وفي الوسط رجل
قصير ، ذو لحية سوداء ، كانت تتأمل الصورة وكأنها في صلاة . .
وأيقظها زوجها من شرودها قائلا : -

— « انظري . . من يقف إلى جوار «صالح» ؟؟ »

فقالت بعد فترة :

— « ماذا ؟؟ »

— « إنها فتاة . . »

— « وتحارب ؟؟ »

- ٢٠١ -

- « ولم لا؟؟ »

- « ماذا جرى في الدنيا؟؟ »

- « تغيرت يا زوجتي .. »

ووضعت الزوجة الصورة في يد زوجها ، ثم فكرت قليلا

وهمست في قلق : -

- « ولماذا وقفت هذه الفتاة إلى جوار صالح بالذات؟؟ »

- تعنين ، لماذا وقف هو إلى جوارها .. »

ثم انفجر ضاحكا ، ووجهه يفيض بشرا وسعادة ..



الفصل الثامن عشر

الحرب دائرة . وعديد من الجبهات يشتد فيها الصراع ، ودم يراق صباح مساء وحقاقت ترتكب من قبل اليهود ليس لها مبرر من منطق أو أخلاق ، وإذا ما انتصر الإسرائيلي في معركة من المعارك لسبب من الأسباب الفنية انتفخت أوداجه بالنصر ، وخيل إليه أنه قوة ما بعدها قوة ، لا تستطيع أية مقاومة أن تقهرها ، والأغرب من ذلك أن هاتيك الانتصارات الصغيرة التي نادراً ما تحدث توهم اليهودي أن حقه في أرض فلسطين لا شك فيه ، ومطالبته بها لا غبار عليه ، لكان القوة والنصر هما العنصران الوحيدان اللذان يدعمان منطقهم المهز ، ويبثان اليقين في قلبه ، وعندما يهزم الإسرائيلي سرعان ما تنجاب عن بصره الغشاوة ، ويتجلى زيف عقيدته ، وينكشف طمعه . . . وتبدو الأكذوبة طارية من كل ستار ، بشعة كالعار والخطيئة والاستغلال . . . وهكذا كانت القضية تتكون أمام أعينهم بألوان متباينة شتى ، فقد تصبح باطلا وقد تسمى حقاً ، لا ثبات ولا استقرار ولا يقين . وفي المناطق الساحلية التي كان اليهود قد احتلوها طبقاً للتوأمة الإنجليزية ، بقيت بعض مناطق نفوذ عربية ، ولم يكن لدى اليهود أدنى شك في أن هذه المناطق المحصورة التي لا تملك الجنود

المدرين ولا السلاح أو المئون الكافية ، ستهوى تحت ضربة واحدة من ضرباتهم ، بل يكفي أن يعلنوا انتقاهم إليها فتفتح لهم الأبواب ، ويرفع الآلاف المحاصرون راية الاستسلام ، ولم كانت دهشتهم عندما فوجئوا بالمقاومة . . . حتى القرى الصغيرة حيث لا يوجد غير رعاة الأغنام أو صيادى الأسماك أو المزارعين ، كانوا يقاومون بأتفه الأسلحة في صلابة واستماتة ، ولم يكن يعينهم جموع العدو وهي تطبق عليهم من كل مكان بأعتى ألوان الأسلحة وأشدّها فتكاً ، وكانت العصابات الصهيونية ترى هذا جنوناً ، أما العرب المحاصرون فكانوا لا يفكرون إلا في شيء واحد ألا وهو أنهم لا يمكن أن يلقوا السلاح ويفتحوا الطريق للغزاة بلا مقاومة ، كانوا في هذه المناطق الساحلية - التي ينتشر فيها اليهود ويتخذونها قاعدة انطلاق لتحقيق مآربهم الخبيثة - كانوا يرون الاستسلام عاراً ، ويرون أنه من الطبيعي جداً أن يقاوم العربي ولو كان أعزل ، فهم يؤمنون بأن الموت أهون من الاستسلام أهون من العار ، ولم يكن في حسابان اليهود أن يلقوا هذه المقاومة وأن يضحوا ببعض التضحيات المادية والأدبية ، ويفقدوا بعض الرجال ، في منطقة يرون أنها قد دانت تماماً لهم . وزرعت هذه المقاومة الميثوس منها في نفوس اليهود حقداً مريراً ، فكانوا إذا ما احتلوا جيئاً من هذه الجيوب الصغيرة ، اندفعوا إلى داخلها في جنون ، وتفننوا في وسائل العدوان والقسوة ، كانوا يسوقون الأسرى إلى ساحات الموت

مقيدين بالحبال ، ويصبون عليهم النيران حتى يفنوا أكبر عدد منهم ،
ويشعلون النيران في بيوتهم ، ويدوسون على كل شريف وغال
لديهم ، ولا يعينهم أن يقتلوا طفلاً ، أو يذبحوا شيخاً ، أو يغتالوا
امرأة . . . كل همهم أن يستولوا على الأرض والغنائم ،
ويتخلصوا من الطاقات البشرية بلا رحمة . إن حقدهم البشع قد
طمس معالم السمات الإنسانية في تصرفاتهم وكلماتهم ، على الرغم
من أنهم يمثلون حضارات العالم الغربي الحديث ، ويعبرون عن
ثقافته ومعتقداته . . ذلك الذي يسمونه العالم الحر ، فهم
يحاربون بسلاحه ، ويسرون حسب تخطيطه ، وينالون منه العون
المادي ، والتأييد الأدبي ، ويشكرون له تأييده لقضيتهم « العادلة »
وحمايتهم من التشريد والهوان ، متجاهلين أنهم - بعونه -
يشردون الملايين صاحبة الحق الشرعي . ويدوسون مقدساتها
وأحلامها في حياة حرة شريفة : -

ومع مولد كل صبح تنبت آثام جديدة تنبى عن ضراوة
المعركة ووحشيتها . .

هذا إسرائيلي يقبض عليه وهو بلوث برأ عربية بجرائم
فتاكة ، من هذه البر يشرب الجنود والمواطنون على السواء ،
ويقبض على الجاني متلبساً بجريمته ثم يساق إلى معسكر الأسرى ،
حتى المخالفة لكبرى الاتفاقات الدولية التي تحرم حرب الجرائم

لم يقتل مرتكبها .. كان العرب لا يفكرون في قتل الإنسان الخاطئ بقدر ما يفكرون في القضاء على انحرافه ومظاهر طغيانه ، ولا يلجأون إلى القتل إلا عندما لا يرون علاجاً سواه ، بل لانهم لا يفعلون ذلك إلا في الحدود المشروعة ، وبالطريقة التي لا تزيد في عذاب الإنسان وهوانه ، والعربي لا ينسى آداب الحياة التي رسمتها عقائده ، إنها جزء من طبيعته وسلوكه وتراثه لا يستطيع منها فكاً . ولأنه كان يقرأ دائماً في كتبه المقدسة لا تقتلوا الأسرى .. لا تمثلوا في القتلة .. لا تسفكوا دم طفل أو شيخ أو امرأة .. حتى الحرب لها آدابها .. الآداب التي لا تعرفها الحضارة الأوربية أو على الأصح لا تؤمن بها ..

وهكذا اندلعت النار في كل مكان من الأرض المقدسة ، واشتد أوارها ، ووسط اللهب يموت الإنسان ، ويلقى أبشع مصير ، ويولد أطفال جدد تتفتح عيونهم أول ما تتفتح على الدم المراق والمجازر الرهيبة ، وتصافح آذانهم أول ما تصافح صوت الانفجارات المرعبة . والعالم . . العالم الحر المتمدين يشهد المأساة الدامية التي صنعها بيديه وبجماقاته وانحرافاتة .



الفصل التاسع عشر

أصبح الشيخ « إسماعيل ريجان » ، والده « ضحى » ، إنسانا آخر ، ففي البداية كان يشارك في المعركة بطريقة سهلة ميسورة إذ كان يكفيه أن يجلس في خيمته بمعسكر اللاجئين . ثم يفتح المصحف ويقرأ بضع آيات ، ويؤدي الصلاة في تبتل وخشوع وما أن ينتهى منها . حتى يرفع كفيه إلى السماء والدموع تتقاطر على لحيته البيضاء ، ويدعو الله من أعماقه أن يكتب النصر لأبناء أمته المجاهدين ، وأن ينزل سخطه وغضبه وهزيمته على الصهيونيين المعتدين ، وما أن ينتهى من دعائه حتى يتناول طعامه ويأوى إلى فراشه ، ويلقى بنفسه بين أحضان نوم متقطع مليء بالخيالات الدامية ، والذكريات المريرة ، وصور المستقبل المجهول الذى لا يعرف حقيقته إلا الله سبحانه وتعالى . . . وكل يوم يشعر أن شيخوخته تزداد ، وقواه تضعف ، وأشياء كثيرة تشيخ في قلبه الحزين . . .

لكن الشيخ « إسماعيل ريجان » ، قد تغير الآن كثيراً . وخاصة بعد أن التحقت ابنته « ضحى » ، بهيئة التمريض ، وبعد أن وجد لنفسه مكاناً بين القوات التى تشرف على نقل المؤن والذخائر خلف المعركة ومنذ ذلك اليوم وهو يشعر بنشاط وحيوية خارقة ، لم تعد آلام المفاصل تنتابه ، ولا الخيالات المضطربة الموائسة تخالط نومه ، لقد

أدرك أن مجرد الدعاء لا يكفي فالله لا ينصر القاعدين الكسالى ، ولا يستجيب للدعاء الأجوف الذى لا يدعمه العمل الشاق المتواصل إذ يجب أن يصدر الدعاء من قلب مؤمن بالنضال والعرق والتضحيات ، من قلب يلهب من الكدح الدائم ، وطبيعة المعركة الحالية تستلزم هذا اللون من الإيثار والعبادة ..

وكان الشيخ يقضى ليلالى بأكملها بعيداً عن المعسكر ، يقطع الصحراء شرقاً وغرباً ، شمالاً وجنوباً ، لا رفيق له غير الليل والنجوم ورفاق النضال وتوقع الخطر ، وهو لا يعتبر الانخراط فى سلك المجاهدين عملاً بطولياً فحسب ، بل يؤمن إيماناً جازماً أنه توفيق من الله عز وجل ، وعلامة كبرى من علامات الرضا ، وطوال الليالى المدهمة التى كان يقضيها ضمن قافلة التموين فى الخطوط الخلفية داوم التفكير .. إن مصير أمته يقلقه ، ليس مصير فلسطين وحدها .. ماذا لو انتصروا؟؟ أيقومون البناء الجديد على دعائم قوية ، ويتخذون من الماضى عبرة ، ويعتصمون بالحرص واليقظة حتى لا تتكرر المأساة ، أم سيطرهم النصر ، وتسكرهم نشوته ، فيغرقون فى بحر من الكبرياء والغرور ، وينسون الدم والعرق وغالى التضحيات؟؟؟ ثم ماذا لو شامت الأقدار ألا ينتصروا حالياً؟؟ أيطويهم اليأس والركود أم يتخذون من ذلك حافزاً ليقظة كبرى تشمل تلك الرقعة الكبرى من البلاد العربية ، وتمسح عنها الكسل والنوم والتواكل ، وتطهر حياتها من أغلال العبودية

- ٢٠٩ -

والهوان والاستغلال؟؟ وأيقن الشيخ أن المعركة لن تنتهى على أرض فلسطين بنصر أو هزيمة ، وإنما سيكون خلف ذلك مرحلة قاسية شائكة . . . في تلك المرحلة ستتلور الآمال ، وتتحدد معالم المستقبل ، وتجد تغيرات هائلة ، تهز أصول المجتمع العربى وقوائمه هذا عنيفاً . . . سيسود أمته زلزال ضخم يحول طبيعة الأرض إلى شيء آخر يختلف تماماً عن الشيء القديم الذى أخذت تفوح منه رائحة العفونة .

وكان على الشيخ إسماعيل ، أن يرحل فى إحدى الليالى ، إنه لا يكاد يستريح فى الاسبوع يوماً أو يومين ، وكان رحيله هذه المرة قبيل الفجر ، واستيقظ الرجل من نومه ، كانت شمعة قميئة تضئ الحيز الضيق الذى تشغله الأسرة - الأم والإبنة والإبن والحادمة العجوز - وكان لهبها المرتعش يبدو كرأس طائر ذبيح سيلفظ أنفاسه بعد لحظات ، وغمغم الشيخ وهو يغادر مكانه .
« أصبحنا وأصبح الملك لله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، ثم تيمم ، واتجه صوب القبلة وصلى بضع ركعات . وما كاد ينتهى من صلاته حتى أعاد النظر إلى سكان الخيمة ، صغيره وليد نائم وعلى وجهه مسحة الملائكة ، وبراعة الضفولة المظلومة . وابتسامه

خفيفة تظهر ثم تغيب .. ترى أية أحلام وردية تداعب أجفان الصغير؟؟ أيحلم بحيفا والحدايق ورفاق الملعب والمدرسة وحياة الدعة والرخاء؟؟ وحاول الشيخ الاقتراب من وحيدته حتى جلس إلى جواره ، وعاد يتأمل ملامحه .. لشد ما يحب هذا الصبي .. يحبه بجنون لا يتفق ورزانة الشيخوخة . ولكم يتمنى أن يوهب قدرة و طاقة خارقة فينطلق إلى الميدان ويخلص الأرض من الطغاة حتى يضمن لابنه ولمئات الألوف من الأطفال حياة الرخاء والحرية .

وانحنى الشيخ بوجهه المتغضن ولحيته السمحة ، ونذر دموع تبلل أهدابه ، ثم طبع على الجبين الصغير المنير قبلة حنان .. حنان لو قدر له أن يتفجر لملاً الأرض والسماء ، ولأنبت في الصحارى المقفرة الآلاف من أشجار الزيتون الخضراء .. ثم انتقل ببصره إلى «ضحى» فتاته اليانعة التي تعيش المأساة بكل شبابها وأحلامها وطاقاتها . هذه الرقيقة الخجولة ، الفتاة التي لم تكن تخرج من بيت أبيها في «حيفا» إلا في أوقات متباعدة وللضرورة القصوى ، والتي لم تكن تجرؤ على أن ترفع عينيها في وجه أحد حياء ..

هذه الفتاة كيف تحولت هذا التحول الغريب ؟ إنها تذهب إلى مركز الإسعاف ، وتختلط بالرجال ، وتمازح الجرحى ، وتختلط بنزلاء المعسكر ، وتبحث اللاجئيين على الصبر والإيمان والنظافة ، إنها المأساة خلقتها خلقاً جديداً ، وغيرت من طباعها

وسلوكها ، وأعطتها قيماً جديدة للحياة الجديدة التي تعيشها . . آه .
لكل جيل ظروفه . . حتى أنا ١١ من كان يظن أنى سأغير نسق
حياتى ، القهوة بعد صلاة الفجر . . قراءة القرآن . . المرور على البيرة
والحقول . . المرور على بعض الأصدقاء ومناقشة بعض المسائل
الفقهية والنحوية والسياسية . . ثم العودة إلى البيت . . وأقداح
الشاي . . الحياة الهينة الممتعة التي ليس فيها شيء من قلق أو هموم
كلها راحة وعبادة واستمتاع . . أما اليوم . . آه . . ما أشد مناقضته
للأمس الدابر . . أترانى كنت سعيداً . . لكنى اليوم سعيد جداً . .
سعيد برغم القلق والمتاعب والصور الدامية ، إنى أحياء ، وأشارك
فى صنع جيل وأساهم فى تقرير مصير أمتنا التي أخذت تنفض
عن أجفانها نوم السنين الحزينة . . ووقع بصره على زوجه . .
المسكينة تنام وقد إزداد شحوب وجهها . . نوبة من السعال تقلق
راحتها ، وتدهمها من آن لآخر . . لم تعد تجد للحياة طعماً . . المرض
والتشرد والمصير المجهول قد ثقلت وطأتها عليها . . إنها ليست مثلنا
فى الصبر والتحمل . . عافاها الله طالما سهرت على راحتنا ، وقد آن
لنا أن نرد لها الجميل ، ثم انتقل ببصره إلى الخادمة . . إنه لا يسميها
خادمة ، كانت بالأمس تأخذ أجرها وتخدمهم ، لكنها اليوم لا تتناول
أجراً ومع ذلك فهي كالعهد بها مستمرة فى القيام بعملها ، بل إنها
أكثر نشاطاً وإخلاصاً ، إنها مثلهم تبكى وحيفاً ، ولياليها الحلوة ،
وحياتها الناعمة الوادعة ، على الرغم من أنهم لم تكن تملك بيتاً أو مالا . .

لكنها تشعر أن الأرض كلها ، والمدينة بأسرها . . لها . . مأساة
الآلاف مأساتها . . فليوفقها الله ويثيبها خير الجزاء . .

وهتف الشيخ .

- « أم وليد . . ضحى . . أن الآن أن تستيقظا . . »

قالت الأم وهي تتقلب في فراشها وتسعل :

- « الفجر لم يؤذن بعد »

قال في انفعال :

« لكنى راحل . . »

وتيقظت حواسها تماماً عندما رنت في سمعها كلبة الرحيل . .

لشد ما تزعجها هذه الكلمة ، برغم أن الناس من حولها جميعاً
على رحيل .

- « أنت لم تقض بيننا غير بضع ساعات . . »

قالت « ضحى » وهي تحاول الجلوس :

- « هذا لا يهم . . »

قالت الأم في انفعال : -

- « وأنت أيضاً «ياضحى» بعد قليل تذهبين »

قالت « ضحى » ، نازحة :

- ٢١٣ -

- « ألا يكفيك » وليد ،؟؟»

- « كلكم عندي سواء .. لا أحد يغني عن الآخر .. »
قال الشيخ إسماعيل كي يضع حداً لهذا الحديث الذي يعتبره
مقدمة لطوفان من الدموع : -

- « وجهتنا اليوم مدينة « الخليل » و « بيت لحم » ... سنعود
محملين بأشياء كثيرة لمنطقة القدس .. سلاح وطعام وعقار طبي ..
لن نغيب أكثر من يومين أو ثلاثة .. »

ووشت نبرات زوجه بالبكاء الصامت وهي تقول : -

- « الله معكم .. »

- « لماذا تبكين؟؟ لقد أصبحنا قاب قوسين أو أدنى من النصر ..
قواتنا تتقدم ، نحن نقدم التضحيات الغالية لكننا نسعد بالنصر ،
وفي الغد القريب تتطهر فلسطين ، ونعود إلى « حيفا » . »

فقلت وهي تنهد .. -

- « حيفا؟؟ »

- « اتشكين؟ »

- « الله قادر على كل شيء .. إن خوفاً مبهماً يعيش في قلبي »

- « إن الوقائع الملبوسة تنكلم بأمرأة .. وهي أصدق برهان »

قالت وهي تحفف دموعها :

- ١١٤ -

- « فليُنصركم الله .. أتم لا تأتون منكرأ ، إنكم تجاهدون

في سبيل الله ، ومن ثم فالنصر معقود لكم .. »

قال وهو يبتسم : -

- « هذا هو الكلام الذي يجب أن يقال .. »

وكز على أسنانه وهو يقول : -

- « والآن استودعكم الله .. »

ووثب « وليد ، أمامه فجأة ، ثم طوق رقبة أبيه بذراعيه

النحيلين ، وقال والناس يغالب أجفانه : -

- « خذني معك .. لن أتركك هذه المرة .. »

- « حتما يا عزيزي سأخذك معي .. لكن ليس الآن .. »

- « أ كبرت الوعود ولم تنفذ وعداً واحداً .. »

- « لم تزل صغيراً .. »

- « لكني رجل .. أنظر .. إن رأسي تقترب من كتفيك .. »

هم ألم تر ذلك القائد القصير ذا اللحية السوداء الذي كان مع أبي « خميس ،

« شاهين ، في مركز الإسعاف ؟؟ أنه قصير يا أبا .. »

- « لكنه يكبرك سناً وقوة .. »

- « إذن فأنت لن تأخذني معك .. »

- ٢١٥ -

- « أعدك في المستقبل .. »
- « في الصباح سأفر وألحق بك .. »
- قال الأب وهو يربت على رأسه في حنان : -
- « أيها المشاغب أعطني قبة .. »
- « لا .. »
- « سأحضر لك لعبة جميلة .. »
- « بندقية صغيرة مثلاً ؟؟ »
- « أجل .. من بيت لحم .. »
- ومد الصغير جبينه ، وانحنى الأب حتى لامسته شفتان .
- « مع السلامة يا أبي .. »
- « سلمك الله يا حبيبي .. »

* * *

اكتظت عربات القافلة بالمؤن والذخائر ، وتم ربطها ربطاً محكمًا ، ونظراً للنقص في عدد العربات ، فقد وزعت كمية من هذه المواد التموينية على عدد من الجمال والحمر والعربات « الكارو » ، ولن تستطيع القافلة بهذا التقسيم أن تسير في سرب واحد ، ومن ثم كان على العربات أن تنطلق مسرعة وعليها أهم الأشياء الضرورية ،

وأعطى القائد إشارة البدء مع غروب الشمس ، وسارت في المقدمة
عربة استطلاع « جيب » ، وكانت تصحب القافلة قوة من الحراس
المسلحين قليلة العدد لمجرد الحيطه ، وتجنب المفاجآت ، إذ أن القافلة
ترسم خط سيرها دائماً في الخطوط الخلفية وفي مناطق عربية مأمونة ،
وجلس الشيخ اسماعيل يحان أعلى عربة نقل كبيرة فوق المؤن
المتكدسة ، وفي يده مدفع محشو بالذخيرة ، كان يده على المدفع
وعينه تجوبان السماء والأرض ، تحمقان في النجوم الالامعة ، أو
تحاولان كشف أستار الظلمة المتكاثفة ، ورأسه نهياً لعاصفة من
الأفكار العديدة ، ووليد الصغير يومض في قلبه كالشهاب الالامع ،
ترى أى مستقبل ينتظر هذا الصبي ، « وضحي » تنتصب بعودها
الريان وأرديتها البيضاء الناصعة ، وهامتها المرفوعة ، وكأنها أميرة من
من الأميرات الساحرات ، وضجيج العربات لم يعد يقطع عليه أفكاره
أو يقلقه ، فقد اعتاده منذ مدة ، فهو يستطرد في أحلامه دون أن
يزعجه شيء ، ماذا لو امتد هذا الهدوء حتى شمل العالم من حوله ؟؟
ماذا لو انطفأت هذه النيران المجنونة التي تحرق البشر ؟؟ النار فقط
لإتضاع الطعام للجائعين ، وبعث الدفء في أجساد المقرورين ،
وتشكيل أدوات الراحة لبني الإنسان ، وما خلقت قط لنا كل لحم
الأبرياء .. الأيدي الآثمة وحدها هي التي تفسد طبائع الأشياء ،
وتتخترع وسائل القتل والتدمير . ولا مست جبينه نسمة رطبة ،
بعثت في كيانه الحذر والاسترخاء ، وأخذ النوم يتسلل إلى عينيه ،

وبعد ساعة لم يشعر بنفسه ، كان مستلقياً على ظهره ، ونسبات الليل تخفف حرارة جسده . وعيناه مغمضتان في نوم هانىء لذيذ ، والمدفع ملقى إلى جواره ، وملاحه تحت الظلمة الضافية تضىء بالسكون والسلام والإيمان . . . وكما تشور الزوابع فجأة دون مقدمات ، فتقتلع الأشجار ، وتثير الغبار وترمى بغزير المطر والرعود ، كذلك أضاءت الظلمات الحالكه بطلقات نارية متلاحقة ، كانت تبرق كعيون الشياطين ، ودوت انفجارات متلاحقة وساد ارتباك واضطراب ، لكأنما زلزلت الأرض زلازها ، ولم يدر الشيخ إسماعيل ريحان كيف نام ، ولا كيف وجد نفسه يمسك بزناد مدفعه ، ويبحث بعينيه المتعبتين عن مصادر الغدر في الظلام ، ولم يكن بحاجة إلى كثير من الذكاء ليدرك أن دورية صهيونية تهاجمهم ، وتذكر على الفور التعليمات الصادرة إليه من قبل : في حالة هجوم مفاجيء يجب أن يترك العربية ، وينبطح على الأرض ، ويظل يسدد نيرانه نحو المهاجمين ، ولا يكف عن المقاومة حتى الموت - لأن حاجة المعركة إلى المؤن والذخائر أكثر من حاجتها إلى الرجال . والشيخ ريحان يعرف نفسه أنه بطيء الحركة ، واهن القوى ، فللشيخوخة أحكام لكنها المرة الأولى التي يجد نفسه مع الأعداء وجهاً لوجه في معركة صريحة متكافئة ، معه مدفعه وحوله عدد كاف من الرجال ، وتفصله عن

المهاجرين مسافة معقولة ، لم يشعر الشيخ وهو يثب من فوق العربة في خفة وسرعة ، ولم يكن لديه الوقت الكافي ليفكر في هذه المرونة والنشاط الطارئين ، كان كل اهتمامه مركزاً في الأوامر الصادرة ، والمواد التمييزية ، والمدفع الذي في يده ، وثعابين الغدر التي تنوارى تحت جناح الظلام وتقذف باللهب ، وتبودل إطلاق النيران ، وزحف بعض الفدائيين بعيداً عن القافلة مزعمين الاقتراب من العدو والالتحام به في معركة مباشرة كي يضعوا حداً لمضايقاته ، إنها الخطوة الحاسمة الوحيدة لإنهاء المعركة ، إذ أن في إمكان اليهود أن يظلوا في مواقعهم وأوكارهم يمتطرون القافلة بوابل رصاصهم حتى الصباح ، لكن قوة الحراسة قليلة ، وليس من الممكن تقدير العدد التقريبي للدورية الصهيونية لا مفر إذن . . . ولا بد من الهجوم على المهاجرين . . . وليفعل الله ما يشاء . . . وأعطيت الأوامر ، وأخذ الشيخ إسماعيل ريجان يزحف ، والمدفع في يده ، والرصاص ينطلق من آن لآخر ، ولا أحد يعرف الأحياء من الأموات ، والموت أعمى ، ويشتد عماؤه في غمرة الظلام وفي معمان الحروب التي لا تزن الرجال ، ولا يدرى الشيخ كم مضى من الوقت ، لكنه أيقن أن ناراً تشتعل في صدره ، وأن سائلاً ساخناً لجزأ يبلى سترته ، وعندما هم بالتقدم لم يستطع لكأن قوة مجهولة معجزة تشده إلى الأرض ، وتربطه بها ؟؟

بشائر الفجر تغزو الأفق ، وعربات القافلة تقف جامدة

يوشحها السواد . وكأها بيوت صغيرة متناثرة من الطين متباعدة
المواقع . . . وشعر الشيخ إسماعيل ريحان بشيء بارد يرطب جبينه
وأيد حانية رقيقة تهزه ، وأفاق الرجل من غيبوبته على أصوات
خفيضة تهتف باسمه وتغمغم : « لم يزل حياً » ، وفتح عينيه . . نفس
الوجوه الحية الصابرة التي يعرفها . . نفس العيون التي يمتزج
فيها الألم بالأمل ، وغمغم : « هل أنتم بخير أيها الإخوان ؟ ؟ » ،
وهمس أحدهم : « لا تجهد نفسك . . نحن على ما يرام ، وأنت ؟؟ » .
فلم يهتم بما قالوا واستطرد : .

— « القافلة بخير ؟ ؟ »

— « أجل . . »

— « والأعداء فروا ؟ ؟ »

— نحمد الله . .

— « أجل . . ألف حمد . . لا شيء يهم بعد ذلك . . »

وغاب عن الوجود لحظات ، ثم عاد فابتسم وانفرج جفناه
وشفتاه : -

— لكم تسعدني هذه النهاية ! ! طالما اشتيتها وحليت
بها . . . إني أحب لقاء الله . . هذا لقاء رائع . . لكن روحى
ستظل تحوم حول هذه الأرض الغالية . . أكان من الضروري

- ٢٢٠ -

يا رفاق أن أعيش حتى أرى عودة المظلومين إلى ديارهم . .
 وإلى « حيفا » ؟ ؟ إنها أمنية عزيزة ولن ينال من جلالها موت
 واحد أو اثنين أو ألف . . إذا لم أعد أنا فإن « وليد » سيرث
 هذه الأمنيات الحلوة عنى سترثونها جميعاً . . آه . . ما أعجب
 أمرى !! عين هنا وعين في الجنة . . فلسطين هي الأخرى جنة
 يا بنائى . . جنة الله في الأرض . . وليد . . حيفا . . المسجد الأقصى . .
 الزيتون الأخضر . . وأرض الأنبياء . . أنا . . أنتم . . كل ذلك
 معنى واحد كبير اسمه الحياة . . آه . . إلى بجرعة ماء . .
 وتسابقت الأيدي المغفرة ذات الخدوش تحمل إليه
 « الزمزميات » . . لكنه لم يستطع أن يفتح شفتيه . . فقد
 مات . .

وسارت القافلة في الطريق المرسوم . . نحو القدس . .





الفصل العِشْرُونَ

في الطريق إلى القدس رأت ضحى، حادثاً آلمها أشد الألم، إن
أى اعوجاج تشهده في مجتمع اللاجئين يؤذى مشاعرها، وينغص
عليها هدوءها، فالذين يتحملون أعباء المحنة الكبرى يجب أن يكونوا
أرحب صدرأ، وأبعد نظراً، فلا يحفلون بالسفاسف، ولا يقيمون
وزناً للعنجهيات والمظاهر الفارغة، وكثيراً ما تصرفها مثاليها عن
تدارك النقص في مجتمعها، ورؤية عيوبه، فإذا حدث؟؟ أثناء
خروجها من المعسكر تنهى إلى سمعها شجاراً عنيفاً، ورأت عدداً من
المتجمهرين، إن طفلين تشاجرا، وهذا أمر يحدث غالباً في مجتمع
بائس متزاحم يحيا تحت وطأة التوتر والخطر والمستقبل المجهول،
وكم كانت دهشتها عندما سمعت والدى الطفلين يتصايحان، وأحدهما
- وكان يلبس بزة أنيقة بعض الشيء - يقول :

- « من أنت حتى ترفع صوتك في وجهي؟؟ »

- « أنا مثلك .. آدمى .. »

- « ليس الذنب ذنبك .. وإنما ذنب الأيام القاسية التي

جعلت صعلوكاً مثلك يتناول على سادته .. »

رد الرجل الآخر الذي يلبس عقلاً وثياباً ضافية حال لونها :-

— ٢٢٤ —

- « احترم نفسك .. ليس هناك سادة ولا عبيد .. »
- « فعلا .. لقد انقلبت موازين المجتمع .. لكن هذا لن يدوم .. سيظل السادة سادة ، والصعاليك صعاييك .. »
- قال لابس العقال ساخراً :-
- « كل ما أعرفه أن كلينا لاجئ .. »
- « والناس يعرفون من أكون .. كنت حاكم قرية كبيرة .. وكان يعمل عندي عشرات مثلك يرعون الأغنام ، ويجمعون المحاصيل .. »
- « لولا احترامي لمأساتنا جميعاً لكنت بك الأرض .. »
- « أما أنا فساء عليك كيف تحسن تربية أولادك الأجلاف .. »
- ووثب كل منهما على الآخر يريد أن يفترسه، وصياحهما يغطي على توصلات أهل الخير الذين يتوسطون لحسم الخلاف، وسحق الشر قبل أن يستفحل، ولم يتمكننا من الالتحام، لقد أقام الحاضرون بينهما سداً منيعاً أوقف كل اندفاع أهوج، كانت «ضحى» ترقب المشهد المثير بنظرات حزينة، أن مضاعفات النكبة تتولد يوماً بعد يوم، والأمراض النفسية تنفث بين الجموع كما تفشت الأوبئة في أجسادهم منذ أمس، أن في أعماق كل فلسطيني ثورة تريد أن تنفجر معبرة عن أسى الانسان المظلوم وعذابه، منهم من يعبر عن ثورته بحمل مدفع والاندفاع في جحيم المعركة، ومن لم يستطع ذلك لسبب

أولاً آخر ، يابى إلا أن يرتكب الحماقات ، ويشير الأحقاد الشخصية والطبقية التي كانت سائدة في مجتمع ما قبل الحرب .. مجتمع التراخي والاقطاع والعبث ، والخيام الضيقة قد أورتهم ضيقاً وحنقاً ، والشمس الحارقة التي تسيل عرقهم وتكوى جباههم تغرس فيهم القسوة والشراسة ، والفقر ، وقلة الإمكانيات ، بعد رغد وسعة ، حملهم على التهور والتمرد وعدم الرضا ، واغتصاب اليهود لمناعمهم وضياعهم وأموالهم ، أفقدهم الثقة في العدالة ، وسوّد في أعينهم المصير المحتمل ، وكانوا بالأمس يعيشون كسادة يملكون الكثير ، ومعدمين يبذلون الجهد ويؤدون الخدمات ويقبضون الثمن ، أما اليوم فقد سوّت بينهم المحنة وأصبح كل واحد منهم مجرد لاجئ .. لا أكثر .. عليه أن يحمل عبئه بنفسه .. لا فرق بين سيد الأمس وخادمه .. وطبيعة البشر لا تقبل التحولات الجريئة الضخمة بسهولة ، وخاصة ما يتعلق منها بامتيازات طبقية راسخة اكتسبت صفة المشروعية .. أدركت ، ضحى ، كل ذلك وهي ترى المشاجرة الحامية ، وتبادل الشتائم ، فاقتربت منهم ، وقالت :

— « ما هذا الذي تفعلون . ؟ »

ولما لم تجد لتساؤلها جواباً سوى الصمت المطبق ، قالت : —

— « تعبثون هنا .. وآلاف غيركم يقدمون دمهم في صمت .. »

قال لا بس البزة وهو يجفف عرقه :

- ٢٢٦ -

- لسنا في حاجة إلى وعظياتك .. ،

فاحتقن وجهها وعضت على شفتها السفلى ووجدت نفسها تقول:-

- « يجب أن تكبر .. وفتسامى حتى نصير في مستوى المحنة .. »

- « حسناً تستطيعين أن تمضى في طريقك وإلا اضطرت

لتعليمك .. ماهو الأدب ، وكيف تعاملين من هم أكبر منك

سناً ومقاماً .. ،

وساد اللغظ ، وتسابقت كلمات الاحتجاج واللوم ، كان الواقفون

يرون أنه قد تمادى في تهوره تحت قناع الكبرياء الفارغة ، والماضى المتعفن

الذى لم يخلف لهم غير المأساة القاسية ، « وضحي » وأبوها وكل أسرته

تبدو في نظرهم رمزاً للأخلاق الحميدة ، والتضحية النبيلة ، وتضايق

الرجل وهو يشهد . عاصفة الاحتجاج تثور في وجهه وصرخ :-

- « أنتم غوغاء .. لا تعرفون الوقار .. ولا حقوق السادة .. »

وصاح لابس العقال محنقاً وهو يلوح بيده :-

- « من هم السادة ؟؟ »

- « جهلك بهم لا ينفي وجودهم ، ولا ينقص من قدرهم .. »

فصاح مرة ثانية ؛

- « من هم ؟؟ »

- « هم .. هم نحن ، برغم هذه الخيام الحقيرة .. »

« تستطيع أن تحمل أسرتك إلى قصرك القديم .. »
 وارتسمت البسمات الساخرة الشاحبة على شفتاه الواقفين
 ثم حلت محلها علامات الامتعاض والضيق ، إن هذا الرجل يجرح
 كرامتهم ، وينال من كبرياتهم ، وهمت « ضحى » ، أن تقول شيئاً ،
 لكن أحد الشيوخ الواقفين أوقفها عن الحديث وقال :

« لا يمكن أن يكون الجبناء سادة .. »
 وحاول الرجل أن يندفع نحوه ، لكن سد الجموع الواقفة منعه
 من التحرك ، فهدر :

« كل ما أستطيع قوله هو أنكم غير مهذبين .. »
 ورد عجوز آخر : -

« السادة هم الذين يزهدون في كل نعيم الحياة ، ويقضون
 النهار والليل خلف المتاريس ، ونذر الخطر تشتعل في الأفق ،
 ويقبلون على الموت ، دون أن يتساءلوا من هم السادة .. ودون أن
 يطلبوا من الناس أجراً أو توقيراً لهم .. وقد يكون من بينهم بعض
 المعدمين الذين لا يملكون شيئاً يموتون من أجله .. لكنهم يؤمنون
 بشيء اسمه فلسطين .. لا يتكلمون إلا عن القضية العادلة .. أما أنت
 فتعيش في عفونة وخيال ساذج .. لكم يؤسفني أن يوجد بيننا من
 لا يفكر إلا في نفسه .. ويلتمس أتفه الأسباب - كأن يتشاجر
 طفله مع طفل آخر - ويحاول تأكيد أنانيته وغروره .. أيها السيد
 فلتخرج إلى عرض الصحراء ولتبحث لك عن قرية وافرض نفسك

عليها سلطانا ، ولتضح في سبيل ذلك بأعز ما تملك .. هذا هو اللائق بك .. أما نحن هنا فطائفة من الهمج لا تعرف للسادة و المهذبين ، حقهم .. نحن آسفون .. فلننصرف جميعاً .. معذرة يا آنسة «ضحى» .. إن وقتك أثن من أن يضيع في مثل هذه الأفاعيل الصبانية .. ، وجد الحاضرون في أما كتبهم ، أن صدى كلمات الشيخ يرن في آذانهم . ويتغلغل بعيداً في أعماقهم ، إن هذه الكلمات البسيطة الواضحة تكشف القناع عن قيم زائفة في طريقها إلى القبر ، وتجلو الصدأ عن قيم جديدة تنمو وترعرع وتزدهر في تربة المأساة العتيدة . . . التربة التي تروىها دماء الشهداء . . . وصرخ الرجل العجوز :

« دعوة وحده . واذهبوا إلى أعمالكم . . اجمعوا الأحطاب ، وابحثوا عن قوت . . وزاولوا أى عمل . . وأسرعوا إلى معسكر التدريب . . فكتيبتكم الجديدة المكونة من مائة رجل سترحل إلى الميدان بعد أسبوع ،

وتسللوا في كل اتجاه ، كانت موجاتهم تنداح بعيداً ، وتتوارى بين الخيام الكالحة التي تنتصب كقبور مهدمة . وكان عليهم أن يزيلوا معالم هذا الشقاء ، ويحيلوا المقابر . . مقابر الأحياء إلى جنات وارقة الظلال . ويعيدوا إليها رونق الحياة من جديد . . . وتلفت الشيد الوقور - حازم بك - وهذا هو اسمه ، فوجد نفسه وحيداً منبوذاً لا أنيس له غير أساه وقبعته ، وعار الانعزالية

- ٢٢٩ -

يبعث الشكوك في قلبه التعس ، وتنهد في مرارة ، وهم بالرحيل ،
لكنه سمع صوتاً من خلفه :

- « سيدى . . . »

- « ضحى ؟؟ »

- « أجل . . . إننى آسفة كل ما حدث لم يكن يرضينى . . .
كثيراً ما تضعف أعضابنا المتوترة المنهكة عن تحمل النكبة الدامية ..
كلنا بشر وفيها ضعف فطرى . . . »

نظر إليها الرجل طويلاً ، كانت نظرتة في بداية الأمر تحمل
معنى التحامل والعدوان ، لكن حديثها أخذت تخف رويداً رويداً ،
ثم همس في نبرات تنضح بالأسى :-

- « هذا كثير . . . »

- « أعرف . . . »

- « لشد ما أتعذب ! ! لماذا لا أموت وأستريح ؟؟
لست راضياً عن نفسى ، ولا أشعر بالرضا نحو من حولى ، وهم
أيضاً لا يرتاحون إلى . . . لقد افتقدت كل شيء . . . نفسى
والناس من حولى . . . وسلطانى ومالى ، وماذا بقى إذن ؟ ،

قالت في نغمة صوفية تشرق بالحنان . . .

- « بقى الأمل فى الله يا حازم بك ، »

وراقته كلمة « الأمل » كما طرب لدى سماعه كلمة « حازم بك » ،
 إن هذه الكلمة تحمل انعكاسات المجد الغابر ، وتنبيء عن ماض
 عريق ، وسلطان لم يتقادم به العهد . . . لم تزل « ضحى » تقول له
 يا « بك » ، برغم الخيمة الحائلة اللون ، وبرغم فراغ يده من
 كل مال وسلطة ، وتماديه في الحماقات والأخطاء . . .
 أجل لم تزل الدنيا بخير . . . ولم يزل الأمل في الله حياً لن
 يموت . . . وتمتم وهو يغالب دموعه :-

- « آسف يا ابنتى . . . » . . .

- « تعجبني حكمة رجل روسي عظيم » هذه الحكمة تقول :
 « إن التعساء لا يتحمل بعضهم بعضاً . . . وليس علينا إلا أن نصبر
 والفلك يأسدي يدور ، وحركة الكون مستمرة ، والتحول هو
 سنة الحياة . . . بالصبر والإصرار سنكسب المعركة .
 ثم مدت يدها قائلة :

- « إننى أمد يدي إليك مصافحة كي نعقد صلحاً . . . وسنسوى
 الأمور بين الجميع حتى نقضى أيامنا هنا إخوة متحابين . . . هات يدك . . .
 وتلاقت اليدان في حرارة وإخلاص وقوة . . .

ثم استأذنت « ضحى » وحشت خطاها نحو مركز الإسعاف . . .
 لم تدهش « ضحى » عندما بلغت المستشفى ورأت حركة دائبة
 وانهما كما شديداً في العمل ، ولما لم تجد الطبيب في حجرتة لم تشعر
 بشيء جديد يلفت النظر ، إنها الصورة المسالوفة التي تقع تحت

بصرها كل يوم ، جرحى وعمليات جراحية عاجلة . وأناس يلقون
الله باسمين أو متألين ، وآخرون يتماثلون للشفاء فيعودون للמידان ،
أو يرجعون إلى بيوتهم إذا ما تخلفت عن جراحهم عاهة مستديمة
تعوقهم عن المشاركة الفعلية في المعركة . .

وسرعان ما ألفت بحقيبة اليد جانبا ، واتخذت أهبتها للعمل ،
ولما صعدت الطابق الأعلى رأت الطبيب يخلع زى العمليات مزمعا
الراحة ، قالت باسمه : « صباح الخير . . » فرد عليها متلعثما ،
والشحوب يلون محياه ، والقلق يرسم على ملامحه : « صباح النور ،
وعاد الصمت ، وحاول الطبيب أن يشغل نفسه بأشياء تافهة ،
ويسعى جاهداً في الابتعاد عن مواجهتها وتلاقى نظراته بنظراتها ،
رجحت « ضحى ، أن هناك شيئاً ما يطويه الطبيب في صدره فقالت
محاولة أن تبدد جو القلق : -

- « كان عملاً مرهقاً لاشك الليلة . . »

- « أجل . . »

- « من أين قدم المصابون الحدد . . »

قال الطبيب مستجمعا شجاعته وهو يخطو نحوها : -

- « قافلة المون والذخائر : -

وزلزلت كلماته كيانه ، وانفجرت في سمعها كبر كان محموم

وصرخت : -

— ٢٣٢ —

— « القافلة ؟ ؟ »

— « نعم »

— « وأبي ؟ ؟ »

كان انتباهها وعواطفها وكل حواسها تلتقي عند شفتيه ، وبدأت اللحظات الخاطفة التي اعتهم فيها بالصمت دهرًا طويلًا ينزَّ أسىً وعذاباً ، وهمس وقد ازداد شحوب وجهه ، واختلجت شفته :

— « يجب أن نستقبل الأمر بشجاعة . . »

وصرخت وقد زایلها كل رصيدها من الشجاعة والصبر : —

— « مامعنى ذلك ؟ ؟ »

ولم يستطع الطبيب أن يفتح فمه ، كانت كلماته واضحة ، وكانت الكارثة المتوقعة تظهر في نبراته الحزينة ، وتحركاته العصبية ، لكنها لا يمكن أن تصدق هكذا بسهولة ، لا يمكن أن يحدث ذلك بهذه السرعة وعلى هذا الوجه المفاجيء الذي لا تتوقعه .

— « تكلم يا دكتور . . هل مات أبي ؟ »

— « البقية في حياتك . . »

— « مات ؟ ؟ »

— « أجل . . »

— « مستحيل . . لا أصدق . . كان معنا منذ يومين ، وكان

- ٢٣٣ -

يتفجر حيوية وأملا .. وكان يصلي ويقرأ القرآن ويداعب وليد...
مستحيل .. آه .. لكنه مات .. مات ..

وأصابتها نوبة تشنجية من البكاء والعيويل ، وارتمت على
أرض الحجر عاجزة ذاهلة ، واسودت أمامها كل مظاهر الوجود ،
ولم تعد تضيء في خيالها الكسيح سوى صورة الوجه الأشقر الذي
تشع منه التقوى ، واللحية البيضاء التي ينسكب منها الإيمان ،
والنظرات الحزينة التي لم ينطفئ فيها بريق الحياة والأمل ، مات
أبوها الشيخ اسماعيل ربحان .. كيف حدث هذا؟؟ كان الناس من
حولها يموتون كل يوم . وأصبحت رؤية الجراح أمراً مألوفاً
لديها ، كثيرون يموتون وهي تحزن من أجلهم .. لكن موت أبيها
شيء آخر ، لم يخطر لها على بال ، ولم تفكر فيه من قبل ، وما كان
يجب أن تفكر فيه لأنه أبوها ، ولأنه يعمل في الخطوط الخلفية
عملاً لا خطر فيه . كان يقتل به فراغ الشيخوخة وبرودتها ،
ويخفف من هول النكبة وإدمان التفكير فيها .. وصرخت من
بين دموعها :-

- « كيف مات ؟؟ »

- « كما يموت الأبطال الشرفاء في صميم المعركة .. كان يحمل
مدفعه ويطلق النار ليصد عصاة صهيونية كانت قد بيتت النية على
الاستيلاء على أقوات المجاهدين وذخيرتهم .. »

(١٥ - أرض الأنبياء)

- ٢٣٤ -

وانخرطت مرة أخرى في العويل والانتحاب، واقترب الطبيب
منها، وربت على كتفها في انفعال محاولاً أن يمسك دموعه :

- « لماذا تبكين ؟؟ »

- « يجب أن أبكى .. »

واستسخف سؤاله ، وشعر بالخجل والغياء ، فعاد يقول :

- « كفى ، لتجفني دموعك .. »

- « كان يحب الناس .. »

- « أعرف ذلك .. »

- « لم يتلوث قلبه بكرهية أحد .. »

- « له الجنة .. »

- « ظل قلبه معلقاً بحب المسجد .. والناس .. ولم يفكر قط

في أنه سوف يقتل أحداً أو يقتله أحد .. أليس من البشاعة أن تتلون
الحية البيضاء بالدم ؟؟ قل لي يا دكتور . لماذا .. لماذا ؟؟ »

وغمغم الطبيب وقد أفلتت من بين أهدابه دمعة : -

- « عالمنا مليء بعلامات الاستفهام يا عزيزتى .. وليس علينا

سوى الصبر والرضا بالقضاء .. دائماً كنت تتحدثين عن الإيمان،

وقد جاء دورك لتواجهي التجربة المريرة : وثقتي كبيرة في أنك

- ٢٣٥ -

ستصمدين ، وتخرجين منها أكثر صفاءً ونقاءً .. وسيصبح إيمانك بعد هذه التجربة طاقة روحية لا تتزعزع أو تنال منها أعتى النكبات لقد استشهد مع أهلك رجلان آخران ، وأصيب أربعة بجراح وجيء بهم إلى هنا .. ،

ورفعت «ضحى» وجيبها المندسى بالدموع ، كانت نظراتها شاردة وكأنها تجوب عوالم غير مرئية ، شاسعة المدى ، وغمغت في ذهول:

— «ألن يعود أبداً؟؟ وهل حكم عليّ ألا أراه بعد الآن؟؟
ألن يحمل وليد بين ذراعيه ، ويغمر وجهه الصغير بالقبلات؟؟
وعندما نعود إلى «حيفا» ، ألن يعود معنا؟؟

وعادت إلى البكاء من جديد ..

* * *

واستقبل شعب المعسكر نبأ استشهاده بوجوم ، وترقرقت الدموع في عيون غالبية اللاجئين ، وعندما يقول واحد منهم :
« لقد لقي الشيخ إسماعيل ربحان زبه ، يرد الشيوخ قائلين : « كل من عليها فان .. هنيئاً له .. مات شهيداً ، وتقول النسوة : « الفجيعة فيه كبيرة ، وليس في الإمكان دائماً العثور على رجل صالح مثله .. فلينزل الله رحمته على أهل بيته ، » ويقول الشباب « مات بطلاً .. ونحن على طريقه سائرون ، » ويقول الصبية : « زعموا يا أولاد

أن الشيخ ريحان هاجم اليهود كالأسد . وقتل منهم المئات . . أما
 زوجته فقد كانت دموعها تنهمر في صمت ولا تنفوه بشيء ، لكن وليد
 الصغير عاف الطعام والشراب ، وسكب ما استطاع أن يسكبه
 من الدموع ، ثم أخذ ينظر في حيرة إلى جو الحزن الذي يظلم
 المكان ، وعقله الصغير يتساءل عن أشياء كثيرة يطويها في أعماقه ،
 ولا يجد لطلاسمها الغامضة حلاً يبعث في قلبه الرضا ، ويهب
 صباه السكينة . . .

وإذا انسكب الماء إلى كأس ممتلئة فلن يزيد لها شيئاً بل سيفيض
 على جوانبها ويراق على الأرض ، كذلك كانت قلوب المشردين
 في معسكر اللاجئين ، فاضت بالحزن حتى لم يعد بها مكان لأحزان
 جديدة ، وتشبعت بالأسى الغزير حتى باتت في غنى عن أى أسى
 وافر ، ورحم الله شاعر العرب القديم :

رمانى الدهر بالأرزاء حتى فؤادى فى غشاء من نبال
 فصرت إذا أصابتنى سهام تكسرت النصال على النصال



الفصل الحادى والعشرون

من البديهي أن يختلف الناس في طبائعهم وقدراتهم ، فمن الضروري إذن أن يختلفوا تبعاً لذلك في طريقة تقبلهم للكوارث أو استجابتهم لها ، وهذا ما حدث بالنسبة لنجلاء وأيها بعد أن تعرضا للغدر الصهيوني ، وتلفيا بنيرانه ، يوم الهول الأكبر في مدينة « حيفا » ، لقد كانت الكارثة التي انقضت على الرجل أشبه ما تكون بالصاعقة ، فقد تركته محطم الأعصاب ، كسير القلب ، مسلوب الإرادة ، أقعدته عن الحركة والاندفاع ، وشلت قواه ، وفقد الثقة بالعدالة على الأرض ، وتخيل البشر على صورة ذئاب ضارية ، محمرة الأنياب ، مجنونة المخالب ، وكيف يؤمن بغير ذلك وقد رأى بعيني رأسه كيف خدعه الطغاة الصهيونيون ، أفرغوا فيه وفي أسرته نيران مدافعهم من الخلف ، واختطفوا فتاته ، ولم يبد في تصرفاتهم سمة من سمات الإنسانية والشرف ؟؟ لم يستطع أن يقنع نفسه أنه ارتكب جريمة ما في حق أحد ، ولم يستطع أن يقنع نفسه بأن هناك قانوناً من القوانين الإنسانية يهدر الدم ، ويحقر حياة الإنسان ، ويشير الإرهاب والفرع مثلما حدث في ذلك اليوم المشؤم . . . ولم يجد مبرراً كافياً لطرده من بيته ومدينته ، وتجريده من كل ما يملك ، ثم تركه في عرض الصحراء هائماً على وجهه بين برائن الشقاء والضياع والتشرد . . . لقد افتقد « أبو نجلاء »

عدالة الأرض ، فتشبثت يداها بأهداب السماء ، ورفع وجهه الدامع الحزين إلى الله ، ينشد العدل والعون ، وكان قلبه المفجوع يهتف في صمت : « إلهي ضاقت بنا الأرض على رحباتها ، فهل أطمع في أن أجد إلى جوارك السعة والصفاء والسلوى ؟؟ إلهي قست قلوب البشر ، وتوسلوا بالشر والخطيئة ، وقامروا بحياة عبادك ومستقبلهم ، فهل تسكب على قلوبنا الملتاعة غيث رحمتك ، وجميل هدايتك ؟؟ » وهكذا عاش « أبو نجلاء » مغمض العينين عن الأرض الملوثة بالدم والخطيئة ، وما يضطرع على وجهها التعس من شقاء ومظالم وجنون ، وفتح قلبه للسماء الصافية وما يتوقعه فيها من رحمة وبر وعزاء ، وعاش بين اللاجئين شيخاً محطاً منطوياً على نفسه . لا يشارك في ضجيجهم وهديرهم ، لكنه يأسى لمصيرهم ، ويتجاوب مع أحزانهم في صمت العابد المتصوف ، واعتبر نفسه - كما اعتبروه هم أيضاً - عجوزاً متهالكاً ، يعيش على هامش الحياة المليئة بالمتناقضات .. لم يضايقهم هذا الوضع ، أو يدفعهم إلى التحامل عليه ، وتوجيه النقد إليه ، فقد كانوا - منذ دهمتهم النكبة - يلتمسون الأعداء للمساكين ، ويقدرون ظروفهم ، هم يعرفون أن « أبا نجلاء » خسر كل شيء - ماله وأبناءه ومستقبله - في لحظة خاطفة ، وهم يعرفون أنه بلغ من العمر أرذله ، وشيخوخته أضعف من أن تحمل كل هذا الشقاء والعذاب .. فليقع في خيمته صامتاً أوراكاً ، وليذهب كل صباح إلى المسجد الأقصى يريق الدمع ،

ويسكب الدعوات ، ويتمسح بالصخرة المقدسة ، وليردد الأوراد
والمأثورات ، لعله في بحر هذا العالم الصوفي الزاهي ينسى أساه ،
وتترقق في خياله بشائر الأمل والوصول إلى رحاب الله ..
إلى الجنة حيث يلقي القديسين والشهداء والصالحين ..

ولماذا يشغل نفسه بالدنيا وقد رأى بعيني رأسه فناءها ؟
وكيف يستجيب لمغرياتها وقد بان كذبها وغدرها ؟

وسمع ذات يوم خطيب المسجد الأقصى يقول : اعمل لدنياك
كأنك تعيش أبدا ، واعمِل لِآخِرَتِكَ كَأَنَّكَ تَمُوتُ غَدًا . . . وابتغ
فيما أنك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا . . . ومر
ملك على شيخ عجوز يزرع النخل فتعجب من ذلك إذ أن الزارع
لن يمتد به العمر حتى يجنى الثمر . . . فقال له العجوز ، إذا لم تأكل منه
فلسوف يجنيه أبناؤنا . . . « سمع » أبو نجلاء ، كل ذلك ، يخاف على
إيمانه أن يناله مخمز ، وداخله خوف مبهم . لقد فقد الدنيا أو كاد ،
ولم يبق له إلا الآخرة ، فإذا زأغت عقيدته ، وسقمت مفاهيمه
فقد خسر الدنيا والآخرة ، ولم يتمالك أن صاح في وجه الواعظ :

— « وماذا يفعل رجل شبه مقعد مثلي ليعمل لدنياه ؟؟ »

وأثلج صدره أن سمع الواعظ يقول : « لا يكلف الله نفساً
إلا وسعها . . . » ارتاح لهذه الكلمات ، لم يعد في وسعه أن يعمل

كثيراً ، قلبه الكسير ، وجسده المحطم لن يمكنه من الزراعة أو العمل . . ولم يعد أمامه سوى أن يحث خطاه الواهنة نحو الله . . وكان تأثير النسكبة على « نجلاء » مخالفاً تماماً ، وبالتالي اختلفت استجابتها لها ، لقد رأت بعينها الغدر المجسم ، فأقسمت أن تحطمه ، وشاهدت الظلم والظلام يطبقان على أرضها ، فعولت على أن تحمل مشعل العدالة والهدى ، وأن تبديد الظلم والظلام مهما كان الثمن ، وعلمت في ذلك اليوم المشؤوم أن عرض الآلاف سيكون مباحاً كما فعلوا بها ، فقررت أن تحمي شرف بنات جنسها وأن تدفع الثمن من هنائها ودمها . . كانت تتفجر حيوية وشباباً وثورة ، لهذا طلقت حياة الدعة والسلبية ، لا بد أن تفعل شيئاً . . وأن تمضي في طريقها حتى النهاية . . إنها صغيرة السن ، ومستقبلها ومستقبل الملايين يجب أن يجد الأمان وظلال الحرية المورقة . . ومن ثم كان أبوها يعيش في المسجد الأقصى متبتلاً زاهداً ، وكانت هي تمسك بمدفعها وتتخذ موقعا على تبة عالية ، تشارك الرجال ، وتقذف بالموت في صدور الأعداء ، وتنمو في داخلها مبادئ جديدة إيجابية تؤمن بالحق ، وتنتصر للحياة والحب والحرية . .

* * *

و ذات يوم ذهبت « ضحى » إلى « أبي نجلاء » ، أخذت تبحث عن خيمته حتى بلغتها ، واستأذنت في الدخول ، ورفع إليها الرجل

— ٢٤١ —

عينين أرهقهما الحزن والسهر ، ومن بين أهدابه المر تعشة وقعت
نظراته على فتاة كالزهرة البانعة ذكرته على التو بجور الحنة ، وقبل
أن ينطق بكلمة همست قائلة : —

— « معذرة أن كنت أستبيح لنفسي قطع خلوتك ، لكنى
أحمل إليك نبأ ساراً . . أعرف أنه سيدخل السعادة إلى قلبك . . ،
لم يفعل أو يبدو عليه شيء من الاهتمام . لم يعد هناك شيء يخرج
عن طبيعته الحزينة التي لا تتعشق شيئاً في الحياة مهما عظم ، لكنه
قال في سخرية مرّة : —

— « السعادة؟؟؟ »

— « أجل . . أجل . . »

— « السعادة في نظري هي لقاء الله . . »

— « ألا تعتبر يوم النصر الأكبر — عندما يجيء — سعادة
عظمى؟! » فهمس وهو يهز رأسه : —

— « إنه يوم عظيم لاشك . . لكنه سيكون مليئاً بالذكريات
الدائمة والدموع . . »

وأرادت « ضحى » ، معايشته ، لعلها تخفف عن نفسه بعض
ماشأها من آلام مبرحة متأصلة ، فقالت : —

— « تخمّن . . ماذا حملت لك من أنباء؟؟ »

— ٢٤٢ —

قال يائسا : —

— «الموتى لا يستيقظون الآن . وحيفاء لم تزل في يد الأعداء»
وأدركت أنه قد تذكر أسرته التى أودى بها الغدر الصهيونى ،
وتذكر «حيفاء» وعهدا الزاهر وأيامها الخالدة السعيدة ، وإذا كانت
أسرته قد طواها الموت ، وحيفا سلبها الأعداء ، فأى شئ يبهبه
بعد ذلك؟؟ قالت «ضحى» وابتسامة حلوة تولد كالفجر الندى
على ثغرها : —

— «نجلاء تقرؤك السلام . . .»

وانتابت رأسه ريشة مستمرة وهو يرفع إليها وجهه الشاحب
مرة أخرى وقال وهو يدقق النظر فيها :

— «نجلاء؟؟»

— «أجل . . .»

إنه لم يعد يفكر فى مصير أبنائه وزوجه منذ ذلك اليوم ،
لقد احتسبهم عند الله ، وألقى عليهم نظرة الوداع حينما أفاق من
من غيبوبته بعد إطلاق الرصاص ، وخروج العصاة اليهودية ، ولم
يعد يذكر سوى أنهم قد ماتوا . . ماتوا جميعا . ولم يعد هناك أمل
فى اللقاء إلا بعد أمد بعيد عندما يبعث الموتى فى العالم الآخر . .
فما الذى يسمعه الآن؟؟ إما أنه فى حلم من الأحلام الكثيرة التى

— ٢٤٣ —

تداعب أجفانه كل مساء حيث يلتقي بأجفائه في الوهم ويحدثهم ويحدثونه ،
وينعمون معا كما كانوا ينعمون في الأيام السعيدة الخالية ، وأما
أن هذه الفتاة — «ضحى» — تحاول أن تسخر من شيخوخته ، وتظنه
ملبثات العقل ، فجاءت لتوهمه بأكاذيب لا ظل لها من الحقيقة . .

وعاد يقول في صوت مبجوح : —

— « من أنت يا ابنتي ؟؟ »

— « ضحى ، ابنة الشيخ إسماعيل ريحان . . »

— « أبوك رجل صالح . . لكنك . . ماذا أقول ؟؟ »

فاختطف « ضحى » يده وقبلتها في حنان وخشوع ، ثم قالت :

— « أوكد لك أنها هربت من معسكر الأسرى في « حيفا » ،

والتحقت بالمجاهدين في منطقة « بتير » و « سور باهر » ، وأظهرت

بطولات خارقة . . إنها تحارب مع رجال أعرفهم . . منهم خميس

شاهين . . لم تكن « نجلاء » تعرف مصيرك . . كانت تحسب أنهم

اغتالوك . . لكن زوجي . . أعني . . خميس شاهين . . معذرة لم

تزوج بعد . . أخبرها بالحقيقة . . وسوف تأتي « نجلاء » لزيارتك

بعد أسبوعين على الأكثر . . »

وأخذ الرجل يتحسس « ضحى » بيده المعروقة الهزيلة ، لعله أراد

أن يتأكد أن من تخاطبه كائن بشري حقيقي ، لا طيف خيال . .

— ٢٤٤ —

ليس بيديه أهي وهم أم حقيقة ، إنه يشك في كل شيء يتصل
بالناس والأرض . . فالناس يغدرون ويكذبون ويقتلون ،
والأرض تقل هؤلاء الحمقى الخطاة . . وقال الرجل مبهوراً :

— « وما دليلك يا ابنتي ؟؟ »

— « بعد أسبوعين . . »

وغمغم وهو في شبه نشوة صوفية :-

— « وتولد الحياة من بين براثن الموت . . »

وأردفت ضحى :

— « كما ينبع الأمل من اليأس ، وكما يشرق الانتصار من بين

ظلام الهزيمة . . »

فرد الشيخ في ذهول :-

— « قادر . . سبحانه »

— « كلنا أبناؤك . . »

— « مات أبناؤي . . وأقرانهم أيضا يموتون كل مساء وصباح .

ما معنى ذلك؟؟ لا شيء سوى أن عالمنا مجنون . . متوحش . . »

قالت ضحى :-

— « لكل شيء نهاية . . ولن تتركنا العناية الإلهية لهذا الشقاء

مهما طال . . »

— ٢٤٥ —

— « أجل .. ورحمة الله وسعت كل شيء .. »

— « وعندما تعود «نجلاء» فسأصحبها إليك .. »

— « أحقاً تعود ؟ ؟ »

ولم يغب عن «ضحى» مسحة السعادة التي ارتسمت على ملامحه،
حقاً لن تستطيع «نجلاء» وحدها أن تعوضه عن فقد الآخرين جميعاً،
لكنها كالدينار الغالي الذي يعثر عليه صاحبه المفلس بعد أن فقد
كل ماله، إن هذا الدينار في يد صاحبه يساوي ملايين الدنانير
الذهبية ..

* * *

وبعد موت الشيخ اسماعيل ربحان بثلاثة أيام وصلت «نجلاء»،
كان الشوق المبرح إلى أحضان أبيها الدافئة يدفعها دفعاً قويا، وكانت
تشرد بخيالها إلى معسكر اللاجئين الذي لم تره بعد، وتتخيل أباها
جالسا في صمته الموحش، وشيخوخته التعسة الباردة، فتحاول أن
تثب من العربة لعلها تسبقها، ليت لها جناحين يحملانها في غمضة
عين إلى الرجل المسكين الذي يقف وحيدا على شاطئ الحياة ومن
حواله تزجر العواصف، وتقصف الرعود ... وشابت فرحتها
الطارئة الأنباء التي أكدت موت الشيخ ربحان، وهذا ما جعلها
تخرج على مركز الإسعاف وتقدم العزاء لضحى .. وبعدها عولت

— ٢٤٦ —

على الذهاب إلى أبيها ، وما أن بلغت باب مركز الإسعاف حتى
لحقت بها ضحى وهي تقول :

— « لقد وعدته بمرافقتك ... »

— « لكنك متعبة ... »

— « سأتي معك ... »

كان يجلس في أحد أركان الخيمة وعيناه إلى الطريق لا تطرفان
واختلجت نظراته وهو يراها واقفة لدى الباب ..

وصاحت : « أبي .. »

وهتف وقد انسابت دموعه : « ابنتى .. »

وألقت بنفسها بين ذراعيه ، كان يقول كلاماً كثيراً لم تع منه
شيئاً ، وكانت هي الأخرى تتحدث دون انقطاع ، ودموعها على
خديها لكنه أيضاً لم يع من حديثها شيئاً .. إنها لحظة تامة مليئة
بملا يستطيع بشر تحديده ..

وجلست إلى جواره تقول :

— « إنه حلم رائع ... »

وكان يقول :

— « أوركنت حياتي من جديد ... »

— ٢٤٧ —

قالت « ضحى » ، — وما زالت تقف بالباب — وابتسامة حزينة
تحوم حول ثغرها :

— « لقد نسيتمانى تماماً . . . »

وعرفها « أبو نجلاء » ، وعلى الفور تذكر أباهما ، قال فى نبرات
خفيضة تحمل معنى الأسى والعزاء :

— « أدخلى يا ابنتى . . . إنه بيتك . . . »

وبعد فترة صمت قال :

— « رحم الله أباك . . . كان من رجال الله . . . وكان من حديثه
نفوح رائحة الجنة » .

وجلس الثلاثة صامتين لفترة ، وكان فى الصمت نبضات أسى
عميق ، أيفرحون؟؟ أيجزنون؟؟ إنهم لا يعرفون ، كل ما كان
فى وسعهم هو أن يستأنفوا الحديث ، وتمضى الحياة على علاتها . .



الفصل الثاني والعشرون

انتعشت الآمال في صدور المحاربين ، وفاضت نفوسهم بالثقة والحماسة ، وأشرأبت أعناقهم نحو « تل أبيب » التي أصبحت على مرمى المدافع ، والمجاهدون يطبقون عليها من كل جانب ، والمقاومة الصهيونية تنكمش يوما بعد يوم . وصراخ عملائها ينطلق في أوروبا طالبا النجدة والتأييد ، ووضع حد للزحف العربي الذي يدوس العوائق والسدود ، لم تستطع الأسلحة الفاسدة أن تعطل الطليعة العربية المناضلة ، ولم يفت في عضدهم فساد الحكم والحاكمين ، ولم يرهبهم ضعف الإمكانيات أو غدر الثعالب التي تعمل في الخفاء وتبذر بذور الخيانة في الصفوف الأمامية والخلفية ، وأدلى قائد المصري بتصريح للصحف أكد فيه أنه سوف يقضى عطلة العيد في « تل أبيب » ..

لم يكن في حسابان الأعداء أن يروا هذه الانتصارات الرائعة من الجنود العرب نظاميين وفدائيين ، فقد كانوا يعلمون أنها جيوش لم تمارس تجربة الحرب منذ سنين طويلة ، ولم تلق رعاية أو عناية ، ما توقعوا أبدا أن يصمد هؤلاء المحاربون تلك الفترة وأن يحققوا تلك الانتصارات ، لكن الأعداء أدركوا في النهاية أن الاستهتار بقوة العرب لن يؤدي بهم لغير الهزيمة ، وإفساد مخططهم الاستعماري ،

(١٦ - أرض الأنبياء)

إن الحرب التي اعتبروها ملهاة تبعث على التسلية والضحك انقلبت إلى مأساة دامية تهدد مستقبلهم بالخطر ، إن الفلاحين والعمال وصانعي الأحذية وطلبة الجامعات والأزهر والمتطوعين من فرق الجيش المصرى والجنود النظامية هؤلاء جميعاً استطاعوا أن يحققوا المعجزات ، ويبدوا من ضروب البسالة والتضحية ما ينبىء عن توقعات لها خطرها ودلالاتها العميقة بالنسبة لوضع الصهيونية والاستعمار . . . وكان لابد من توجيه ضربة حاسمة تضع النهاية لهذا الخطر العربى ، الذى يولد فى جحيم المعركة وتولد معه قيم وأفكار جديدة ستؤدى من غير شك إلى انهيار تام فى الجهة الاستعمارية ومستقبلها . . . متى تكون الضربة ؟؟ وكيف تكون ؟؟ لم يكن أحد يدرى . . .

واجتمع شمل الرفاق فى كتيبة عمر بن الخطاب فى موقعهم المعروف ، وكان عددهم يفوق المائتين ، بينهم القائد القصير ذو اللحية السوداء ، وخميس شاهين ، وصالح بدران ، ونجلاء وبعض الفتيات الأخريات . وكان دور المتطوعين طوال المعارك الدامية دور الطليعة التى تسير فى المقدمة ، وتمهد الطريق ، وتقدم أغلى التضحيات ، وتقوم بالأعمال الرائدة الانتحارية ، وقال القائد القصير لبضعة نفر من حوله ، وهو يتطلع إلى بعيد : -

- اليوم آخر أيامنا فى هذا الموقع . . .

— ٢٥١ —

قال صالح بدران :

— « لا شك أننا سنترك بالموقع قوة تحرسه .

— « كلا . . . »

— « ما معنى ذلك ؟؟ »

— « القوات النظامية ستأتى بعد ساعة ، ستسلم منا المواقع

وسترابط فيها بأعداد كبيرة وعتاد كاف . . نحن فى سرعة كى نصل

مشارف تل أبيب فى أقصر وقت ممكن . . . »

قال خميس شاهين مت دخلا :

— « أى القوات ستحل محلنا ؟؟ . . . »

— « من الجيش الأردنى . . . »

فبدا على وجهه شىء من الامتعاض وقال :

— « تقصد قرات « جلوب » الانجليزى ياسيدى القائد ؟؟

لشد ما يزعجنى هذا التصرف . . إنجليزى يقود فيالق عربية . .

أليست مهزلة ؟؟ »

قال القائد فى سخرية مرة :

— « إنها سياسة عليا . . أوامر القيادة يا صديق . . الجندى

فى الميدان ليس عليه سوى تنفيذ الأوامر . . الطاعة العمياء . .

— ٢٥٢ —

وإلا ارتبك كل شيء ، ووجد الأعداء في صفوفنا ثغرة ينفذون منها إلى وحدتنا . . أنا مثلك يا خميس . . لن أثق في هذا الرجل مهما قالوا . . إن الدم الانجليزي البارد الملىء بجرائم الجشع والوقيعه لن يشع حرارة الصدق والوفاء . . ولن يقدر أمانينا العربية . . لكن ليس لنا في الأمر حيلة . . كل ما نستطيعه هو أن نفتح عيناً على الصهيونيين وأخرى على الخطوط الخلفية . . ،

ثم استطرد في صوت أجش وقد تطاير الحنق من عينيه : —

— « وأقسم لو بدرت باردة خيانة ، فلسوف أوجه مدافع رجالى نحو مصدرها . . الخيانة ذات وجه واحد سواء أكانت في صفوف الأعداء من أمامنا ، أو في صفوف الحلفاء من خلفنا . . إنها خيانة وكفى . . ،

كانت الشمس تصعد الأفق الشرقى في ذلك الصباح الندى ، وكانت تترامى للواقفين على التبة من بعيد قرى متناثرة توشبها النخيل وأشجار الزيتون والفاكهة ، وكانت الروح المعنوية بين الجنود مرتفعة جداً ، تعبر عنها تلك الابتسامات العريضة التي تشع ثقة وإيماناً ، إنهم يتقدمون وينتصرون وفي نشوة النصر والاستبسال لا تفكر غالبيتهم في شيء اسمه الخيانة ، إنهم يفترضون حسن النية في الجميع ، قليلون أولئك الذين يقلقهم المستقبل ، ويخافون أن تفلت من أيديهم تلك الفرصة الذهبية في الإجهاز على

— ٢٥٣ —

أصبهونية بسبب طعنات يضرها الغيب ، قد تسدد لهم من الخلف ..
 وكانت هذه الطائفة تمشى بحذر ، وتدمن التفكير ، وتتقلب - ليلاً
 ونهارها - على أحر من الجمر .. إن الدماء التي بذلت دماء غالية ،
 والهدف الذي من أجله يقدمون التضحيات أغلى ألف مرة ..
 والطريق إلى النصر كان وعراً شائكاً ، والطريقة التي عومل بها
 شعب فلسطين طريقة وحشية تثير الحفاظ ، وتحرك الضمائر ،
 ونتيجة هذه المعارك العنيفة سيرتبط بمصير العرب ومستقبلهم ، ومن
 هنا جاءت الخطورة وإدمان التفكير والإشفاق من الغد المجهول ..
 تلفت القائد حوله ، ثم قال :

— أين نجلاء؟؟؟ »

وأسرع صالح بدران باستدعائها تلبية لطلب القائد ، وأقبلت
 « نجلاء » مسرعة . وعندما وقفت أمام القائد قال لها :

— أرى أنه لا داعي لبقائك بيننا بعد الآن؟؟؟

وأذهلتها المفاجأة ، فهتفت في حيرة :

— « كيف؟؟؟ »

— يجب أن تعودى إلى القدس .. »

— « فى مهمة خاصة ؟ »

— « كلا .. يكفى هذا الدور الذى قمت به على أتم وجه .. »

— ٢٥٤ —

— « هل صدر مني ما يغضبك؟؟ »

— « بالتأكيد .. لا .. لكنني .. »

— « ماذا؟؟ »

— « أبوك في شيخوخته أحق بك منا .. ثم أنك ترين أن عدد الرجال كاف جداً .. »

وترقرقت الدموع في عينيها ، وأظلمها صمت كئيب ، صمت يعصف بالذكريات الأليمة ، والصور البشعة ، والعدوان الوحشي في « حيفا » ، على الرجال والأعراض والطفولة البريئة ، والشيخوخة المهذمة ، وهتفت :

— « إنك ياسيدي القائد تدفني إلى الانتحار . »

— « لماذا؟؟ »

— « لو أصررت على موقفك ، فلن أعود إلى القدس ، بل سأحمل مدفعي وأنطلق عبر الصحراء تجاه مواقع الأعداء ، وسأحارب وحدي حتى أسلم الروح ، دون أن أتراجع .. وهذا هو الانتحار بعينه .. »

قال القائد :

— « إصرارك على البقاء لا مبرر له .. »

— ٢٥٥ —

— « وبالنسبة لى ، له ألف مبرر . . . »

ورفعت أهدابها المبللة بالدموع إلى الرجال الواقفين حول القائد ، كانت تنظر إليهم نظرة استنجاد وتوسل ، وكأنها تطلب منهم أن يقفوا إلى جوارها ، ويؤازروا رغبتها ، إنهم يعرفون حماستها وتفانيها ، ويدركون عمق المأساة التي عاشتها بالأمس الدامى ، وخطا صالح بدران خطوة إلى الأمام . وقال :

— « سيدى القائد ، إن « نجلاء » قد قامت بدورها فى النضال

كأشجع رجل ، ولهذا أرجو أن ننحى مسألة الجنس جانبا . . . »

فابتسم خميس شاهين فى خبث ، بينما أردف القائد قائلاً :

— « لكن أباهما فى حاجة إليها . . . إنه مريض . . . »

قال « صالح » دون أن تفر حماسته :

— « المئات هنا تركوا وراءهم عجائز . . . ومرضى . . . وأطفالا

صغاراً وتسابقوا إلى شرف المعركة . . . والله لن يترك هؤلاء

القاعدين المساكين بل سيكون إلى جوارهم ، ويرعاهم بعطفه

وعونه . . . »

قال القائد باسمياً :

— « فى الحقيقة إنى مستريح لوجودك يا نجلاء . . . تماماً مثل

صالح بدران لكن . . . المهم . . . على بركة الله . . . »

— ٢٥٦ —

ولولا الحياء ، لاندفعت إليه «نجلاء» ، أو اختطفت يده لتقبلها
شاكرة ، كان هذا واضحاً في الفرحة التي ترقص في عينيها ، والتطلق
الذي كسا ملامحها ، ومال خميس شاهين على أذن صالح بدران
هامساً :

— « هل استرحت ؟؟ »

وأدرك صالح ما تنطوي عليه عبارة خميس من معنى ، فهتف في غيظ:

— « خميس .. »

فشد خميس قوامه ، وأدى التحية العسكرية وهو يكتف ضحكا
يغالبه ، وقال :

— « انتباه ... »

— « للخلف در .. الأمام سر .. »

وفعل خميس ما أمره به صالح ، وقطع عليهم ما استطرادهما
في الهذر صوت القائد حين قال : —

— « ألا تعرفون وجهتنا الجديدة ؟ »

فنظر الرجال إليه في تعطش إلى أخباره ، وقالوا بصوت واحد : —

— « كلا ... »

— « سوف نزمع الرحيل إلى « طول كرم » ، إنها بلدة

ريحها طيب ، وخيراتها كثيرة ، ثم إنها قريبة من أهدافنا التي
سننطلق نحوها . . .

قات « نجلاء » في سعادة : -

- « طول كرم ، رائحة حقاً . . أعناها من الجنة . ورائحة
بساتينها تنعش القلوب . . وينابيعها العذبة تحيي الأرواح . . .
والعذراى هناك يغنين أغنيات شجية ، كأنها ألحان سماوية . . . »
قال خميس شاهين ضاحكا : -

- « لا مكان للشعر في المعركة . . إنها موقع استراتيجى . . .

وكفى . . »

فوكزه صالح بدران قائلا : -

- « إنك ميت الخيال . . لا تستعذب الجمال . . . »

- « يكفى ذوقك الجميل . . . »

وتضحكا ، بينما همست « نجلاء » ، فى شبه ذهول : -

- « إني أعشق كل شبر من هذه الأرض . . وأنتم مثلى

لاشك فى ذلك . . إن تراها يحمل نبضات السنين ، والتاريخ الكبير ،

والمجد الذى يموت . . على هذا الثرى خطت أقدام الأنبياء . . الوطن

والتاريخ والمبادئ التى نبتت هنا لحن قدسى لن يموت . إنها الحياة . .

أتعون ما أقول أيها الإخوة ؟؟ »

كانت تبدو وكأنها فى صلاة خاشعة ، وكان وجهها الشاحب

— ٢٥٨ —

يشهد بما يعتمل في قلبها الغض من انفعالات جياشة ، وكان الوميض
الحى فى نظراتها يترجم عن حرارة وإخلاص . . . وكانت حركاتها
المتوترة توحى بالجد والثقة والعزيمة الحديدية ، ولم يجد الرفاق
بدا من أن يحنورءوسهم إجلالا واحتراما . . . حتى القائد القصير
ذو اللحية السوداء وجد نفسه يغمغم :

وطنى لو شغلت بالخلد عنه نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

* * *

وربط أفراد الكتيبة متاعهم ، وشحنوا عرباتهم بالمؤن والذخائر ،
وبقوا على أهبة الاستعداد حتى وصلت القوات الأردنية النظامية ،
واتخذت أماكنها فى الموقع . . .

وسارت القافلة كتيبة عمر بن الخطاب ، فى الطريق إلى « طول
كرم » ، يروها الأمل ، ويدفعها الشوق إلى الحرية والنصر الكبير .



الفصل الثالث والعشرون

أدرك العدو حركة الالتفاف والتطويق التي تضيق عليه الخناق، قوات من الشمال والجنوب والشرق تطبق عليه، وكان العدو منطقياً مع نفسه حينما أيقن أنه من الصعب دحر هذه القوات أو ردها على أعقابها، وكانت خطة العدو تنطوي على معنى واحد هو محاولة تعويق الزحف العربي، والاحتفاظ بما تحت يد الصهيونية من مواقع، فقد كانوا يؤمنون أن تطويل أمد المعركة سيكون في صالحهم، إذ سيعطيهم الفرصة للتدبير، والاتصال بالدوائر الغربية التي تعمل حساب النشاط المالي الصهيوني، والتي يهيم بها من الوجهة السياسية البحتة أن تصبح إسرائيل قاعدة لنفوذهم في منطقة الشرق الأوسط، وقنطرة لأطماعهم ومؤامراتهم . .

ورأت القوات الصهيونية المرابطة تجاه «طولكرم»، أنه ليس من المصلحة البقاء في مراكزهم والاكتفاء بصد العدوان، إذ أن تفكيرهم في الهجوم قد يكون في حد ذاته لا وسيلة للتوسع فحسب، بل أهم وسيلة للدفاع والاحتفاظ بمواقعهم، والاستمرار في المقامة لأطول مدة ممكنة، فضلاً عن أن الهجوم - في تلك الظروف بالذات - قد يوهم العرب بوجود قوة كبيرة قادرة ليس على الدفاع فحسب، بل على الهجوم أيضاً، وفي الحرب قد تنعكس

البديهيات فيهمج الضعفاء ، ويتخذ الأقوياء موقف الدفاع طبقاً
لخطة مرسومة . .

وفي اليوم الأول من وصول كتيبة عمر بن الخطاب إلى « طول
كرم » ، عمد القائد إلى تدبير وجبة ساخنة للضباط والجنود ،
وإعطائهم فرصة للراحة والترفيه والاستمتاع بفترة كافية للنوم ،
وفي هذا اليوم بالذات خرجت البلدة عن بكرة أبيها لاستقبال
الأبطال القادمين من عرض الصحراء وعليهم غبار السفر ،
وامتلأت الشرفات بالنسوة اللائي كن يزغردون ، ويلوحن بأيديهن
مرحبات ، وينثرن على الكتيبة الورود وأزهار اللارنج والبرتقال
والبنفسج ، واصطف الأطفال الصغار في الشوارع يرددن الأناشيد ،
وبمألن أفق المدينة بالهتاف والصياح ، ورفع الشيوخ وجوها
امتلات بالغضون ، واستطالت لحاها البيضاء ولوحوا بأيديهم
المعروقة ، وهم يحمدون الله ، ويزجون عبارات الشكر للوافدين
الأبطال ، ودموع الفرح تترقق في عيونهم ، لقد عاشت
« طول كرم » ليالى مسهدة طويلة ، يؤرقهم الخوف ، ويقلقهم توالي
الإغارات الصهيونية على ديارهم ، كانت « طول كرم » تحت مرمى
النيران الغادرة ، لا تدري أيدهما الشيطان فيقيم فيها المذابح ،
ويرقص على جثث الشهداء ، ويبلغ في دماء الضحايا ، أم تتداركها
عناية الله فيقيض لها من يقيمون من حولها درعاً واقياً ، ويثبتون
فيها قوائم السلام والرخاء ؟؟ والحياة على حافة الهاوية لحظاتها

عصيبة مريرة ، إذ أن الأحياء لا يشعرون بمذاق أى شيء
 فى الوجود ، إنها حياة أبشع من الموت ذاته ، ولهذا شعرت
 « طول كرم » بأنها تولد من جديد ، فلا عجب أن تخرج مهللة
 مكبرة ، وتنثر الورود ، وتترنم بأعذب الأغنيات والأنغام ،
 وتمتلئ قلوب أهلها بالشجاعة والأمل ، وتنظر إلى أوكار العدوان
 فى شماتة وسخرية .

وهتفت « نجلاء » : -

- « أنظروا . . طول كرم فى أسعد أيامها ،

ورد صالح بدران : -

- « إنها لسعادة كبرى أن يضحى الإنسان من أجل هؤلاء

الشرفاء . . . »

وأردف خميس شاهين :

- « لكأنى أرى الله فى عيون هؤلاء الأطفال الأطهار . . . »

وبعد يومين اثنين ، اتخذ الرجال مواقعهم حول المدينة وعلى
 مشارفها ، وانضم إليهم عدد كبير من رجالها ، ظلوا طوال الفترة
 السابقة يقومون بصد العدوان ، وحماية السكان ، ومع الأمن والأمل
 عادت الحياة إلى طول كرم ، خرج الرعاة بأغنامهم وأنعامهم ، وتسابقت
 الأيدي لرى الزروع ، وجنى الثمار ، وعمرت الأسواق ، ونشطت
 حركة البيع والشراء ، وعاد الصبية يحملن بالمستقبل ، ويمرحن فى

الساحات ، وياً كلن الحلوى ، وفقهاء المكاتب والمعلمون فى المدارس أخذوا يذكرون أطرفاً من معارك الزمن الغابر مثل حطين وعين جالوت ، ويروون حكايات عن صلاح الدين ويبرس ونجم الدين أيوب .. وهزيمة الفرنجة ، وأعلام النصر وهى ترفرف فى بيت المقدس ودمشق وبغداد والقاهرة ، وكأنهم يتغذون بهذه الذكريات الرائعة المجيدة ، ويتخذون منها زادا للمعركة القاسية الممتدة فوق الأرض المقدسة . . . ولا شىء يحى النفوس فى ظلمات النكبات الطارئة أروع من ماض رائع ، ينبثق منه فجر الأمل العذب . .

وفى اليوم الثالث هرول رجل أشبه برجال البادية ، وكان يقصد مركز القيادة ، فاعترضه صالح بدران ، فبادره الرجل قائلاً :-

- « لا بد أن أقابل القائد ، .

- « تستطيع أن تقول ما تريد . . . »

- « لكنه أمر يخصه . . . »

وأمام إلحاحه ، قاده صالح إلى القائد فى حجرته ، فأشار عليه بالجلوس وأمر صالح بالانصراف ، وبعد فترة صمت ، تبادل الرجلان نظرات فاحصة ، ثم قال الرجل :

- « سوف يهجم اليهود الليلة ياسيدى القائد ، .

ولما لم يعلق القائد بشىء استطرد الرجل :

— ٢٦٣ —

— « وهم يعرفون مواقعكم وعددكم . . . »
وظل القائد معتصماً بالصمت ، قال الرجل :
— حمل إلى أحد رجالنا نبأ استعدادهم ، ورجالنا قلمنا
يخطئون . . . »

وأخيراً قال القائد :

— من أنت؟؟؟ »

— « اتبع مخبرات القيادة العسكرية بالجبهة المصرية ، وقد
صدرت إلينا الأوامر في هذه المنطقة بالاتصال بك . . . »

— « ما اسمك؟؟؟ . . . »

— « اسمي الحركى كنعان . . . »

وغمغم القائد في هدوء :

— « رقم تسعة ؟ »

— « بالضبط . . . »

— « وقدمك اليسرى »

— « ذات أربعة أصابع فقط . . . »

— « حسناً . . . كم ترجع عدد المهاجمين؟؟؟ »

— « لن يزيدوا على خمسين رجلاً وامرأة . . . ياسيدى القائد »

— ٢٦٤ —

— « ألدبك معلومات أخرى ؟؟ »

— « السلاح الأبيض سيحسم المعركة ، وأنت تعرف السبب »

— « بالطبع . . . إنهم جبناء . . . »

— « إذا التحمتم معهم فسيركعون . . . عند الهزيمة يجيدون

تقبيل الأحذية ، وإذا ما انتصروا افترسوا الضعفاء في جبن
وشراشة . . . »

— « أشرب فنجالا من القهوة . . . »

— « هذا واجبنا . . . إلى اللقاء . . . »

ومع ليل الحرب تنعكس الآية ، فتخاصم الأجنان النوم ،
وتلعب العيون باليقظة ، ويضئ الظلام بشعاع الإيمان ، فتعرف
الأقدام طريقها ، وترى القلوب الطريق وإن لم تره العيون ، وتضج
الأرواح بالآمال والتوئب والمشاعر المتلاطمة ، وخرج ثلاثون
من كتيبة عمر بن الخطاب وقطعوا في الطريق خارج المدينة
ما يزيد على ميلين ، وتبعهم عشرون آخرون أوغلوا في
البعث ميلاً آخر ، لكنهم تواروا تماماً عن الأنظار في حفر
عميقة ، إذ لا بد ألا يراهم الأعداء إذا مروا بهم ، وتسلسل أفراد
العصابة الصهيونية .

كان في نيتهم أن يشعلوا المعركة عند مدخل « طوم كرم »

— ٢٦٥ —

لعلمهم بذلك يشيرون الفزع في نفوس الأهل والملتطوعين ، ويوهمونهم بأنهم قوة كبرى على جانب لا بأس به من البسالة والجسارة ، إذ يضربون المتطوعين في عقر دارهم .

همس خميس شاهين وهو يتصبب عرقاً :

-- « إنهم يقتربون » .

قال صالح بدران وهو ينتفض برغم حرارة الجو :

-- « ثق أنى أجيد المصارعة اليابانية » .

-- « لا يستطيع أحد أن يتفوق على في استعمال السلاح

الأبيض مع أنه عمل أستبشعه . . . »

-- « إننا نجرع الدواء المر برغم كرهنا له . . . لماذا؟؟ » ،

-- « كي يتحقق الشفاء من الداء . . . »

وساد الصمت فترة ، كان صمتاً رهيباً ثقيلاً ، يجب أن ينتهي

الأمر على أى وجه وبسرعة ، إن صالح متعجل ، وخطته في الحياة

أن يحسم دون تردد أو انتظار ، لم تعلمه الفلسفة الروية والتبصر ،

وقال :

— « متى نبدأ؟؟ . . . » .

-- « الآن !! »

وانطلقت رصاصة في صمت الليل الرهيب ، وفي لحظات كان

الالتحام ، لم يستطع المهاجمون أن يفكروا طويلاً ، كل ما استطاعوا

(١٧ — أرض الأنبياء)

فعله هو اطلاق الرصاص في أى اتجاه وبدون هدف ، لكن السلاح الأبيض كان له بريق مخيف وحشى ، إن المماجأة أذهلت العدو وكان أسلم شيء بعد أن فشلت الرصاصات الطائشة في انقاذ الموقف أن يفروا متراجعين ، لعلمهم يستطيعون إعادة النظر في الموقف من جديد ، لقد قتل بعضهم ، وأسر البعض ، لكن غالبيتهم ولت هاربة ، فاعترضها حاجز من عشرين رجلا ، وإن لم يعرفوا عددهم آنذاك ، وتبعهم المتطوعون ، فوقعوا بين نارين ، وصاح قائد الهجوم الفاشل :

« إننا نسلم أنفسنا . . . »

وهتف القائد العربى القصير :

« ألقوا بسلاحكم ، وارفعوا أيديكم . . . »

وانصب على صف المنهزمين ضوء عدد من الكشافات الصغيرة ، كانوا يقفون منكسى الرؤوس ، لا يقوون على مواجهة الضوء ، وأيديهم مرفوعة في الهواء ، كانوا يزيدون على الثلاثين ، بعضهم ينزف دماً ، ويبدو أن عدداً قليلاً منهم قد استطاع الفرار منذ البداية ، وأعطى القائد العربى بعض الأوامر في صوت هامس ، فتقدم بعض المتطوعين ، وجمعوا السلاح الملقى على الأرض ، بينما قام البعض الآخر بربط يدي كل جندى صهيونى من الخلف ، ثم ساقوهم قطيعاً واحداً ذليلاً إلى « طول كرم ، . . »

— ٢٦٧ —

وقال خميس شاهين وهم يسرون تحت جناح الظلام :

— « إن ثلاثين أسيراً صيد ثمين حقاً . . . »

قال صالح في أسي :

— « لكننا ضحينا بشهيدين ، وثالث في حالة خطرة ، وخمسة

من الجرحى . . أليس هذا مؤلماً ؟؟ »

— لا يعقل أن تنتصر بلا تضحيات . . . »

وعاد صالح يقول :

-- « أحسن القائد صنعاً أن يمنع « نجلاء » من الخروج معنا

الليلة . . . »

-- « فعلاً . . إنها معركة لا تتفق مع طبيعة النساء . . . »

ثم عاد « خميس » شاهين يقول :

-- « لكن لماذا تفكر فيها الآن ؟ »

-- « ألسنا إخوة ؟؟ »

« مازلت عند رأي يا صالح ، . »

-- « ماذا تعنى ؟؟ »

-- « أنت تحبها . . أنك تذكرها وقت الخطر ، وتدافع عن

رغباتها إذا ماجد نقاش حاد . . ولا تقدر على رحيلها . . . »

قال صالح في شيء من الضيق :

-- ٢٦٨ --

« يبدو أن عنف المعركة قد أصابك بلوثة . . . »

-- « لوثة حب . . . ها . . . »

ولم يشعر بالقائد وهو يقترب منهما ويقول في صرامة :

-- « اذكروا شهداءكم . . . إن دماءهم الساخنة لم تبرد بعد . . . »

فكروا في شيء آخر غير هذا المزاج السهيج . . . »



الفصل الرابع والعشرون

وبقدر ما انزعجت طول كرم ، في المساء وهي تستمع إلى طلقات الرصاص وصراخ الرجال في المعركة ، فقد دقت طبول النصر في شوارعها في اليوم التالي ، وطرب الناس وهم يتناقلون أبناء ذلك الانتصار الخاطف ، وكان على القائد أن يعرض طابور الأسرى في المدينة فسيكون له أعمق الأثر في نفوس الأهالي ، وبالتالي يسهل مهمة قوات المتطوعين وييسر لهم سبل الحصول على كل ما يحتاجون إليه .

وعلى الرغم من أن « نجلاء » لم تستطع الاشتراك في المعركة فإنها كانت في المساء تحرس موقعا من المواقع خارج المدينة ، لتحمي — هي ورفاقها ورفيقاتها — ظهر القوات أثناء الالتحام المباشر ، وقضت الليل ساهرة تعيش المعركة بأعصابها المتوترة ، وتدعو الله من أعماقها أن يكتب لهم التوفيق ، إذ أن المعركة الكبرى تقترب ، واحتلال « تل أييب » يبدو كالأمل الحلو الذي سيفتح الطريق إلى كل الأمان العذبة ، ويفتح الطريق أيضاً إلى « حيفا » الحبيبة ، وانتهت نوبتها في الصباح الباكر ، وكان عليها أن تعود إلى مبنى « الاستراحة » كي تحظى بوضع ساعات من النوم ، ولتهنيء إخوانها بما أحرزوه من سبق ، وقبل أن تأوى إلى فراشها ، طلب القائد منها ومن بعض الزملاء ، أن يحملوا إلى الأسرى طعاماً كي يتناولوا وجبة الفطور ، وأوصى

« نجلاء » بالذات أن تحاول تضميد جراح من أصيبوا منهم حتى يتسنى ترحيلهم إلى أقرب مركز للإسعاف ، وكان واضحاً أن القائد يجب ترحيل الأسرى بسرعة إلى أقرب المعسكرات وتسليمهم للقوات المضرية النظامية كي لا يكونوا عبئاً عليه ، وخاصة أن الأعداء - لا شك في ذلك - لن يقبلوا هذه الهزيمة الماحقة ، ولن يسكتوا على فقد ثلاثين أسيراً وعدداً من القتلى ، ورجح القائد أنهم سيطلبون نجات سريعة ليعاودوا الكرة ، ولينتقموا لأنفسهم ، أو لعلهم يستردون أسراهم ، وبالفعل ألفت « نجلاء » سلاحها جانبا ، وحملت بعض الأربطة والقطن الطبي وقليلاً من العقاقير المطهرة ، وسارت مع صالح وخميس شاهين إلى المكان الذي يأوي إليه الأسرى ، وبينما كان رفاقها يوزعون الطعام كانت هي تقوم بعملية الإسعافات الأولية - وداعبها خميس شاهين ضاحكا وهو يقول :

- « أنت في هذا الفن تليذة صغيرة بالنسبة لضحى ، . . .

فردت عليه قائلة :

- « ضحى صديقتي . . . فلا تحاول الوقعة بيننا » .

كانت « نجلاء » تمر على الأسرى سائلة عن أصيب منهم ، ورأتهم وهم قاعدون في تخاذل تام ، ويأس مرير ، الشحوب الذي على وجوههم يوحى بتعاسة قاتلة . القلق المتبدى في أعينهم يبين مدى الرعب الذي يعتصر قلوبهم ، إنها بالنسبة لهم لحظات موت

غير كامل ، لهم حيث يؤكد الضياع ، وفي نفس الوقت يضاعف
 آلامهم الهائلة ، ومع ذلك لا يموتون كل أسير يحلم أحلام طفولة
 مقيدة ، نظراتهم مركزة على التراب ، وعقولهم تحلق إلى بعيد حيث
 بقية العصابة وحيث الحرية .. إنهم يجهلون مصيرهم . أهو القتل
 أم السجن ؟؟ أيعودون إلى الأهل والأحباب والذكريات أم تنتهي
 آمالهم وأطماعهم إلى الظلام والفناء ؟؟ يالها من أحاسيس تدركها
 « نجلاء » أكثر مما يدركها غيرها ، فقد كانت أسيرة ذات يوم ..
 وكانت .. وكانت ، وهؤلاء الرجال التعساء اليوم يشعرون بمرارة
 التجربة ، يقاسون خيبة الأمل ، ورعب المستقبل المجهول ، وكم تمت
 « نجلاء » في هذا الوقت أن تصرخ فيهم قائلة : « هذا هو الحصاد أيها
 الأغبياء .. يا ضحايا الغرور » لكنها آثرت الصمت ، وظلت منكبة
 على عملها تؤديه بطريقة بدائية لا حنكة فيها ولا ذقة ...

وقبل أن تنتهي من عملها سمعت صوت أحد الأسرى يقول :

— « يا آنسى .. هذا الرجل في حالة سيئة .. إنه ينزف بكثرة ،

وأشار الأسير بيده إلى رفيقه ، فقالت « نجلاء » وهي تخطو نحوه :

— « سوف ننقله فوراً إلى أقرب مستشفى »

كانت تقترب منه ، وهو يرتمي بمدد الساقين ، مضطجع على

الحائط ، ووجهه الباهت يتجه إلى ركن الحجرة ، وأنفاسه المتحشجة

تطن في أذنيها ، وعندما نظرت « نجلاء » إلى وجهه ، تراجعت في

— ٢٧٤ —

ذعر ؛ وندت عنها صرخة عالية :

— « ليفى ، أيها الجاويش القذر . . . »

ووقفت مسمرة في مكانها . لم تعد تر شيئاً أمامها ، عيونها امتلأت بالدموع ، ومن خلال دموعها كانت تشهد سطور المأساة القديمة .. المأساة التي لن تنساها « ليفى » .. وهو يأمر الرجال بقتل أهلها .. « ليفى » وهو يجرها إلى عربة تشبه عربة الكلاب . . . « ليفى » وهو يلبسها في خبث وعربة . وشعور بالعثيان والتقزز يملأ روحها .. ليفى يحاول تقبيلها .. ثم يهددها بالعقار المخدر .. ثم يغرز الإبرة في جسدها .. ويقهقه كالشيطان في النهاية .. ويفرح بالنصر الخسيس الذي أحرزه .
وصرخت مرة ثانية وجسدها بنتفض كله :

— « ليفى ، أيها الحقير ،

وحول « ليفى » إليها وجهه في شيء من الجهد ، كانت علامات الإنهاك والعرق الغزير تكاد تخفى ملامحه ، وما أن رآها حتى داخله رعب قاتل ، وتذكر كل شيء على التو لكنّه انفجر باكياً وهو يهتف في نبرات واهنة ضعيفة :

— « من أنت ؟؟ أنا لا أعرفك .. وأنا رجل على أعتاب

الموت . . . »

واحتبست دموعها ، وسرعان ما جففت وجهها ، ورمت بما
في يدها من أدوات طبية وعقاقير ، وقالت وهي تصر على أسنانها
وحقد هائل ينبثق من عينيها : -

- « لكنى أعرفك » يالبنى ، .. أعرفك كما أعرف أمى التى
قتلتها .. وأخوتى الذين رميتهم بالرصاص من الخلف .. أعرفك
كما أعرف نفسى التى أورتتها العار .. أتذكر يا حقير ؟؟ إن مكان
وغز الإبرة لم يزل يؤلمنى .. يؤلمنى الآن أكثر من أى وقت
مضى .. ويبعث فى بدنى قشعريرة فظيعة .. « نجلاء » عاشت ..
وشبح العار يطاردها .. ظل منتصباً على رأسها .. ولن يهدأ بالى
إلا إذا قضيت عليك .. وانتقمت للأحزان القديمة التى تعشش
فى قلبى . الأهل والشرف أنت قاتلتهما يالبنى أيها الوغد النذل .. »

وتجمهر إخوانها المتطوعون فى لحظات من حولها ، ورفع الأسرى
إليها وإلى « لبنى » نظرات الدهشة ، وبحث « نجلاء » عن مسدسها
فى جيب سروالها الخلفى ، وقالت وهي تصوب مسدسها إلى صدره :

- « إنه حكم عادل إذا أنا أنفذ فيك حكم الإعدام .. »

ولم تكذب تفعل ذلك ، وتستعد لإطلاق الرصاص ، حتى فوجئت
بىد قوية تضرب المسدس ، وترمى به إلى بعيد ، وأفاقت « نجلاء »
إلى نفسها ، ثم نظرت إلى من فعل ذلك وكأها سخط ونقمة ، كان
القائد القصير ذو اللحية السوداء يقف قبالتها ، ونظراته الحديدية

— ٢٧٦ —

تنصب على وجهها الذي لا يفترق — في تلك اللحظات — عن
وجهه مجنونة ، وصرخت « نجلاء » :

— « ماذا فعلت ياسيدي القائد ؟؟ »

وفي لهجة صارمة قال :

— « إني أمرك بالابتعاد عن هذا المكان . . . »

— « بل سأقتله . . . »

— « لن تفعلها . . . »

— « أتعرف ؟؟ »

— « كل شيء . . . أعرف أنه ذئب و ثعبان و وحش . . . »

و صورة مجسمة للانحطاط البشري ، لكنك لن تقتليه . . . »

— « هذه قسوة . . . »

فرمى القائد الجاويش « ليفي » بنظرة شذراء و قال في سخرية :

— « هذه القسوة يسميها الجاويش « ليفي » رحمة . . . »

وسمع القائد حركة و صخبا من خلفه ، و التفت نحو مصدر

الحركة ، كان صالح بدران هو الآخر ، يحاول إطلاق الرصاص على

« ليفي » ، و خميس شاهين يمسك بيده ، و يمنعه من ذلك ، فصاح

القائد بأعلى صوته :

— « ماذا ؟؟ هل جئتم ؟؟ »

— ٢٧٧ —

قال صالح بدران وهو يقاوم — مستميتا — وقد اجتاحتها
موجة عارمة من الثورة :

— « لا يعقل أن يفترس أسرتها ، ويغدر بها ، ويرتكب
أبشع جريمة تتعلق بالشرف ثم تتركه حياً .. إنها سداجة منا ..
بل حماقة ، إن الرحمة الآن خيبة كبرى .. دعوني .. دعوني .. »
وصاح القائد مرة ثانية :

— « اقبضوا على صالح بدران وقيده بالحيال .. وضعوا
« نجلاء » في حجرتها بعد أن تربطوا قدميها ورجليها .. وكل من يحاول
الخروج على أوامري أو الاعتداء على الأسير ، فسأطلق عليه
الرصاص مهما كان عزيزاً لدى .. هيا .. اذهبوا .. »

واقطع صالح بدران إلى الخارج وقد أمسك بكل ذراع من
ذراعيه واحد من إخوانه ، وتبعته « نجلاء » خارجة دون أن يمسك
بها أحد ، كانت منكسة الرأس ، محتقنة العينين ، كانت تسير مهدمة ،
وكأنها تقيم — لأول مرة — جنازة حقيقية لضحايا بيتها ، وتستشعر
جرح نفسها الدامي ، الذي يؤلمها أكثر مما يؤلمها أي شيء آخر ،
وما أن غابا عن الأنظار حتى التفت القائد إلى الجاويش
« ليبي » ، وقال :

— « كنت يالبي سافلا .. لكننا لن نجاريك في سفالتك ،
إننا أمة تحكمها قيم ومبادئ .. »

قال « لبي » ، في كلمات متقطعة وأنفاسه تتلاحق :

— ٢٧٨ —

— « أعترف بحقارتى . . . »
 وقال القائد وهو يزعم الخروج :
 — « سننقلك إلى المستشفى . . . »
 — « هات يدك أقبلمها ياسيدى . . . »
 — « إننى أكرهك كما لم أكره أحداً من قبل . . . لكنى
 سأخصص لك حارساً حتى لا يصيبك أحد بسوء . . . وبعد أن
 تشفى سأقدمك لمحاكمة عادلة ، ودافع ما شئت عن نفسك . . . أنت
 مجرم حرب « ياليفى » . . . ، وأخذ « ليفى » ينشج كما تنشج النساء . . .
 وخرج القائد ، وأصدر أوامره بالبحث عن عربة « جيب »
 زائدة عن الحاجة ، كي تنقل الجريح « ليفى » وبعض صحابه من الأسرى
 الصهريين إلى أقرب مركز الإسعاف .
 كان القائد هو الآخر ، وليس « نجلاء » وصالح وحدهما .
 يحاول جهداً أن يكبح مشاعر الحقد التى اشتعلت فى قلبه تجاه
 « ليفى » ، وكان القائد يعتقد أنه ليس من البطولة أن ننتقم ، ولكن
 أروع من ذلك أن ننتصر على نوازع الحقد والانتقام ، وأن نحكم
 المبادئ الإنسانية فى معاملة الأسرى ، ونحكم الضمير والقانون . . .
 كان هذا فى رأى القائد أروع نصر . . .

جلست « نجلاء » فى حجرتها وحيدة ، وصورة « ليفى » لا تغادر

رأسها ، لم يكن يكفياً أن ترميه بالرصاص ، كانت تريد أن تشفى غليلها ، وتنتقم لأحزان الليالي الطويلة ، لا بالرصاص وحده ، بل بأظافرها وأسنانها . إن ما فعله « ليفي » ذات يوم لا يمكن أن يصدر عن آدمي . . . وغازطها أن يقف القائد في طريقها ، إنها تحمره ، وتقدر شخصيته وتفكيره وخلقه ، لكن ما فعله اليوم قد آذى شعورها ، وصدم آمالها ، ومع ذلك فقد كانت تشعر بغير قليل من الراحة ، فقد وقع عدوها الشخصى - ليفي - أسيراً بين يديها ، إن هذا في حد ذاته عامل مخفف لما يغلى في داخلها من جيشان و ثورة . . .

وتوارت صورة « ليفي » النذل عن عينيها ، ولمعت صورة « صالح بدران » وخفق قلبها ، وهي تستعيد المشهد الرائع ، حينما حاول صالح أن يقضى على الوغد ، لقد شعرت « نجلاء » وهي ترمق انفعالاته وثورته ، أنه - صالح - أقرب ما يكون إلى قلبها ، كان صمته دائماً يشى بآلاف المشاعر الصاخبة ، وكانت نظراته - منذ أن رآته - تتحدث حديثاً طويلاً ، هي تفهمه ، وإن لم يحاول صالح أن يترجم عنه صراحة . . .

إن صالح في رأيها خلق آخر غير « نادر » الذى خان الأمانة ، وصالح يختلف تمام الاختلاف عن القائد الحازم الذى تشعر نحوه بمشاعر البنوة والتلذذ ، وصالح يختلف أيضاً عن خميس شاهين

- خطيب ضحى - لأنه في نظرها واحد من إخوتها .. أجل .. صالح يختلف عن كل من تعرف .. إنه إنسان مميز في تصرفاته وعواطفه وأخلاقه ، له طابعه الخاص سواء أخطأ أم أصاب ، أو تحدث أم صمت .. وهي تشعر إلى جواره بالألفة والأنس ، وترتاح كثيراً لحديثه ، عندما كان يتحدثها عن القاهرة وحي السيدة عائشة كانت تجد نفسها منجذبة إلى عالم ساحر شائق ، يخفق له قلبها ، وعندما يروى لها عن طرائفه وذاكراته في الجامعة وكلية الآداب ، تشرب حديثه في ظمأ وكأنه ماء عذب يحيي الروح . وإذا ما تكلم عن المستقبل توردت وجنتاهما ، وطرفت عيناهما في ارتباك .. لكنها لم تجد في نفسها الشجاعة الكافية لتضع النقط فوق الحروف وتحدد معنى هذه العلاقة الوليدة ، أو لعل ارتباطها بمأساتها ، وتأثرها العميق بها ، أسكت إلى حين صوت الفطرة في أعماقها ، وكان صالح - هو الآخر - يرى العار كل العار في أن يفصح عن حبه وسط حقول الدم والصحايا ، وهدير المدافع ، ودوى القنابل يهيم الأذان .. وهكذا عاش حبهما في الظلال .. لم تتحرك لتشرق عليه الشمس وتضيء ملامحه . ودع انزوائه كان يتفجر قوة ، ويزداد نمواً واشتعالاً ..

ودخل عليها القائد وهي تحلق في آفاقها الوردية وتبتسم ابتسامة خفيفة ، وقال غاضباً : -

— ٢٨١ —

— « المعركة ليست معركة بيت «نجلاء» .. إنها فوق المآسى الشخصية والانتقام الرخيص .. معركة أمة لا بيت صغير مات سكانه .. »

وتمت «نجلاء» وقد تسلل شعاع من السكينة إلى نفسها : —

— « أعرف ذلك ؟؟ »

— « وما قيمة هذه المعرفة ما دامت لا تؤدي إلى النتيجة

المرجوة ؟؟ »

— « آسفة .. »

— « كلبة واحدة أقولها .. ولاحر مرة .. »

قالت «نجلاء» وقلبا يدق : —

— « ما هي ؟؟ »

— « إطاعة الأوامر .. أو .. الرحيل عن هنا .. »

وهتفت «نجلاء» في ذعر : —

— « الرحيل ؟؟ »

— « أجل .. »

— « مسحيل .. سأكون طوع بنانك ، ولن أرتكب مخالفة

بعد اليوم ، لم تكن نجلاء تتصور أنها قادرة على الرحيل ، بالأمس

(١٨ — أرض الأنبياء)

كانت تتعلق بآمالها في النضال المستميت . وتحرير وطنها ، والانتقام من الذين غدروا بها ، واليوم هي أشد ما تكون تشبثا بمواصلة النضال ، أنها تنتصر ، وقلبها يستيقظ . . . ولهذا أصبحت كلمة « الرحيل » ناقوس خطر يزعجها ، ويصيب أمانها وأحلامها بالشلل . وتركها القائد ، وقد استراح إلى حديثها ، ورجوعها إلى الصواب ، ثم ذهب إلى صالح بدران ، كان صالح يقف مربد الوجه ، مقيد اليدين والساقين ، وما أن رأى القائد حتى أعتدل في وقفته ، وشد قامته ، ووقف في وضع « أنتباه » ناقص ، وقال القائد في لهجة صارمة .

-- « لم أكن أتصور أن تفعل ذلك ؟؟ هل تحولت عن طباعتك ،

-- « كنت أسمع أبي يقرأ الآية الخالدة : « ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب » فلا أدرك معناها . . اليوم فقط تيقنت أن في القصاص حياة . . لو فعلنا بهذا المدعو « ليفى » أبشع الأفاعيل لما استطعنا القصاص منه كما يجب . . هؤلاء الجبناء يعاملون أسرارنا بوحشية ، ولا يرحمون الجماهير العزلاء عن السلاح . . كان يجب أن نعاملهم بالمثل . . »

قال القائد ، ورنه الحزم تقبدي في حديثه :

- « أولياء الأمور وحدهم هم الذين يحددون مسألة القصاص ويبتون فيها ، وإلا تحول الأمر إلى فوضى . . »

— ٢٨٣ —

واستراحت نفس القائد وانفجرت أساريره حينما سمع
صالح يقول :

- « هذا حق . . »

- « أتقولها مجرد ترضية ؟؟ »

- « عار على أن أخدعك . . »

- « حسنا . . كلمتي الأخيرة هي : إما الطاعة أو ترحل عن
عنها . . » وأزعجته كلمة الرحيل ، إنه يفعل أى شىء إلا أن يرحل
عن رفاق المعركة ، والجهاد الشريف الذى ضحى من أجله بكل غال ،
ولمعت فى ذهنه عند ذلك أيضاً صورة نجلاء ، فارتجف جسده ،
وقبل أن يتكلم قال القائد :

- « أيهما تختار ؟؟ »

- « الطاعة . . »

- « هذا ظنى . . ما زلت أثق فيك ، وأقدر رجولتك
وبسالتك . . والآن دعنى أفك هذه الحبال ، وأحرر ساقيك
وقدميك . . »

- أشكرك . . »

وبينما كان القائد يفك وثاق صالح ، ويتبادل معه الأحاديث
الباسمة ، مخففاً عنه أثر العنف الذى عامله به ، أتى أحد الجنود
مهرولاً وقال :

-- ٢٨٤ --

- « سيدى القائد .. عربة « الجيب » مستعدة لنقل الجرحى ..
والجاويش الصهيونى « ليفى » قد مات .. ،
وهتف القائد : - « مات ؟؟ كيف ؟؟ » ،
- « كانت إصابته خطيرة .. لم يؤذه أحد .. »
وتبادل القائد وصالح النظرات الصامتة العامرة بكل المعانى ،
وتمتم القائد :
- « رأيت ؟؟ لقد أراد الله أن ينتهى أمره .. وتنتهى
المشكلة .. »

الفصل الخامس والعشرون

حينما تسلم القائد رسالة بالشفرة من القيادة العامة ، لم يطوها في جيبه ، بل سار توالى إلى حجرته وفك رموزها ، وذهل وهو يقرأ آخر الأوامر الصادرة إليه : « أوقفوا العمليات . لا تتقدموا . . لكن حافظوا على مواقعكم حتى الموت ، ولا تراجعوا عن شبر واحد منها للعدو . . انتظروا أوامر جديدة . . » وكان في الإمكان أن تمر هذه الرسالة كما مر غيرها ، إذ سرعان ما تتغير الأوامر ، وتبدأ العمليات من جديد . . لكن القائد يشعر هذه المرة بقلق لا يعرف مصدره ، قلبه يحدثه بكارثة لم يتحقق منها ، ليست هي المرة الأولى التي يخضع فيها لتأثير إرهابات غامضة لا يدري كنهها ، حياته مليئة بهذه التنبؤات منذ أن بدأ الكفاح ضد الطغيان في وطنه مصر ، ومنذ أن ساهم في معارك حرب العصابات في القنال ، وبعد أن جاء أيضاً إلى هذه الأرض المقدسة . . ومع ذلك فإن القائد يحاول جاهداً أن يقهر هذا الخوف المبهم ، دائماً يتشبث بأهداب الأمل ، وينظر إلى الجوانب المشرقة في حياته ، لعل إشراقها يبدد ظلمات القلق والخوف . . وكان القائد يعد العدة لهجوم جديد كان لا بد منه لاحتلال موقع قريب سوف يضمن له ولرجال الأمان والحماية ، بقدر ما يضعف في جبهة العدو

— ٢٨٦ —

وينقص من رقعته ، ويدع ثغرة خطيرة في خط دفاعه .. وجاءت
نجلاء تقول :

— « أرجو ألا تحرمني من المشاركة في هجوم الغد .. »

وقال صالح باسمياً :-

— « كلما اقتربنا من « تل أييب » أحسست بفرحة غامرة .. »

وقال خميس شاهين :

— « وفي تل أييب ، وسائل الراحة مديرة لأبعد حد .. »

وبقي القائد صامتاً فترة ، ثم رفع عينين يبدو فيها الشك والحيرة

وقال :

— « لا هجوم .. » فهتفوا بصوت واحد : —

— « كيف؟؟؟ »

— « أوامر القيادة العليا .. »

— « ما السر؟؟؟ »

— « هذا ما لا أعرفه .. »

وصاح صالح بدران قائلاً في ثقة :

— « لاشك أن هناك خطة موحدة بين قوات القطاع كله

للاجهاز على « تل أييب » ، وهذا هو السبب في توقف الهجوم .. »

وعلقت نجلاء :
 - « هو ذاك ، لكن أرجو ألا يطول جمودنا في مواقعنا . . »

وهمس القائد :
 - « العلم عند الله . . »

وأردف خميس في سخرية :
 - « وعند من يدهم الأمر . . »

وسمع الليل وردت أنباء خطيرة ، لقد أتى « كنعان » رقم ٩ صاحب الأصابع المبتور ، وألقى كلمة السر ثم طلب مقابلة القائد فوراً ، لم ينم القائد في تلك الليلة . لقد حرمه القلق لذة الإغفاء . فجلس على مقعده ، ناشراً أمامه خريطة لفلسطين ، متنقلاً ببصره عبر قطاعاتها المختلفة ، ومدنها وقراها ، كان يريد أن يشغل وقته بأى شيء ، ومن يدرى قد تصدأوامر جديدة يذشرح لها صدره ، وتبدد ما استبد به من قلق وحيرة ، وعندما رأى كنعان التابع لجهاز المخابرات ، ردت إليه الروح ، قد يحمل كنعان إليه أنباء تريحه وتبعث في قلبه الاطمئنان ، لكن كنعان كان كابي النظرات ، يحلل الحزن خطواته المتعثرة المتعجلة ، وألقى كنعان التحية ، واستأذن في الجلوس ، وسحب أقرب مقعد إليه وألقى بجسده المتعب عليه وهو يلهث ، ولم يطق القائد صبراً ، فقد هتف :

- ٢٨٨ -

- « ماذا جرى ؟؟ الأوامر الجديدة لا تتفق والموقف
الراهن ... »

- « أعرف ذلك ... »

- « أصبح الطريق إلى « تل أبيب » شبه مفتوح ... »

وران عليهما الصمت لدقيقة ، وقال كنعان بعدها :

- « الخيانة حركت رأسها أمس .. وارتكبت جريمة كبرى
خلف ظهوركم ... »

وهب القائد واقفاً ، وهدر في انفعال :

- « كيف حدث ذلك ؟؟ »

وروى كنعان أنباء مشيرة لم يصدقها القائد لأول وهلة ، كان
يستمع إليها في ذهول ، فكيف يصدق أن الجهة الأردنية قد سلمت
« اللد والرملة » للأعداء دون معركة حقيقية ، وانسحبت تاركة
السكان الآمنين فريسة في يد الحقد الصهيوني الأسود ؟؟ واستطرد
كنعان في سرد التفاصيل ، المذابح التي أجزاها اليهود في « اللد والرملة »
القتل بالجملة ، الاعتداء على النفس والعرض والمال . . . البيان
الحربي الهزيل الذي أذاعه « جلوب باشا » عن الانسحاب طبقاً
« لخطة مرسومة » !! تسلب اليهود إلى مواقع خلفية وتهديدهم
لزعحف القوات المتقدمة نحو « تل أبيب » ..

— ٢٨٩ —

وتمم القائد :

— « هذه هي قمة المأساة .. »

غير أن كنعان قال وهو يبتسم في مرارة قاتلة :

— « كلا .. هذا أمر بسيط .. الأخطر منه .. الهدنة .. »

واقرب القائد منه وأمسك بكتفة في جنون وصرخ :-

— « الهدنة؟؟؟ »

— « أجل .. »

— ماذا تعنى؟؟ كيف تتحدث عن الهدنة ونحن ندق أبواب

« تل أبيب ، ونكاد نجهز على السرطان الصهيوني؟؟ إن أتفه الناس تفكيراً لا يمكن أن يفكر فيها .. »

— « أصبحت الهدنة الأمل الوحيد لإسرائيل ، لأنها ستحفظ

ماء وجههم ، وتعطيهم فرصة للاستعداد واسترداد أنفاسهم ، وإعادة

النظر في القضية على ضوء التطورات الجديدة ، ووضعت مؤامرة

أخيرة لحسم الموقف في صالح الصهيونية والاستعمار .. »

قال القائد : —

— « ولذلك فإن حديث الهدنة خرافة .. وخيانة

— « ستعقد هدنة .. »

— « أنت تهذى يا كنعان .. »

— ٢٩٠ —

« ستعقد هدنة .. أقول لك .. الملك عبدالله قبلها وأعلن استعدادها لتوقيعها .. لم يدخل الملك الحرب لتحرير فلسطين ولكن لاقتطاع جزء يوسع به مملكته القاحلة ، ويلعب دور الخيانة في الصف العربي ، فيميع المعركة .. إما الهدنة وإما خلاف خطير يدب في صفوف العرب ، وقد يقع بينهم صدام دموي .. وفي الحالين ستستفيد إسرائيل .. »

وتمم القائد في ذهول : —

« وقف العمليات .. لا تتقدموا .. الخيانة .. جلوب باشا .. الطريق إلى تل أبيب .. » والتفت القائد إلى كنعان وقال وهو يفرك يديه في عصبية ظاهرة : —

« وما جزاء الملك الخائن ؟؟ »

« القتل .. »

« بالضبط .. »

« سنفعلها .. بل سنفعلها بكل خائن ، يتنكر للقضية الكبرى ، وبمزق وحدة الصف العربي ، ويمد يده الآثمة لبصافح العدو ، أو يشرب معه نخب الخيانة في جماجم الشهداء .. إن أبشع صفقة ياسيدي هو الاتجار بدم الشرفاء .. »

وانتشر الخبر المشؤوم ، وخيم على الجنود أسى حزين ، وبدت

المستعمرات الصهيونية من بعيد كجموعة من العاهرات عرايا في
تبجح وصفاقة ، وانتشرت القرى العربية على مدى البصر كقطع من
الضباب الداكن .. وار تعشت رءوس النخيل كأنها عمالقة ينوحون ..
وثارت عاصفة من المناقشات الحادة ، فمن قائل إن حديث الهدنة
حديث خرافة ، لأن الهدنة في هذا الوقت عار وجريمة وغباء ، ولن
يجرؤ ملك عربي أن يعلنها لأن فيها فناءه وسحق عرشه ، ومن قائل إن
نسبة الشك كبيرة ، ولا حل سوى أن نوجه رصاص مدافعنا إلى
صدور الذين يغدرون بقضيتنا المقدسة ؛ وطائفة ثالثة تقول ليس
علينا سوى الاعتصام بالصبر ، فقد تنكشف الغمة ، وتجد أحداث
ضخمة ، تغير مجرى الأمور ، وتكون في صالحنا .. وألقى الرجال
بأجسادهم على فراش كالشوك . وأغمضوا عيونهم على رؤى مخيفة
مهولة ، وطووا صدورهم على جمرات من النعمة لا يهدأ لها أوار ..
وانظروا الغد والغد مجهول والانتظار عذاب ...

الفصل السادس والعشرون

وقبلت اسرائيل الهدنة ، وقبلها ملوك العرب ورؤساؤهم ، بعضهم كان استجابة لرغبة الاستعمار ، والبعض الآخر قبلها خوفاً من تصدع الصف ، وتشدت السبل بهم ، ودقت طبول السلام الحزين ، أجل .. السلام الذي جاء على أنقاض الحق الضائع ، السلام الذي أراد لشعب بأسره أن يتشرد ، وأراد لعصابة باغية من الصهيونيين أن تسرق وطناً .. كان سلاماً زائفاً كاذباً ، بل مؤامرة دنيئة لوقف الزحف المقدس الذي يطوق « تل أبيب » ، ويوشك أن يضع النهاية العادلة لمأساة دامية ، ويرد الحقوق لأصحابها ، لم يكن في الحقيقة سلاماً لكنه كانت هزيمة مفروضة من قبل القوى الاستعمارية ، هزيمة ارتضاها حكام العرب .. لا ضعفاً وعجزاً وتراجعاً في المعركة - بل خيبة وسوء تصرف أمام الضغط الخارجي ..

وتوقفت الحرب والجهاد المقدس ...

وتوقف أيضاً قلب أبو نجلاء ، إذ وردت برقية إلى « طولكرم » تقول أنه فوجيء بنوبة قلبية بعد سماعه أنباء الهدنة ، ومات على الفور في المسجد الأقصى .. وقالت نجلاء وعيناها مغرورقتان بالدموع :

-- ٢٩٤ --

-- « يا المصيبة !! مات أبي .. وماتت أمنياتي في العودة .. لم يبق لي شيء في الحياة .. يا إلهي !! لماذا لم أقض نحبي أنا الأخرى .. أصبحت الحياة عذاباً ومرارة دائماً .. »

فرد القائد القصير ذو اللحية السوداء، ودموعه تنهمر في غزارة لأول مرة :-

-- « لم تمت أمنياتنا يا ابنتي .. والمعركة لم تنته فسنظل دائرة حتى يعود الحق لأهله .. الهدنة أ كذوبة لن تعيش طويلاً .. وإسرائيل هي الأخرى أ كذوبة كبرى لا تقوم على أساس من المنطق أو العدل .. وإذا كانت الخيانة قد أوقفت الزحف إلى حين، فليس معنى ذلك أن تبقى الخيانة خالدة .. إنها وباء طارئ .. وسنقضى على جرثومته بالحكمة والإصرار والإيمان الذي لا يتزعزع إن شعوبنا اليوم تغلى كبركان يوشك أن ينفجر .. وسينفجر البركان ذات يوم في مصر .. وفي دمشق وعمان وبغداد وغيرها ، ويومها سيتغير وجه الحياة، وتتولى مقاليد الأمور أيد نظيفة فتية .. ترفع أعلام الثورة ، وتحطم فواصل العزلة والفرقة بين أمتنا العربية .. وتجعلها أمة عربية واحدة ، لها هدف واحد ووسيلة واحدة .. ويومها تتحرر فلسطين .. كما تحررت من أيدي الصليبيين في الماضي .. ويومها تعودين يا نجلاء إلى « حيفا ، عزيزة مكرمة .. ألم أقل لكم ذات يوم لسوف تكون هذه المأساة ناقوساً يوقظ

-- ٢٩٥ --

النيام في الأرض العربية .. ألم أقل لكم أن من أرض المأساة هذه
ستنبث قيم ومبادئ جديدة .. وجيل من الشباب جديد ، جيل
يتحرق شوقاً إلى إلى الحرية والعدالة .. جيل الثورة يا فتاتي .. لقد
سمعت أمس أن ضباط الجيوش النظامية ، وخاصة في الجبهة المصرية
كادوا يتمردون على أوامر وقف إطلاق النار .. كادوا يعلنون
العصيان .. لكن بعض رفاقهم نصحوهم بالصبر .. وفي الفالوجة
يا إخوان أبدى الضباط بسالة ووعياً غريبيين ، إن هناك رجالاً
يطوون صدورهم على أمنيات وأحلام كبيرة ... أي نجلاء .. إن
مات أبوك واخوتك ، فإن الأمنيات لن تموت ، فالأمنيات
الكبيرة تعيش في قلوب الأحرار الشرفاء وهم خير الأماناء على
تراث هذه الأمة الخالدة ..

وساد الصمت في تلك اللحظات الحاسمة التي لن تنسى ..
وترقرت الدموع في عيني صالح بدران .. وانهمرت أيضاً على
خد خميس شاهين .. وألقت نجلاء بجسدها المنهك على الأرض وهي
عاجزة عن أن تبكي أو تتكلم .. كانت نظراتها الشاردة تهيم في
الأفق البعيد .. لعلها تبحث عن حلها المغيّب وراء التلال .. عن
حيفا والذكريات .

وعاد القائد يقول :-

-- د جففوا دموعكم يارفاق ... فالهدنة مرحلة من مراحل

الكفاح .. لكنها ليست نهاية .. آمنوا بذلك .. وثقوا أنكم عائدون يوماً إلى المعركة ، وعائدون إلى الديار السليبة .. وأقسم لكم أنها لن تكون هدنة .. ستندلع النيران ضد الطغاة في مصر وستشعل الثورة في بغداد ، وستكون حرباً أخرى مقدسة لتطهير جبهاتنا الداخلية وحياتنا السياسية والاجتماعية من الفساد والانتهازية ، وبعدها نعود إلى المعركة الكبرى أكثر قوة وثقة وإيماناً ، ونعود وليس وراء ظهورنا خيانة تدبر ، نعود بقيادات جديدة ، وإصرار عنيد ، يظللنا علم الوحدة .. وعند ذلك سيكون النصر أكيداً أيها الاخوان .. بإذن الله .. ،

وصرخ صالح بدران فجأة : -

-- « كيف تترك المعركة دون نتيجة حاسمة .. ان أغادر هذا المكان إلا منتصراً أو ميتاً .. »

واختطف مدفعه في جنون ، وجرى في الطريق المؤدى إلى « تل اييب ، وصاحت نجلاء وقد فارقتها زهو لها : -

-- « أدركوه .. إنه ينتحر .. »

وجرى خلفه رفاقه ، وأحاطوا به من كل جانب ، وعندما وجدهم يسدون عليه الطريق من كل مكان ، صرخ ثانية : -
-- « دعوني .. وإلا أطلقت عليكم الرصاص .. »

— ٢٩٧ —

كان يتصرف بلا عقل ، وبريق عجيب مجنون يتراقص في
عينيه ، وهتف القائد في رقة : -

-- « كن عاقلاً .. إنهم إخوانك .. استغفر الله وعهد إلى
رشدك يا صالح .. »

-- « لو اقترب أحدكم مني لأطلقت الرصاص فوراً .. »
كان يقف وسط الحلقة ، مرهف الحواس لا يعي شيئاً مما يفعل
ولم يكن مستبعداً أن يقدم على حماقة من حماقات ، وقال القائد : -
-- « نحن في حاجة إليك .. »

-- « كيف أعود إلى بيتي بلا نصر ؟؟ »

-- « ستنتصر يوماً ما ... »

-- « انكم تخدرون حماسي .. »

وهمس خميس شاهين في أذن نجلاء :

-- « ستحسمين الموقف .. تقدمي أنت إليه .. »

-- « كف ؟؟ »

-- « أنت تعلمين .. إنه يجبك .. ولن يمسك بسوء .. »

ومن خلال الصمت العاصف ، والتوتر العنيف نادى نجلاء :

-- « صالح .. أنا قادمة إليك .. تستطيع أن تقتلني .. »

وحاول القائد أن يمنعها فقالت في إصرار :

-- « دعني .. »

— ٢٩٨ —

وصاح صالح بدران وقد رآها تقبل نحوه :

— « أرجعي .. »

— « كلا ... »

— سأضرب .. هذا ما أريده .. لم يبق لي أحد .. مات أنى ..
أسرتى فنيت عن آخرها .. وأريد اللحاق بهم هيا أطلق الرصاص
هيا .. لماذا تجمدت .. »

كانت تقرب ، وكان تشنجه وعضلاته المقتبضة تنبسط رويداً
رويداً ، وملاحظه ترق ، ونظراته تتبدل ، وينبثق منها الحب والحنان
وما أن اقتربت منه حتى وقع المدفع من يده ، وفتح ذراعيه في الهواء
لقد نسي كل ما حوله ، ثم طوقها بذراعيها متشبثاً بها ، وهو يغمغم
— « حبيبتي .. ستعودين يوماً إلى حيفا .. لكننا اليوم سنتجه
معاً إلى القاهرة .. سنزوج أطفهين ؟؟ أنت لى .. أنت رمز
الأرض المقدسة الغالية التي أحببتها من كل قلبي .. »

وغمغمت وهي تمسح دموعها في صدره وتقاوم الخجل والحرص
الذين يطبقان عليها :

— « أنت لى .. أنا أنت .. وسأعود معك إلى القاهرة .. »

— « ومن القاهرة يا حبيبتي ستنتقل الثورة .. وترفع شعارات
شعارات الحرية والخلاص والوحدة ، ومنها ستزحف الجنود يقودها
رجل كصلاح الدين .. ويفتح الطريق أمامنا إلى حيفا وتل أبيب .. »

— ٢٩٩ —

— « ياذن الله .. »

وأفاقت نجلاء إلى نفسها ، وهمست في أذن صالح :

— « إنهم واقفون .. »

وعندما تطلعت أبصارهم إلى إخوانهم لم يجدوا أحداً ، لقد عادوا إلى أماكنهم وتركوهما وحدهما ، وعاد صالح ينظر إليهما في رقة وحنان ويقول :

— « ولسوف نعقد قراننا في طو لكرم .. »

— « أمرك .. »

— « وسيكون قائدنا الشجاع وخميس شاهين شاهدي العقد ، قالت نجلاء وهي تبتسم ابتسامة يخالطها أسى لن يزول :

— « وسيغار خميس منا .. فقد كان يشتهي - دون شك - أن

تكون ضحى هنا ويفعل ما فعلنا .. »

وهمس في شروء :

— « وسننجب جيلا جديدا .. يكون أسعد حظاً منا ، وأشد

إيماناً بالخلاص والثورة .. »

وخفضت نجلاء رأسها في حياء وصمت ..

* * *

وبعد ساعة كانت القوات النظامية قد قدمت واحتلت المواقع

- ٣٠٠ -

الأمامية خلف خط الهدنة ، ومن بعيد ظهرت قوات الأمم المتحدة
التي ستقوم مراكزها في المنطقة الحرام بين القوات العربية
والقوات الصهيونية

وصدرت الأوامر للمتطوعين بالعودة إلى بلادهم فوراً ، أما
القائد القصير ذو اللحية السوداء ، فقد حملوه في عربة خاصة مقبوضاً
عليه ، كي يرحل إلى أحد السجون المصرية لخطورته على الأمن . .
أعنى .. لبطولته الخارقة في ميدان الشرف والجهاد المقدس . . .
ولنوأياه السيئة تجاه أداة الحكم الفاسدة التي طعنت شرف النضال
في أخرج ساعات المعركة ..

وبالتأكيد لن يكون السجن مقبرة للأحرار ، بل سيكون
مدرسة أخرى لتخريج الطليعة الثورية التي سوف تبشر بالقيم
الجديدة الحرة .. والعدالة .. والحب .. والوحدة .. وعودة
الوطن السليب ..

نجيب الكيلاني

كتب للمؤلف

روايات

- * الطريق الطويل . . . جائزة وزارة التربية (طبعة ثالثة)
- * فى الظلام جائزة وزارة التربية
- * عذراء القرية
- * ليل الخطايا منشورات دار الفكر - دمشق
- * طلائع الفجر تكلمة القصة بدأها الرئيس جمال عبدالناصر منشورات دار الفكر - دمشق
- * اليوم الموعود جائزة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب (طبعة ثالثة)
- * رأس الشيطان
- * أرض الأنبياء
- * الذين يحترقون
- * يوميات الركاب شملول

مجموعات القصص القصيرة

- * موعدا غداً جائزة نادى القصة وميدالية طه حسين الذهبية
- * دموع الأمير
- * العالم الضيق (منشورات دار النور - ليبيا)

- ٣٠٢ -

دراسات

- إقبال الشاعر الثائر . جائزة وزارة التربية
 - شوقي في ركب الخالدين جائزة وزارة التربية
 - المجتمع المريض جائزة وزارة التربية
 - الطريق إلى اتحاد إسلامي منشورات دار النور - ليبيا
 - الإسلامية والمذاهب الأربعة
- منشورات دار النور - ليبيا

مسرحيات

- على أسوار دمشق - مسرحية تاريخية

شعر

- نحو العلا
- أغاني الغرباء

فهرس

الصفحة	الموضوع
٣	المقدمة
٩	الفصل الأول
١٩	الفصل الثاني
٢٧	الفصل الثالث
٣٢	الفصل الرابع
٤٠	الفصل الخامس
٥١	الفصل السادس
٦٠	الفصل السابع
٦٩	الفصل الثامن
٨١	الفصل التاسع
٩١	الفصل العاشر
١١١	الفصل الحادى عشر
١٢٥	الفصل الثانى عشر
١٤٧	الفصل الثالث عشر
١٥٣	الفصل الرابع عشر
١٦٩	الفصل الخامس عشر

الصفحة	الموضوع
١٧٩	الفصل السادس عشر
١٨٩	الفصل السابع عشر
٢٠٣	الفصل الثامن عشر
٢٠٧	الفصل التاسع عشر
٢٢٣	الفصل العشر
٢٢٧	الفصل الحادى والعشرون
٢٤٩	الفصل الثانى والعشرون
٢٥٩	الفصل الثالث والعشرون
٢٧١	الفصل الرابع والعشرون
٢٨٥	الفصل الخامس والعشرون
٢٩٣	الفصل السادس والعشرون



المؤلف

• هو الأديب الطبيب
 زهير عبد الحكيم
 • حاز على جوائز زوارق التميز
 وتعليم واليسين على الرعاية
 الفنون والآداب، وفادى القصة
 الحديثة، وابتداء العنصرية
 الطويل، ولقد عمل في اللغة
 الإيطالية من عام ١٩٣١
 التحسين العربي.
 • ولد في بلدة شامية محافظة
 حماة في شهر ١٠ سنة ١٩٣١



هذه الرواية

• من ليل الدميح الغريبة التي
 أهدى بها، وحيدا، وعذرا، الطير المبعوث
 • ومن خلال تلك الغريبة، والذكرايات الشجيرة، والأجساد الأحسن
 • ومن قصص الغروب التي تتشوق للحياة والحب، وليل التميز
 لأخيراً من أروع الأسبوع.
 • ومن النظرة الصاروخية، التي تسبق بالأمس والأفضل، هو العمل
 على أن يكتب باسمه في متار، بما المعتبر.
 • ومن هذا كله تشكل مطوية هذه الرواية، أروعها وأجملها، التي تتحدث
 عن الحب في مشرقنا الآتي، عاصفة والكفاحية والإيمان.



سنة ١٩٣١

الطبعة ٣٠